@ketab_n
Follow Me
3.4.2016

رواية

نيل جايمان

ترجمة
هشام فهمي

المحيط في نهاية الدرب

التنوير

نيل جايمان

المُحيط في نهايَة الدَّرب

ترجمة: هشام فهمي

Twitter: @ketab_n

نيل جايمان

المُحيط في نهايَة الدَّرب

ترجمة: هشام فهمي

Twitter: @ketab_n

الكتاب: المُحيط في نهايَة الدَّرب/ رواية
المؤلف: نيل جايمان
ترجمة: هشام فهمي
عدد الصفحات: 272 صفحة
الترقيم الدولي: 978-977-6483-43-9
رقم الناشر: 2015/15569
الطبعة الأولى: 2015

هذه ترجمة مرخّصة للكتاب: The Ocean at the End of the Lane
تأليف: Neil Gaiman
Copyright © 2013 by Neil Gaiman

جميع حقوق النسخة العربية محفوظة لدار التنوير ©

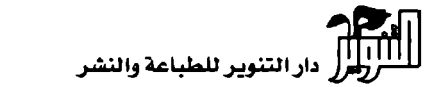

دار التنوير للطباعة والنشر

مصر: القاهرة–وسط البلد –19 عبد السلام عارف (البستان سابقًا) –الدور 8 – شقة 82
هاتف: 0020223921332
بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com
لبنان: بيروت – بئر حسن – سنتر كريستال، الهزيم – الطابق الثالث –
هاتف : 009611843340
بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com
تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر – 1001 تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690
بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com
موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

Twitter: @ketab_n

إهداء

إلى آماندا،

التي أرادَت أن تَعرِف.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

«طُفولتي أذكُرُها بوضوحٍ تام، وفيها عَرِفتُ أشياءَ رهيبة.. لكني كنتُ أعرِفُ كذلك أني يجب ألا أجعل الكِبار يَعرِفون ما أعرِفه، لأنه كان ليُصيبهم بالرُّعب».

موريس سِنداك: رسَّام وكاتِب قِصَص الأطفال في حوار مع رسَّام الكاريكاتور والكومِكس آرت شبيجلمان.

جريدة The New Yorker، 27 سبتمبر 1993.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

كانت مُجرَّد بِركة بَط في مؤخِّرة المَزرعة، ولم تَكُن كبيرةً إلى هذه الدَّرجة، لكن لِتي هِمبستوك كانت تقول إنها مُحيط، وكنتُ أعرِفُ أن هذا سُخف.

قالت إنهم أتوا إلى هنا عَبر المُحيط من الرِّيفِ القديم، وقالت أُمُّها إن لِتي لا تَذكُر بِدِقَّة، وإن ذلك كان منذ زمنٍ طويل، ولقد غَرِقَ الرِّيفُ القديم على كلِّ حال.

وقالت مسز هِمبستوك الكبيرة، جَدَّة لِتي، إن كلتيهما مُخطِئتان، وإن الرِّيفَ القديم هو المكان الذي غَرِقَ وليس الرِّيفُ القديم جدًّا، وقالت إنها تَذكُر الرِّيفَ القديم جدًّا.

قالت إن الرِّيفَ القديم جدًّا قد انفجَر.

Twitter: @ketab_n

تَمهيد

كنتُ أرتدي بدلةً سوداء وقميصًا أبيضَ مع ربطة عُنُقٍ سوداء وأنتعلُ حذاءً أسودَ لامِعًا، وهو نوع الملابس التي يُشعِرني عادةً بعدم الرَّاحة، كأني أرتدي زِيًّا رسميًّا مسروقًا أو أتظاهَرُ بأني رجلٌ راشِد، لكنها أشعرَتني اليوم بالذَّات بنوعٍ من الارتياح، فقد كنتُ أرتدي الملابس المُلائمة ليومٍ صَعب.

لقد قمتُ بواجبي في الصباح، وردَّدتُ الكلمات التي ينبغي عليَّ ترديدها، وكنتُ أعنيها بالفِعل وأنا أُرَدِّدها، ثم رَكبتُ سيَّارتي عندما انتهَت المراسم وقُدتها على غير هدى من دون اتِّجاهٍ معيَّنٍ في ذِهني، وأمامي نحو ساعةٍ أخرى أُمَضِّيها قبل أن ألتقي بالمزيد من الناس الذين لم أرَهم منذ سنوات، وأُصافِح المزيد من الأيدي، وأحتسي عددًا ضخمًا من أقداح الشاي المصنوعة من الخَزَفِ الصِّيني الفاخِر. قُدْتُ السيَّارة عبر طُرُق ساسِكس[1] الرِّيفيَّة المُلتَفَّة التي لا أذكُرُها بوضوح، إلى أن وجَدتُ نفسي مُتَّجِهًا صوب مركز

(1) ساسِكس: مقاطَعة تاريخيَّة مهمَّة تقع في جنوب شرقي إنجلترا.

Twitter: @ketab_n

البلدة، فانعطَفتُ في طريقٍ آخَر انتقيته عشوائيًّا، قبل أن أسلُك اليسار، ثم اليمين.

عندها فقط أدرَكتُ المكان الذي أتَّجهُ إليه، المكان الذي كنتُ أتَّجهُ إليه منذ البداية، وعبَستُ لحماقتي.

كنتُ أقودُ السيَّارة إلى منزلٍ لم يَعُد موجودًا منذ سنوات.

فكَّرتُ عندها في الـدوران وأنا أقطعُ شارعًا واسعًا كان في الماضي طريقًا مرصوفًا بأحجار الصوَّان إلى جوار حقلٍ للشَّعير، أو أن أرجع من حيث أتيتُ وأترك الماضي كما هو، لكنني كنتُ أشعُرُ بالفضول.

المنزل القديم، ذلك الذي عِشْتُ فيه لمدَّة سبعة أعوام، منذ كنتُ في الخامسة وحتى بلَغتُ الثانية عشرة، ذلك المنزل هُدِمَ وضاع إلى الأبد. أمَّا المنزل الجديد، الذي بناه أبواي في مؤخِّرة الحديقة بين شُجيرات الأزاليا ودائرة العُشب الأخضر التي كنا نُطلِق عليها اسم حلقة الجِنِّيات، فقد بيع منذ ثلاثين عامًا.

أبطَأتُ حركة السيَّارة عندما رأيتُ المنزل الجديد الذي لم يَعُد جديدًا لكنه سيَظَلُّ المنزل الجديد في عقلي دائمًا. توقَّفتُ في ممرِّ السيَّارات، مُلاحِظًا الطَّريقة التي شُيِّدَ بها المنزل على نمط معمار مُنتَصَف السبعينات، وكنتُ قد نسيتُ أن القرميد له لون بُنِّي كالشوكولاتة. رأيتُ أن المُلَّاك الجُدُد قد حوَّلوا شُرفة أمي إلى غُرفةٍ مشمسةٍ من طابِقين. حدَّقتُ في المنزل مُتَذَكِّرًا أقلَّ مما توقَّعتُ عن سنوات مُراهَقتي، لا أوقات حُلوة ولا أوقات سيِّئة. لقد عِشتُ في هذا المكان لفترةٍ من الوقت عندما كنتُ مُراهِقًا، ولم يَبْدُ لي أنه يُشَكِّل أيَّ جزءٍ مما أنا عليه الآن.

Twitter: @ketab_n

ثم تراجعتُ بالسيَّارة مُغادِرًا الممر.

كنتُ أعرِفُ أن الوقت قد حان للذِّهاب إلى منزل أختي العامِر بالحركة والمرح وأنا أرتدي ملابسي الرسميَّة المهندَمة اليوم فقط. سأتكلَّمُ مع أناسٍ نسيتُ أنهم موجودون منذ سنين، وسيسألونني عن زواجي (الذي فشل منذ عقدٍ من الزَّمن، وقد كان علاقةً أخذَت تبلى ببطءٍ إلى أن انفطرَت في النهاية كما يَحدُث للعلاقات كلها)، وإن كانت هناك امرأة أُواعِدها (ولم تكن هناك من أُواعِدها، ولم أكن واثقًا حتى من قُدرتي على ذلك بَعد)، وسيسألونني عن أولادي (وقد نضجوا جميعًا ولدى كلٍّ منهم حياته الخاصَّة الآن، ويتمنُّون لو كان باستطاعتهم الحضور اليوم)، وعن عملي (ما سأرُدُّ عليه قائلًا إنه بخير، شكرًا، بينما لا أدري أبدًا كيف أتكلَّم عنه. لو كنتُ أستطيعُ الكلام عنه لما كان عليَّ القيام به. إنني أصنعُ فنًّا، وأحيانًا أصنعُ فنًّا حقيقيًّا، وأحيانًا ما يملأ الفراغات التي في حياتي؛ بعضها وليس جميعها). سوف نتكلَّم عن الرَّاحلين، ونتذَكَّر الذين فارَقونا بلا عودة.

تحوَّل دَرب طفولتي الرِّيفي القديم إلى طريقٍ أسفلتي أسودَ يعمل كمنطقةٍ فاصلةٍ بين مُجَمَّعين سكنيَّين ممتدَّين. توغَّلتُ أكثر في الدَّرب بعيدًا عن البلدة، وهو الطَّريق الذي لم يكن يَجدُر بي أن أقطعه، لكني شعرتُ بالرَّاحة.

صار الطَّريق الأسود الأملس أكثر ضيقًا والتفافًا، وعاد الدَّرب ذو الحارة الواحدة الذي أذكره من أيام طفولتي من جديد، مفروشًا بأكوام التُّربة وأحجار الصوَّان ذات الأشكال غير المُنتَظِمة الشبيهة بالعِظام.

سرعان ما كنتُ أقطعُ ببطءٍ دَربًا ضيِّقًا مليئًا بالحُفَر والمطبَّات، يَحُدُّه العُلَّيق والورد البرِّي من الجانبين في كلِّ بُقعةٍ لا تصطَفُّ فيها

Twitter: @ketab_n

مجموعات أشجار البندق أو الشُّجيرات البرِّيَّة. وكأني كنتُ أقودُ السيَّارة في رحلةٍ إلى الماضي، كان الدَّرب كما أذكره تمامًا، بينما اختلَف كلُّ شيءٍ آخَر.

مررتُ بمَزرعة كاراواي، وتذكَّرتُ عندما كنتُ قد بلغتُ السادسة عشرة من عُمري للتَّوِّ وقبَّلتُ كالي آندرز ذات الوجنتين الحمراوين والشَّعر الأشقَر التي كانت تعيش هناك، قبل أن تَنتَقِل عائلتها بعد ذلك بفترةٍ قصيرة إلى جُزُر شِتلاندز[1]، ولم أرَها أو أُقبِّلها بعدها قَطُّ. ثم لم يَعُد هناك إلا الحقول والمروج المُتشابكة على جانِبيِّ الطَّريق طوال ميلٍ تقريبًا، وببطءٍ تحوَّل الدَّرب إلى خَطٍّ رفيعٍ إذ دنا من نهايته.

تذكَّرته حتى قبل أن أنعَطِف حول النَّاصية، ورأيته في مَجده المتهدِّم ذي القرميد الأحمر.. بيت مَزرعة هِمبستوك.

باغتَتني رؤيتي له، على الرغم من أن الدَّرب كان ينتهي عنده دائمًا. لم يكن هناك مجال للمِضِيِّ قُدُمًا، فركَنتُ السيَّارة إلى جانِب فِناء المَزرعة. لم تكن لديَّ خُطَّة معيَّنة، وتساءَلتُ إن كان هناك من لا يزال يعيش هنا بَعد كلِّ تلك السنوات، أو -بالأحرى- إن كان آل هِمبستوك ما زالوا يعيشون هناك. كان احتمالًا مستبعَدًا، لكنهم -بحسب القليل الذي أذكُره- كانوا أناسًا غير تقليديِّين دومًا.

هاجمَتني رائحة روث الأبقار الكريهة بمُجرَّد خروجي من السيَّارة، وقطَعتُ الفِناء الصغير بحذرٍ شديد إلى الباب الأمامي. بحَثتُ عبثًا عن جرسٍ أدُقُّه، ثم طرَقتُ الباب. لم يكن المزلاج مُغلَقًا جيِّدًا، وانفتَح الباب بهدوءٍ بمُجرَّد أن طرَقتُ عليه بمفاصل أصابعي.

(1) جُزُر شِتلاندز: أرخبيل جُزُر يقع في بحر النرويج، ويُعَدُّ تابعًا لسكوتلندا رسميًّا.

Twitter: @ketab_n

لقد كنتُ هنا منذ زمنٍ طويل، أليس كذلك؟ أنا واثقٌ من هذا. أحيانًا ما تتوارى ذكريات الطُّفولة وتصير مُبهَمةً تحت طبقات الأشياء التي تأتي لاحقًا، كاللُّعَب القديمة التي تُنسى في خزانةٍ مكتظَّةٍ بالأشياء يَملِكها شخص بالِغ، لكنها لا تضيع أبدًا.

وقَفتُ في البهو وناديتُ:

- «مرحبًا! هل من أحدٍ هنا؟».

لم أسمع شيئًا، وشمَمتُ روائح خَبْز الخُبز وشَمع تلميع الأثاث والخشب القديم. استغرقَت عيناي وقتًا حتى تعوَّدتا على الظَّلام الذي حدَّقتُ فيه وكنتُ على وشك أن أدور وأعود أدراجي، عندما خرجَت من البهو المُعتِم امرأة عجوز ذات شَعرٍ أشيب طويل حامِلةً مِنفَضة غبارٍ بيضاء.

قلتُ:

- «مسز هِمبستوك؟».

حنَت رأسها إلى الجانِب ورمقَتني قائلةً:

- «نعم، إنني أعرِفك أيها الشَّاب».

فكَّرتُ أنني لستُ شابًّا، ولم أعُد كذلك منذ زمن، بينما واصلَت هي:

- «إنني أعرِفك، لكن الأشياء تتشوَّش وتَختَلِط عندما تكون في سِنِّي. من أنت بالضبط؟».

- «أعتَقِدُ أني كنتُ في السابعة أو الثامنة من عُمري ربما عندما كنتُ هنا آخِر مرَّة».

Twitter: @ketab_n

ابتسمَت وقالت:

- «هل أنت صديق لِتي من أعلى الدَّرب؟».

- «لقد سقَيتيني الحليب، وكان لا يزال طازجًا دافئًا من الأبقار».

ثم أدرَكتُ كم عامًا قد مَرَّ منذ ذلك الحين، فقلتُ:

- «لا، هذه لم تكن أنتِ. لا بُدَّ أن أُمَّكِ هي من سقَتني الحليب. آسِف».

إننا نصير آباءنا كلما تقدَّم بنا العُمر، وعندما نحيا كفايةً نرى الوجوه تتكرَّر في الزَّمن. تذكَّرتُ أن مسز هِمبستوك، أُمَّ لِتي، كانت امرأةً سمينةً، أمَّا هذه فنحيلة كالعصا وتبدو عليها الرِّقَّة. كانت تبدو كأُمِّها، كالمرأة التي عَرِفتها باسم مسز هِمبستوك الكبيرة.

أحيانًا ما أرى وجه أبي عندما أنظُرُ في المرآة وليس وجهي أنا، فأتذكَّرُ الطَّريقة التي كان يَبتَسِم بها لنفسه في المرايا قبل أن يَخرُج ويقول لانعكاسه في استحسان: «تبدو وسيمًا»، ويُكَرِّرها.

سألَتني مسز هِمبستوك:

- «هل جِئتَ لترى لِتي؟».

- «أهي هنا؟».

فاجأَتني الفِكرة، لأن لِتي كانت قد رحلَت إلى مكانٍ ما، أليس كذلك؟ أميركا ربما؟

هَزَّت العجوز رأسها نفيًا وقالت:

- «كنتُ على وشك أن أضع الغلَّاية على النار. هل تَرغَب في بعض الشَّاي؟».

Twitter: @ketab_n

تردَّدتُ، ثم طلَبتُ منها أن تُرشِدني إلى بِركة البَط أولًا إذا لم يَكُن لديها مانع.

- «بِركة البَط؟».

كنتُ أعرِفُ أن لِتي كانت تُطلِق عليها اسمًا طريفًا. تذكَّرتُ ذلك وقلتُ:

- «كانت تُطلِق عليها البحر، أو شيئًا شبيهًا بهذا».

وضعَت العجوز قِطعة قُماش التنظيف على خزانة الأطباق قائلةً:

- «لا يُمكنك أن تشرب ماء البحر، أليس كذلك؟ إنه مالِح للغاية، كأنك تشرب دَمَّ الحياة. هل تَذكُر الطَّريق؟ يُمكنك الوصول إليها بالدوران حول جانِب المنزل. اتبع الطَّريق فقط».

لو كنت قد سألتَني قبل ساعةٍ واحدةٍ لكنتُ قد قلتُ لك كلا، إنني لا أذكُرُ الطَّريق، ولا أعتَقِدُ حتى أني كنتُ لأذكُر اسم لِتي هِمبستوك، لكن هأنذا أقِفُ في هذا البهو وأسترجِعُ كلَّ شيء. كانت الذِّكريات تَنتَظِر على حافَّة الأشياء، تومئ إليَّ، ولو كنت قد قلت لي إنني عُدْتُ إلى سِنِّ السابعة لكنتُ قد صدَّقتك تقريبًا لوهلة.

شكَرتها، وخرَجتُ إلى فِناء المَزرعة. مشيتُ بحذاء حافَّة الحقل مرورًا بقُنِّ الدجاج وحظيرة الماشية القديمة، مُتَذَكِّرًا أين أنا وما الذي سأجِده بعد ذلك شاعِرًا بالجَذَل. كانت أشجار البندق تَحُدُّ حافَّة المَرج، وقطَفتُ حفنةً من حبَّات البندق الخضراء ووضَعتها في جيبي.

قلتُ لنفسي إنني اقتَرَبتُ من البِركة، وعليَّ فقط أن أدور حول هذه السَّقيفة لأراها.

Twitter: @ketab_n

ورأيتها وشعرتُ على نحوٍ غريب بالفخر بنفسي، كأن فِعل الذَّاكرة الواحد هذا قد أزال بعض خيوط العنكبوت التي صنعَها اليوم.

كانت البِركة أصغر مما أتذكَّرُ، وثمَّة سقيفة خشب صغيرة على طرفها البعيد، وعلى الطَّريق مقعد طويل عتيق وثقيل مصنوع من الخشب والمعدن. كانت شرائح الخشب المتقشِّرة قد طُلِيَت باللون الأخضر منذ بضع سنوات. جلَستُ على المقعد وحدَّقتُ في انعكاس السَّماء في المياه وغُثاء الطحالب عند الحواف ونِصف دستةٍ من زنابق الماء. بين الحين والآخَر كنتُ أقذِفُ حبَّة بندقٍ في مُنتَصَف البِركة، البِركة التي كانت لِتي هِمبستوك تُطلِق عليها اسم..

لم يكن البحر، أليس كذلك؟

لا بُدَّ أنها أكبر سِنًّا مني الآن، لِتي هِمبستوك، فقد كانت تَكبُرني بسنينٍ قليلةٍ وقتها على الرغم من كلِّ كلامها الغريب. كانت في الحادية عشرة من عُمرها، وأنا.. كم كان عُمري؟ كنتُ أعرِفُ أن هذا كان بعد حفل عيد الميلاد السيِّئ، فلا بُدَّ أنني كنتُ في السابعة إذن.

تساءَلتُ إن كنا قد سقَطنا في الماء ذات مرَّة. هل دفَعتها في بِركة البَط، تلك الفتاة الغريبة التي عاشَت في المَزرعة في أقصى الدَّرب؟ إنني أذكُرُ وجودها في الماء، ولعلَّها دفعَتني بدورها لأَسقُط في البِركة.

أين ذهبَت لِتي؟ أميركا؟ لا، إلى أستراليا.. بالضبط.. إلى مكانٍ بعيدٍ جدًّا.

ولم يَكُن الاسم هو البحر، بل المُحيط..

مُحيط لِتي هِمبستوك..

تذكَّرتُ ذلك.. وعندما تذكَّرتُ ذلك، تذكَّرتُ كلَّ شيء.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

I

لم يأتِ أحد إلى عيد ميلادي السابع.

كانت هناك مائدة ارتصَّت عليها أطباق الجِلي وكعكات المربَّى والفاكهة، ووُضِعَت قبَّعة احتفالٍ عِند كلِّ مكانٍ للجلوس، بينما استقرَّت كعكة عيد الميلاد ذات الشَّمعات السبع في مُنتَصَف المائدة. كان هناك كتاب مرسوم على وجه الكعكة بالسُّكَّر والكريمة، وقد قالت لي أمي -التي نظَّمَت الحفل كله- إن السيِّدة في المخبز قالت لها إنه لم يَسبِق لهم أن وضَعوا كتابًا على كعكة عيد ميلادٍ من قبل، وأن كعكات الأولاد دائمًا ما تُزَيَّن بأشكال كرة القدم وسُفُن الفضاء، أمَّا كعكتي فكانت الأولى ذات الكتاب.

عندما صارَ من الواضِح أن لا أحدَ سيأتي، أشعلَت أمي الشُّموع السبع المغروسة في الكعكة وأطفَأتُها. أكَلتُ قِطعةً من الكعكة، وكذلك أختي الصغيرة وواحدة من صديقاتها (وقد حضرت كلتاهما الحفل كمُشاهِدتين فقط من دون المُشارَكة فيه)، قبل أن تَنطَلِقا ضاحِكَتَين إلى الحديقة.

Twitter: @ketab_n

كانت أمي قد جهَّزَت عددًا من الألعاب للحفل، لكن لأن لا أحد كان موجودًا -ولا أختي حتى- فلم يُلعَب بأيٍّ منها، وفضَضتُ الغلاف المصنوع من ورق الجرائد المحيط بهديَّة تمرير الرِّزمة[1] بنفسي، ليَكشِف عن تمثالٍ أزرقَ صغيرٍ لباتمان مصنوع من البلاستك. كنتُ أشعُرُ بالحزن لأن أحدًا لم يَحضُر عيد ميلادي، لكني كنتُ مسرورًا كذلك لأنه صارَ لديَّ تمثال لباتمان، بالإضافة إلى هديَّة عيد ميلاد تَنتَظِر أن أقرأها، عبارة عن المجموعة الكاملة لحكايات «نارنيا» التي أخَذتها معي إلى غُرفتي في الطابق العُلوي، واستلقَيتُ في الفِراش واستغرَقتُ في قراءة القِصَص حتى الثُّمالة.

كان هذا يروق لي، فالكُتُب مأمونة الجانِب أكثر من الناس على كلِّ حال.

أهداني أبواي أيضًا كتابًا من سلسلة «أفضل مسرحيَّات جيلبرت وسوليڤان» لأضيفه إلى الاثنين اللذين لديَّ بالفِعل، وكنتُ قد وقَعتُ في حُبِّ جيلبرت وسوليڤان[2] منذ كنتُ في الثالثة من عُمري، عندما اصطحبَتني عمَّتي، شقيقة أبي الصُّغرى، لمُشاهَدة مسرحيَّتهما *Iolanthe* الحافِلة باللوردات والجِنِّيَّات، ووجَدتُ أن وجود وطبيعة الجِنِّيَّات أسهل على الفهم من اللوردات. بعدها بفترةٍ قصيرةٍ توفِّيَت عمَّتي بالالتهاب الرئوي في المستشفى.

في ليلة عيد ميلادي عادَ أبي إلى المنزل من عمله حاملًا معه صندوقًا من الورق المقوَّى، وداخِل الصندوق كان هناك هِرٌّ صغير ذو

(1) تمرير الرِّزمة: لُعبة جماعيَّة يتم فيها تمرير رِزمة من شخصٍ لآخَر، وتحوي الرِّزمة هديَّة أو جائزة يَحصُل عليها الفائز في النهاية.

(2) و. س. جيلبرت وآرثر سوليڤان: مؤلفان أوپراليان ومُلَحِّنان قدَّما معًا بين عامي 1871 و1896 أربع عشرة مسرحيَّة كوميديَّة شهيرة.

Twitter: @ketab_n

شَعرٍ أسودَ ناعم. لم أدرِ إن كان ذَكَرًا أم أنثى، لكني أطلَقتُ عليه في الحال اسم فلوفي، وأحبَبته من كلِّ قلبي.

كان فلوفي ينام في سريري ليلًا، وكنتُ أتحدَّثُ إليه أحيانًا عندما لا تكون أختي الصغيرة موجودةً، شِبه متوقِّعٍ أن يَرُدَّ عليَّ بصوتٍ بَشَري، لكنه لم يفعل قَطُّ، ولم أُمانِع. كان هِرًّا رقيقًا مستثار الانتباه دائمًا ورفيقًا جيِّدًا لغلامٍ تكوَّن عيد ميلاده السابع من مائدةٍ مغطَّاةٍ بالبسكويت المزيَّن بالكَريما وأوعية المهلَّبيَّة وكعكةٍ وخمسة عشر مقعدًا خاليًا.

لا أذكُرُ أني سألتُ أيًّا من الأطفال الآخَرين في فصلي في المدرسة عن سبب عدم مجيئهم إلى الحفل، ولم أكن بحاجةٍ لأن أسألهم، فهُم لم يكونوا أصدقائي رغم كلِّ شيء، بل مُجرَّد الأشخاص الذين أذهَبُ معهم إلى المدرسة.

كنتُ أُكَوِّنُ الصداقات ببطء، وهذا عندما كنتُ أُكَوِّنها أصلًا.

كانت لديَّ كُتُبي، والآن باتَ لديَّ هِرِّي. كنتُ أعرِفُ أننا سنُصبِح مِثل ديك ويتينجتن وقِطِّه[1]، أو مِثل ابن الطحَّان والقِطِّ ذي الحذاء[2] إذا تبيَّن أن فلوفي يتمتَّع بذكاءٍ من نوعٍ خاص. طوال شهرٍ كاملٍ كان الهِرُّ ينام على وسادتي، بل ويَنتَظِر عودتي من المدرسة جالسًا عِند السياج المعدني في ممرِّ السيَّارات أمام المنزل، إلى أن دهسَته سيَّارة الأجرة التي جاءت بمُعَدِّن الأوپال ليقيم في منزلنا.

(1) ديك ويتينجتن وقِطُّه: حكاية من الفولكلور الإنجليزي. تَستَنِد إلى قِصَّة ريتشارد ويتينجتن التَّاجر الثَّري الذي صار عُمدة لندن، وشَقَّ طريقه من الفقر إلى الثَّراء بمُساعَدة قِطِّه الذَّكي، لكن المؤرِّخين يقولون إن ويتينجتن الحقيقي لم يأتِ من عائلةٍ فقيرةٍ أصلًا، ولا دليل هنالك على أنه امتلك أيَّ قِطَط.

(2) القِط ذو الحذاء: القِط بطل قِصَّة أبناء الطحَّان الشَّهير عالميًّا باسم Puss-in-Boots، الذي قُدِّمَت حكايته مرارًا، أشهرها في عصرنا الحالي سلسلة أفلام Shrek.

Twitter: @ketab_n

لم أكُن موجودًا عندما حدثَ هذا.

عُدْتُ من المدرسة في ذلك اليوم، ولم يكن هِرِّي في انتظاري كالمعتاد. في المطبخ كان هناك رجل طويل ممشوق القوام ذو بشرةٍ سمراء يرتدي قميصًا عليه نقوشٌ مربَّعة، وكان جالسًا إلى طاولة المطبخ يحتسي القهوة التي شمَمتُ رائحتها. في تلك الأيام كانت أنواع القهوة كلها فوريَّة، عبارةً عن مسحوقٍ بُنِّيٍّ داكِن ذي مذاقٍ مُرٍّ يأتي في برطمان.

قال الرجل في مرح:

- «أخشى أن حادثةً صغيرةً قد وقعَت لي عندما وصَلتُ إلى هنا».

كان يتكلَّم بلكنةٍ غير مألوفةٍ تَلتَهِم الكلمات، وكانت المرَّة الأولى التي أسمعُ فيها لكنة جنوب أفريقيا.

ومِثل أبي، كان يضع صندوقًا من الورق المقوَّى على الطاولة أمامه.

سألَني:

- «هل كان ذلك الهِرُّ الأسود ملكك؟».

قلتُ:

- «اسمه فلوفي».

- «نعم. كما قلتُ لك، وقعَت لي حادثة عندما وصَلتُ، لكن لا تقلق، فقد تخلَّصتُ من الجيفة، فلا تُتعِب نفسك. لقد تعامَلتُ مع الأمر. افتح الصندوق».

- «ماذا؟».

Twitter: @ketab_n

أشار إلى الصندوق قائلا:

- «افتحه».

كان مُعَدِّن الأوپال رجلًا طويل القامة، وكان يرتدي سروالًا من الچينز وقميصًا ذا نقوشٍ مربَّعة في كلِّ مرَّةٍ رأيته فيها، باستثناء المرَّة الأخيرة، ويُحيط عُنُقه بسلسلةٍ سميكةٍ من الذَّهب باهِت اللون لم تكن موجودةً في تلك المرَّة الأخيرة كذلك.

لم أرغب في أن أفتح صندوقه، وأرَدتُ أن أنصَرِف إلى شأني. أرَدتُ أن أبكي على هِرِّي، لكن ذلك لم يكن باستطاعتي في وجود أحدٍ آخَر يُشاهِدني. أرَدتُ أن أندُب صديقي وأدفِنه في الطرف الأقصى من الحديقة، بَعد حلقة الجِنِّيَّات المكوَّنة من العُشب الأخضر، وعبر كهف أجمَة الزهور الورديَّة، ثم بَعد كومة جُذاذات العُشب، تلك المنطقة التي لا يذهب أحد إليها سواي.

ثم تحرَّك الصندوق، وقال الرجل:

- «أحضَرته إليك. إنني أُسَدِّدُ ديوني دائمًا».

مدَدتُ يدي ورفَعتُ غطاء الصندوق متسائلًا إن كانت هذه دعابة، وإنْ كنت سأجد هِرِّي في الداخِل، لكني وجَدتُ بدلًا منه وجهًا بُنِّيًّا يَرمُقني بنظرةٍ قاسية.

أخرَج مُعَدِّن الأوپال القِطَّ من الصندوق، وكان قِطًّا بُنِّيًّا مخطَّطًا له أُذُن نِصف مبتورة، وحدَّق فيَّ غاضبًا إذ لم يَرُق له أن يوضع في صندوق. مدَدتُ يدي لأُمَلِّس على رأسه شاعِرًا بأني أخون ذِكرى هِرِّي الراحل، لكنه تراجَع إلى الوراء كي لا ألمسه وهَسهَس في وجهي، ثم اتَّجه بمشيةٍ متعاليةٍ إلى رُكنٍ في الغُرفة جلسَ فيه ناظرًا بكراهية.

- «قِطٌّ مقابل قِط»، قالها مُعَدِّن الأوپال وداعَب شَعري بيده

Twitter: @ketab_n

المتينة المَرِنَة، ثم خرجَ إلى الردهة تارِكًا إياي مع القِطِّ الذي لم يَكُن هِرِّي، قبل أن يُطِلَّ برأسه من الباب مضيفًا:

- «اسمه مونستر».

شعرتُ بأن ما يَحدُث ليس إلَّا دعابةً سيِّئةً.

وارَبتُ باب المطبخ كي يستطيع القِطُّ الخروج، ثم صعَدتُ إلى غُرفة النوم واستلقَيتُ على الفِراش وبكيتُ على فلوفي الرَّاحل، ولا أحسبُ أن والديَّ قد أتيا على ذِكره حتى عندما عادا إلى المنزل في ذلك المساء.

أقامَ مونستر معنا لأسبوعٍ أو أكثر، وكنتُ أضعُ له الطعام في الوعاء مرَّةً في الصباح وأخرى في المساء كما كنتُ أفعلُ مع هِرِّي. كان يجلس عند الباب الخلفي إلى أن أُخرِجه أو يُخرِجه أحدٌ آخَر، وكنا نراه في الحديقة وهو ينسلُّ من خميلةٍ إلى أخرى، أو على شجرة، أو بين الشُّجيرات الصغيرة النامية تحت الأشجار، وكنا نقتفي أثر حركته عن طريق جيف العصافير الزرقاء الصغيرة أو طيور السُّمنة التي نَجِدها في الحديقة، لكن نادرًا ما كنا نراه هو.

افتقَدتُ فلوفي. كنتُ أعرِفُ أن المرء لا يستطيع استبدال كائنٍ حيٍّ بهذه البساطة، لكني لم أجرؤ على التذمُّر من هذا أمام أبويَّ، إذ كان ضيقي ليُثير حيرتهما، فإذا كان هِرِّي قد قُتِلَ فإنه قد استُبدِلَ كذلك، وتَمَّ تعويضي عن الضَّرَر الذي وقعَ لي.

استرجَعتُ كلَّ شيء، ومع استرجاعي لكلِّ شيءٍ كنتُ أعرِفُ أني لن أحتَفِظ في ذاكرتي طويلًا بالأشياءَ التي تذكَّرتها وأنا جالسٌ على المقعد الأخضر عِند البِركة الصغيرة التي أقنعَتني لِتي هِمپستوك ذات مرَّةٍ بأنها مُحيط.

Twitter: @ketab_n

II

لم أكُن سعيدًا في طفولتي، على الرغم من أني كنتُ أشعُرُ بالرِّضا بين الحين والحين. كنتُ أعيشُ داخِل الكُتُب أكثر مما عِشْتُ في أيِّ مكانٍ آخَر.

كان منزلنا كبيرًا ذا غُرَفٍ كثيرة، ما كان شيئًا جيِّدًا عندما اشتراه أبواي وكان أبي يملك المال، أما بَعد ذلك فلا.

استدعاني أبواي إلى غُرفة نومهما ذات ظهيرةٍ بأسلوبٍ رسميٍّ للغاية. حَسِبتُ أنني ارتكَبتُ خطأً ما وعلى وشك أن أتلقَّى التَّقريع منهما، لكن الأمر لم يَكُن كذلك، إذ أخبراني فقط بأنهما لم يعودا موسِرَيْن كما كانا من قبل، وأننا يجب أن نُقَدِّم جميعًا بعض التضحيات، وأن دوري أن أُضَحِّي بغُرفة نومي، تلك الغُرفة الصغيرة الواقعة عِند قِمَّة السلالم. شعرتُ بالحزن، فقد كانت غُرفتي ذات حوضٍ أصفرَ صغيرٍ كانا قد قاما بتركيبه ليُناسِب حجمي بالضبط، وكانت الغُرفة تعلو المطبخ وتقع أعلى السلالم من غُرفة التليفزيون مباشرةً، فكنتُ أتمكَّنُ ليلًا من سماع صوت الطَّنين المُطَمئِن الصَّادر عن حوارات

Twitter: @ketab_n

الكِبار قادمًا من أسفل عبر بابي نِصف المفتوح، فلم أكُن أشعر عندها بالوحدة. أيضًا، لم يَكُن أحد يُمانِع أن أُبقي باب الرُّواق نِصف مفتوح، ليُتيح أن يَتسلَّل إلى الغُرفة ما يكفي من الضوء لئلَّا أشعُر بالخوف من الظَّلام، وعلى القَدر نفسه من الأهميَّة كان الضوء يُتيح لي أن أقرأ سِرًّا بعد موعد نومي، مستعينًا بضوء الرُّواق الخافِت في القراءة إذا احتَجتُ؛ ولقد كنتُ أحتاجُ لهذا طوال الوقت.

لم أكُن مكسور القلب عندما نُفيت إلى غُرفة أختي الضخمة. كانت الغُرفة تَضُمُّ ثلاثة أَسِرَّة بالفِعل، فأخَذتُ السرير المجاوِر للنافذة. كنتُ أُحِبُّ قدرتي على التسلُّق من تلك النافذة إلى الشُّرفة الطويلة المصنوعة من القرميد، وأني أستطيعُ النوم والنافذة مفتوحة وأشعُرُ بالرِّيح والمطر على وجهي. لكننا كنا نتشاجَر دائمًا، أختي وأنا، نتشاجَر حول كلِّ شيء، فقد كانت تُحِبُّ النوم وباب الرُّواق مُغلَق، على أن الشِّجارات التي نشبَت على الفور بيننا حول إبقاء باب الغُرفة مفتوحًا أم مُغلَقًا قد حُلَّت عندما كتبَت أمي جدولًا علَّقته على ظَهر الباب وحدَّدَت فيه الليالي التي نتبادَل فيها فَتْحَ باب الغُرفة وإغلاقه. هكذا كنتُ في كلِّ ليلةٍ أشعُرُ إمَّا بالطُّمأنينة إذا كان الباب مفتوحًا، أو بالرَّهبة إذا كان مُغلَقًا.

استُأجِرَت غُرفة نومي السَّابقة الواقعة أعلى السلالم، ومَرَّت عليها تشكيلة كبيرة من الناس كنتُ أنظُرُ إليهم جميعًا بريبة، فقد كانوا ينامون في غُرفة نومي ويَستَخدِمون حوضي الأصفر الصغير الذي يُناسِب حجمي بالضبط. كانت هناك امرأة نمساويَّة سمينة قالت لنا إنها تستطيع أن تَخرُج من رأسها وتمشي حول السَّقف، وطالِب هندسةٍ معماريَّةٍ من نيوزيلندا، بالإضافة إلى زوجين أمريكيَّين جعلَتهما أمي

Twitter: @ketab_n

يُغادِران وهي مصدومة بتصرُّفهما غير الأخلاقي، عندما اكتشفَت أنهما غير متزوِّجين في الحقيقة؛ والآن كان هناك مُعَدِّن الأوپال.

كان جنوب أفريقي، على الرغم من أنه كان يجني ماله من تعدين الأوپال في أستراليا، وقد أعطى لكلٍّ مني وأختي حجرًا من الأوپال، وهو عبارة عن صخرةٍ سوداء خَشِنةٍ فيها وهج ذو لونٍ يجمع بين الأخضر والأزرق والأحمر. أحبَّته أختي لهذا السبب واحتفظَت بحَجَر الأوپال بعناية، أمَّا أنا فلم أستطِع أن أغفِر له موت هِرِّي الصغير.

كنا في اليوم الأول من عُطلة الربيع التي تدوم ثلاثة أسابيع بلا مدرسة، واستيقَظتُ مُبَكِّرًا شاعِرًا بالحماسة لِفِكرة أن أمامي أيَّامًا بلا نهاية أشغلها كما أشاء. سوف أقرأ.. وسوف أستكشِف.

ارتدَيتُ السروال القصير والتيشرت والصندل، ونزلتُ إلى المطبخ في الطابِق السُّفلي. كان أبي يطهو بينما كانت أمِّي لا تزال نائمةً، وكان يرتدي معطفه المنزلي فوق منامته. كان أبي غالبًا ما يطهو طعام الإفطار في أيام السبت.

قلتُ:

– «أبي، أين قِصَّتي المصوَّرة؟».

كان دائمًا ما يبتاع لي نُسخةً من قِصَص *SMASH!* المصوَّرة قبل أن يعود من العمل كلَّ جمعة، وكنتُ أقرأها صباح السبت.

أجاب أبي:

– «موضوعة على مقعد السيَّارة الخلفي. هل ستَأكُل التوست؟».

– «نعم، لكني لا أريده محروقًا».

Twitter: @ketab_n

لم يَكُن أبي يُحِبُّ استخدام المِحمَصَة الكهربائيَّة، وكان يُحَمِّص الخُبز تحت المِشواة، وعادةً ما كان يَحرُقه.

خرَجتُ إلى ممرِّ السيَّارات ونظَرتُ حولي، ثم عُدْتُ إلى المنزل ودفَعتُ باب المطبخ ودخَلتُ. كنتُ أُحِبُّ باب المطبخ، فقد كان يُفتَح في الاتِّجاهين، إلى الداخِل والخارِج، ليُمَكِّن الخَدَم منذ ستِّين عامًا من الدخول والخروج وقد كدَّسوا الصحون المليئة والفارغة بين أذرُعهم.

- «أبي، أين السيَّارة؟».

- «في الممر».

- «لا، ليست هناك».

- «ماذا؟!».

رَنَّ الهاتف، وخرجَ أبي إلى الرُّواق حيث وُضِعَ الهاتف ليُجيبه، وسمعته يتكلَّم مع شخصٍ ما.

وبدأ الدخَّان يتصاعَد من التوست تحت المشواة، فوقَفتُ فوق كرسيٍّ وأغلَقتها.

قال أبي عندما عادَ:

- «إنها الشُّرطة. أحدهم أبلغَ عن رؤية السيَّارة مهجورةً أسفل الدَّرب. قلتُ لهم إنني لم أبلغ عن سرقتها حتى. حسن، سنتحرَّك الآن ونلتقي بهم هناك، و.. التوست!».

وأخرَج المِقلاة من تحت المِشواة، وكان الخُبز مُسْوَدًّا من جانبٍ واحدٍ ويتصاعَد منه الدخَّان.

Twitter: @ketab_n

- «هل قِصَّتي المصوَّرة هناك أم أنهم سرقوها؟».

- «لا أدري. الشُّرطة لم تَذكُر شيئًا عنها».

وضعَ أبي زبدة الفول السوداني على الجانِب المحروق من كلِّ قِطعةٍ من التوست، وانتعل حذاءه وارتدى معطف خروج فوق منامته بدلًا من المعطف المنزلي، ثم خرَجنا ومشينا معًا إلى أسفل الدَّرب. كان يَلُوك قِطعته بصوتٍ مسموعٍ ونحن نمشي، بينما حملتُ قِطعتي في يدي من دون أن آكُلها. كنا قد مشينا لمدَّة خمس دقائق تقريبًا في الدَّرب الضَّيِّق الذي تَحُدُّه الحقول من الجانبين، عندما جاءت سيَّارة شُرطة من ورائنا وأبطأت حركتها، وحيَّا سائقها أبي بالاسم.

أخفيتُ قِطعة التوست المحروقة وراء ظَهري بينما كان أبي يتكلَّم مع الشُّرطي، وتمنَّيتُ لو تشتري عائلتي شرائح الخُبز الأبيض العاديَّة التي توضع في المِحمَصَة ككلِّ عائلةٍ أخرى أعرِفها، لكن أبي كان قد عثرَ على مخبزٍ محلِّي يصنعون فيه أرغفةً سميكةً من الخُبز الأسمر الثقيل، وكان يُصِرُّ على شرائه. قال إن مذاق هذا النوع أفضل، ما كان كلامًا فارِغًا في رأيي. الخُبز الحقيقي أبيضَ اللون ومقطَّع مسبقًا إلى شرائح ولا مذاق له تقريبًا، وهذا هو المطلوب.

ترجَّل سائق سيَّارة الشُّرطة وفتحَ الباب الخلفي وقال لي أن أركب، بينما جلس أبي على المقعد الأمامي إلى جواره.

ببطءٍ قطعَت سيَّارة الشُّرطة الدَّرب الذي لم يَكُن ممهَّدًا في ذلك الحين، ويتَّسع بما يكفي لمرور سيَّارةٍ واحدةٍ في كل مرَّة. كان طريقًا موحِلًا شديد الانحذار مليئًا بالمطبَّات، تَبرُز منه أحجار الصوَّان وتَنتَشِر فيه الحُفَر بفِعل مرور معدَّات الزراعة والأمطار والزَّمن.

Twitter: @ketab_n

قال الشُّرطي:

- «يحسب هؤلاء الأولاد أن من الطريف أن يَسرِقوا سيَّارةً ويقودونها لبعض الوقت ثم يَهجُرونها. لا بُدَّ أنهم محلِّيُّون».

علَّقَ أبي قائلًا:

- «يُسعِدني فقط أنكم عثرتم عليها سريعًا».

مرَرنا بمَزرعة كاراواي، حيث وقفَت فتاة صغيرة الحجم ذات شَعرٍ أشقَر للغاية لدرجة أنه يكاد يكون أبيضَ، ووجنتين مُشَرَّبَتَيْنِ بالحُمرة، تَرمُقنا أثناء مرورنا. كنتُ أضعُ قِطعة التوست المحروقة في حِجري.

قال الشُّرطي:

- «من الغريب أن يَترُكوها هنا مع ذلك، لأن الوصول إلى أيِّ مكانٍ من هنا يحتاج مسيرةً طويلة».

مررنا بعَطْفَةٍ في الدَّرب ورأينا السيَّارة الميني البيضاء مركونةً على الجانِب أمام بوَّابةٍ تقود إلى أحد الحقول، وقد غاصَت الإطارات بعُمْقٍ في الطَّمي البُنِّي. تجاوَزناها وتوقَّفنا على الحافَّة المعشوشبة، ثم فتحَ لي الشُّرطي باب سيَّارته لأخرُج، وتوجَّهنا ثلاثتنا صوب الميني بينما حدَّثَ الشُّرطي أبي عن الجريمة في هذه الأنحاء، ولِمَ من الواضح أن أولادًا محلِّيِّين هُم من فعلوها، ثم إذا بأبي يفتح الباب الخلفي بمفتاحه الاحتياطي قائلًا:

- «أحدهم ترك شيئًا على المقعد الخلفي».

مَدَّ أبي يده وسحبَ البطَّانيَّة الزرقاء التي كانت تُغَطِّي الشيء الموضوع على المقعد الخلفي، في اللحظة نفسها التي كان الشُّرطي

Twitter: @ketab_n

يقول له فيها إنه لا يَجدُر به أن يفعل هذا، وكنتُ أُحَدِّقُ في المقعد الخلفي لأن هذا هو مكان قِصَّتي المصوَّرة، فرأيتُ الشيء.

ما أنظُرُ إليه كان شيئًا وليس شخصًا..

على الرغم من أنني كنتُ طِفلًا واسع الخيال كثيرًا ما تُراوِده الكوابيس، إلا أنني أقنَعتُ والديَّ بأن يصحباني إلى مُتحف شمع مدام توسو[1] في لندن عندما كنتُ في السادسة من عُمري، لأني أرَدتُ أن أزور قاعة الرُّعب مُتَوَقِّعًا أن أرى هناك وحوش أفلام قاعات الرُّعب التي قرَأتُ عنها في قِصَصي المصوَّرة. أرَدتُ أن أرتَجِف أمام تماثيل دراكيولا ووحش فرانكنشتاين والرجل الذِّئب الشَّمعيَّة، لكنني بدلًا من هذا سِرْتُ عبر سلسلةٍ لا نهائيَّةٍ من النماذج المجسَّمة لرجالٍ ونساءٍ مجهولين تبدو على ملامحهم الكآبة كانوا قد قتلوا أناسًا -مستأجِرين غالبًا، وأفرادًا من عائلاتهم كذلك- قبل أن يُقتَلوا بدورهم، سواء بالشَّنق أو الكرسي الكهربائي أو في غُرَف الغاز. كان معظمهم مصوَّرًا مع ضحاياه في مواقف اجتماعيَّةٍ غريبةٍ، كأن يَجلِسوا حول مائدة العَشاء مثلًا بينما يَحتَضِر أفراد عائلاتهم بالسُّم. أخبرَتني اللوحات المعدنيَّة التي شرحَت من يكونون أيضًا أن أغلبهم قد قتَلَ عائلته وباع الجُثَث للتَّشريح، ومنذ ذلك الحين وكلمة «التَّشريح» تَقتَرِن في وجداني بالرُّعب. كنتُ أجهلُ معنى التَّشريح أصلًا، لكني كنتُ أعرِفُ فقط أنه يجعل الناس يَقتُلون أطفالهم.

الشيء الوحيد الذي منعَني من الفرار صارخًا من قاعة الرُّعب بينما يقودني والداي في أرجائها، أن واحدًا من التماثيل

(1) مُتحف شمع مدام توسو: واحد من أشهر متاحف الشَّمع في العالم، يقع مقرُّه الرئيس في لندن وله فروع في دولٍ أخرى.

Twitter: @ketab_n

الشَّمعيَّة لم يَبْدُ مُقنِعًا تمامًا، فهي لم تَبْدُ ميِّتةً حقًّا لأنها لم تَبْدُ حيَّةً أصلًا.

الشيء في مقعد السيَّارة الخلفي كان مغطًّى بالبطَّانيَّة الزرقاء -وكنتُ أعرِفُ تلك البطَّانيَّة التي كانت توضع في غُرفة نومي القديمة على الرَّفِّ لتُستَخدَم عندما يَبرُد الطَّقس- لم يَبْدُ مُقنِعًا كذلك. كان يبدو نوعًا كمُعَدِّن الأوپال، لكنه كان يرتدي بدلةً سوداء وقميصًا أبيضَ مجعَّدًا وربطة عُنُقٍ سوداء معقودةً على شكل فراشة. كان شَعره صقيلًا مصفَّفًا إلى الوراء ويبدو لامعًا على نحوٍ صناعي، وكانت عيناه مُحَدِّقَتَيْنِ في اللاشيء وشفتاه مُزرقَّتين، لكن بَشرته كانت مُحمرَّة للغاية. بدا الشيء كمحاكاةٍ ساخرةٍ للصِّحَّة، ولم تكن السلسلة الذَّهبيَّة تحيط بعُنُقه.

رأيتُ تحته نُسختي من *SMASH!* وقد تجعَّدَت والتوَت، وباتمان على الغلاف يبدو كما كان يظهر في التليفزيون بالضبط.

لا أذكُرُ ماذا قيل وقتها، بل إنهم فقط جعلوني أقف بعيدًا عن السيَّارة. عبَرتُ الطَّريق إلى الجانِب الآخَر ووقَفتُ هناك وحدي بينما تكلَّم الشُّرطي مع أبي ودوَّن أشياءَ في مُفكِّرَتِه. تطلَّعتُ إلى الميني ورأيتُ جزءًا من خرطوم رَيٍّ أخضرَ يَخرُج من ماسورة العادِم ويَدخُل من نافذة السائق، وكانت هناك كُتلة سميكة من الطَّمي البُنِّي تُغَطِّي ماسورة العادِم لتُثَبِّت الخرطوم في مكانه.

لم يكن أحدهم يَنظُر ناحيتي، وأخَذتُ قضمةً من قِطعة التوست المحروقة التي صارت باردةً الآن.

في منزلنا كان أبي يَأكُل جميع قِطَعِ التوست التي احترقَت أكثر من

Twitter: @ketab_n

غيرها، مُرَدِّدًا: «كم هذا لذيذ!»، أو «الفَحم مفيد لك!»، أو «التوست المحروق هو المفضَّل لديَّ!»، وكان يَلتَهِمه كله. ثم، عندما صِرْتُ أكبر سِنًّا بكثير، اعترَف لي أبي بعدم حُبِّه للتوست المحروق على الإطلاق، وأنه كان يَأكُله كي لا يُبَدِّد لا أكثر. وقتها، لجزءٍ من الثانية، شعرتُ كأن طفولتي كلها كانت كذبة، كأن إحدى دعائم إيماني التي شُيِّدَ عليها عالمي قد انهار وتفتَّتَ ليستحيل إلى رمالٍ جافَّة.

تكلَّم الشُّرطي مع أحدهم في اللاسلكي الموضوع في مقدِّمة السيَّارة، ثم عبرَ الطَّريق نحوي وقال:

- «آسفٌ لهذا يا بني، لكن سيَّاراتٍ أخرى ستأتي إلى هنا بَعد قليل. يجب أن نَجِدَ لك مكانًا تَنتَظِر فيه من دون أن تُعَطِّلنا. هل ترغب في الجلوس في سيَّارتي مرَّة أخرى؟».

هزَزتُ رأسي نفيًا، فلم أكُن أرغَبُ في الجلوس هناك مجدَّدًا.

ثم سمعتُ صوت فتاةٍ تقول:

- «يُمكنه أن يأتي معي إلى بيت المَزرعة. لا توجد مشكلة».

كانت أكبر عُمرًا مني بكثير، في الحادية عشرة تقريبًا، وكان شَعرها البُنِّي المُحمَر قصيرًا نسبيًّا -بالنِّسبة لفتاة- وأنفها أفطس، وشاعَ النَّمَش في وجهها. كانت ترتدي تنُّورة حمراء (ولم تكن الفتيات يرتدين الچينز كثيرًا في تلك الأيام في هذه الأنحاء)، وتتكلَّم بلكنة ساسِكس الخفيفة، ولها عينان زرقاوان رماديَّتان ثاقِبتان.

ذهبَت الفتاة مع الشُّرطي إلى أبي، وحصلَت على إذنه بأن تَأخُذني معها، ثم وجَدتُني أمشي في الدَّرب معها.

Twitter: @ketab_n

قلتُ:

- «ثمَّة رجل ميِّت في سيَّارتنا».

قالت:

- «لهذا السَّبب جاءَ إلى هنا، إلى نهاية الطَّريق، فلا أحد سيَجِده ويُوقِفه هنا في الثالثة صباحًا، كما أن الطَّمي هنا مبتلٌّ وسهل التشكيل».

- «هل تَعتَقِدين أنه انتحَر؟».

- «نعم. هل تُحِبَّ الحليب؟ إن جدَّتي تَحلُب بِسي الآن».

- «أتَقصِدين الحليب الحقيقي الذي يأتي من بقرة؟».

قلتها وشعرتُ بالحُمْق، لكنها هَزَّت رأسها إيجابًا.

فكَّرتُ أنه لم يَسبِق لي قَطُّ أنني شَرِبتُ حليبًا لم يأتِ في زجاجة، وقلتُ:

- «أعتَقِدُ أنه سيروق لي».

توقَّفنا عِند حظيرةٍ حيث كانت امرأة عجوز أكبر سِنًّا من أبويَّ بكثير، لديها شَعر أشيب طويل يُشبِه خيوط العنكبوت ووجه نحيل، وتقف إلى جوار بقرة ثُبِّتَ أنبوب أسودَ طويل بكلٍّ من ضروعها.

قالت العجوز:

- «كنا نَحلُب الأبقار باليد من قبل، لكن هذه الطَّريقة أسهل».

أرَتني كيف يَخرُج الحليب من البقرة عَبر الأنابيب السود إلى الماكينة من خلال مُبرِّد، وإلى مماخِض معدنيَّةٍ ضخمةٍ موضوعةٍ على مِنَصَّةٍ خشبيَّةٍ ثقيلةٍ خارِج الحظيرة، حيث تأتي شاحنة لتَنقُلها كلَّ يوم.

Twitter: @ketab_n

أعطَتني العجوز كوبًا من الحليب الدَّسِم من البقرة بِسي، وكان حليبًا طازِجًا لم يَدخُل المُبَرِّد بعد. لا شيء شَربته في حياتي كان مذاقه مِثل هذا على الإطلاق. كان حليبًا غنيًّا دافئًا مُبهِجًا في فمي، وقد تذكَّرته حتى بَعد أن نسيتُ كلَّ شيءٍ آخَر.

قالت العجوز فجأةً:

- «هناك المزيد منهم أعلى الدَّرب، أشكال وألوان منهم أتوا ومعهم الأضواء الوهَّاجة. كلُّ هذا اللَّغو! يَجدُر بكِ أن تُدخِلي الصَّبي إلى المطبخ. إنه جائع، وكوب واحد من الحليب لا يَصلُح لصَبِيٍّ نامٍ».

سألَتني الفتاة:

- «هل أكَلت؟».

- «قِطعة من التوست فقط، وكانت محروقة».

قالت:

- «اسمي لِتي، لِتي هِمبستوك، وهذه مَزرعة هِمبستوك. هَلُمَّ».

وقادَتني عَبر الباب الأمامي إلى داخِل المطبخ الهائِل الحجم، وأجلسَتني إلى طاولةٍ خشبيَّةٍ ضخمةٍ انتشرَت فيها البُقَع والأشكال العشوائيَّة بغزارةٍ حتى بدَت كأن هناك وجوهًا تُحَدِّق فيَّ من الخشب القديم.

قالت لِتي:

- «إننا نتناوَل الإفطار مبكِّرًا. نبدأ حَلب الأبقار مع أول نور الفَجر، لكن لدينا ثَريدًا في القِدر، ومربَّى توضع عليه».

Twitter: @ketab_n

ناولَتني وعاءً من الخَزَف الصِّيني امتلأ بالثَّريد الذي غرفَته من قِدرٍ على الموقد، مع قِطعةٍ من مربَّى التوت الأسود البيتيَّة -المفضَّلة لديَّ- وضعَتها في مُنتَصَف الثَّريد، وصَبَّت القِشدة على الوجه. قلَّبتُ محتويات الوعاء بملعقتي قبل أن آكُلها، مُحَوِّلًا إياها إلى خليطٍ أرجواني وشاعِرًا بسعادةٍ لا يُضاهيها شيء، وكان مذاق الخليط رائعًا بالفِعل.

دخلَت امرأة سمينة المطبخ. كان الشَّيب قد وخَطَ شَعرها البُنِّي المُحمَر القصير، ولديها وجنتان متورِّدتان كحبَّتين من التُّفَّاح، وترتدي تنُّورة ذات لونٍ أخضرَ داكِنٍ تصل إلى رُكبتيها، مع حذاءٍ مطَّاطي طويل العُنُق.

قالت:

- «لا بُدَّ أن هذا هو الصَّبِيُّ الذي جاء من أعلى الدَّرب. فوضى كبيرة في مسألة السيَّارة هذه. هناك خمسة منهم سيحتاجون تناوُل الشَّاي بعد قليل».

ملأَت لِتي غلَّايةً نُحاسيَّةً كبيرةً بمياه الصنبور، وأشعلَت بابور غاز بعود ثقابٍ ووضعَت الغلَّاية فوق اللَّهب، ثم أنزلَت خمسة أكوابٍ خزفيَّةٍ مكسورة الحواف من إحدى خزائن المطبخ، قبل أن تَرمُق المرأة بنظرةٍ متردِّدة، فقالت هذه:

- «أنت مُحِقَّة. ستَّة أكواب، فالطبيب سيأتي أيضًا».

ثم زَمَّت شفتيها وأصدرَت صوت تأتأةٍ، وقالت:

- «لم يُلاحِظوا وجود الرسالة. لقد كتبَها بعنايةٍ شديدةٍ أيضًا، ثم طواها ووضعَها في جيب صَدر سُترته، لكنهم لم يَبحَثوا هناك بَعد».

Twitter: @ketab_n

سألَتها لِتي:

- «وماذا تقول؟».

أجابَتها المرأة:

- «اقرئيها بنفسكِ».

خطرَ لي أنها أُمٌّ لِتي، وقد بدَت كأنها أُمٌّ بالفِعل. ثم إنها قالت:

- «تقول إنه أخذَ كلَّ النقود التي أعطاه إياها أصدقاؤه، ليُهَرِّبها إلى خارِج جنوب أفريقيا ويُودِعها لهم في البنك في إنجلترا، بالإضافة إلى كلِّ النقود التي جمعها من سنين تعدين الأوبال، وذهبَ إلى الكازينو في برايتون ليلعب القمار، لكنه كان ينوي أن يُقامِر بنقوده الخاصَّة فقط، ثم كان ينوي أن يَأخُذ القليل فقط من النقود التي أعطاها له أصدقاؤه إلى أن يُعَوِّض ما فقده. ثم لم يَعُد معه أيُّ شيء، وتحوَّلت الدنيا في عينيه إلى ظلام».

قالت لِتي مُضَيِّقَةً عينيها:

- «لكنه لم يَكتُب هذا، بل كتبَ: «*إلى جميع أصدقائي، آسفٌ جدًّا لأن الأمور لم تَجْرِ كما كنتُ آمل، وأتمنَّى أن تجدوا في قلوبكم القُدرة على أن تُسامِحوني لأني لا أستطيعُ أن أُسامِح نفسي*»».

قالت المرأة:

- «لا فارِق».

ثم التفتَت إليَّ قائلةً:

- «أنا أُمُّ لِتي. لا بُدَّ أنك التقيت بأمي بالفعل في سقيفة الحَلب. أنا مسز هِمبستوك، لكنها كانت مسز هِمبستوك قبلي، ولذا فاسمها

Twitter: @ketab_n

مسز هِمبستوك الكبيرة. هذه مَزرعة هِمبستوك، وهي أقدم المَزارع في هذه الأنحاء، ومذكورةٌ في «كتاب يوم الحساب[1]»».

تساءَلتُ عن السَّبب وراء تسمية الإناث الثلاث جميعهنَّ باسم هِمبستوك، لكني لم أسأل، ولم أجرؤ كذلك على أن أسأل عن معرفة لِتي وأُمِّها برسالة الانتحار، أو بالأفكار التي كانت تجول ببال مُعَدِّن الأوبال وهو يَلفِظ آخِر أنفاسه. كانتا تتكلَّمان بأسلوبٍ تقريريٍّ تمامًا.

قالت لِتي:

- «لقد وكَزته ليَنظُر في جيب صَدر السُّترة. سيَحسَب أنه فَكَّرَ في هذا من تلقاء نفسه».

قالت مسز هِمبستوك:

- «أحسنتِ. سيأتون عندما يغلي الماء في الغلَّاية ليسألوا إن كنتُ قد رأيتُ شيئًا غير معتادٍ وليحتسوا الشَّاي. لِمَ لا تأخذين الصَّبِيَّ إلى البِركة؟».

قالت لِتي:

- «إنها ليست بِركة، بل مُحيطي».

ثم التفتَت إليَّ قائلةً:

- «هيا بنا».

قادَتني خارِج المنزل في الطَّريق الذي جِئنا منه. كان النهار لا يزال غائمًا، ودُرنا حول المنزل سالِكَيْن طريق الأبقار.

(1) كتاب يوم الحساب: كتاب يحوي أول مسح جغرافي للمدن والبلدات في إنجلترا، تم وضعه في عهد ويليام الأول، وضَمَّ كشفًا شاملًا بالعقارات والأملاك والأراضي في مملكته.

Twitter: @ketab_n

سألتها:

- «أهو مُحيطٌ حقيقي؟».

وأجابَت:

- «نعم، بالتأكيد».

وبلغناها فجأةً: سقيفة خشبيَّة ومقعد طويل قديم، وبينهما بِركة بَطٍّ داكِنة المياه انتشرَت فيها الطحالب وزنابق الماء، وثمَّة سمكة ميِّتة فِضِّيَّة اللون كعُملةٍ معدنيَّةٍ طافية على جانبها على سطح الماء.

قالت لِتي:

- «هذا ليس جيِّدًا».

قلتُ لها:

- «حَسِبتكِ قلتِ إنه مُحيط، لكنها مجرَّد بِركة لا أكثر».

أجابَت:

- «إنه مُحيط. لقد جِئنا عَبره من الرِّيفِ القديم عندما كنتُ طِفلةً».

دخلَت لِتي السَّقيفة، ثم خرجَت حاملةً صنَّارة طويلةً من الخيزران ثُبِّتَ بطرفها ما يبدو أنه شبكة لصيد الجمبري. مالَت لِتي دافعةً الشبكة تحت السمكة الميِّتة بحذر ورفعَتها فيها، بينما قلتُ:

- «لكن مَزرعة هِمبستوك مذكورة في "كتاب يوم الحساب" كما قالت أُمُّكِ، أي في عصر ويليام الفاتِح[1]».

غمغمَت لِتي هِمبستوك:

- «هذا صحيح».

(1) ويليام الفاتح: ملك إنجلترا بين عامي 1066 و1087.

Twitter: @ketab_n

وأخرجَت السمكة الميِّتة من الشبكة وفحصَتها. كانت لا تزال ليِّنة ولم تتصلَّب بَعد، وانزلقَت في يدها. لم أكُن قد رأيتُ كلَّ هذه الألوان من قبل قَطُّ. صحيحٌ أن لونها كان فِضِّيًا، لكن تحت الفِضِّي كان هناك أزرقَ وأخضرَ وأرجوانيٌّ، واكتسى طرف كلِّ حَرشَفٍ بالأسود.

قالت لِتي:

- «غريب جدًّا. عادةً لا تموت الأسماك في هذا المُحيط أصلًا».

ثم أخرجَت سكِّين جيبٍ ذات مقبضٍ مصنوعٍ من قرن الغزال، وإن كنتُ لا أدري من أين أخرجَتها بالتحديد، ثم غرسَتها في بطن السمكة وشقَّتها حتى الذَّيل، ثم قالت:

- «هذا هو ما قتلَها».

وأخرجَت شيئًا من بطن السمكة ووضعته في يدي والأحشاء الدُّهنيَّة لا تزال عالقةً به، فانحنيتُ وغمسته في الماء وحكَكته بأصابعي لأُنَظِّفه، ثم حدَّقتُ فيه لأرى وجه الملكة ڤيكتوريا يُحَدِّق فيَّ بدوره، وقلتُ في دهشة:

- «نِصف شِلِن؟ السمكة أكلَت نِصف شِلِن؟».

قالت لِتي هِمپستوك:

- «لم تَعُد هذه العُملة متداوَلةً الآن، أليس كذلك؟».

كان ضوء الشَّمس قد بدأ يَنتَشِر بعض الشيء الآن، وأظهرَ النَّمَش المُنتَشِر في وجهها وعلى أنفها، وبدا شَعرها أحمرَ كالنُّحاس حيثما مَسَّته أشعَّة الشَّمس. ثم إنها قالت:

- «أبوك يسأل عن مكانك. حان الوقت لتعود».

Twitter: @ketab_n

حاوَلتُ أن أعطيها العُملة المعدنيَّة الصغيرة، لكنها هَزَّت رأسها وقالت:

- «احتَفِظ بها. يُمكنك أن تبتاع بها شوكولاتة أو عصير الليمون».

قلتُ:

- «لا أظُنُّ. إنها صغيرة جدًّا، ولا أدري إن كانت المحال تقبل عُملةً مثلها اليوم».

- «ضعها في حصَّالتك إذن، فقد تَجلِب لك الحَظ».

قالتها بشَكٍّ كأنها كانت غير متأكِّدةٍ من نوع الحَظِّ الذي ستَجلِبه.

كان الشُّرطي وأبي ورجلان يرتدي كلٌّ منهما بدلةً وربطة عُنُقٍ بُنِّيَّةٍ واقفين في مطبخ بيت المَزرعة عندما عُدنا، وأخبرَني واحد من الرجلين أنه شُرطي، لكنه لم يَكُن يرتدي زِيَّ الشُّرطة الرَّسمي، وهو ما جعلَني أشعُر بخيبة الأمل، فلو كنتُ شُرطيًّا لارتديتُ زِيِّي الرَّسمي كلما استطعتُ بالتأكيد. تعرَّفتُ على الرجل الآخَر ذي البدلة وربطة العُنُق، الدكتور سميثسن طبيب العائلة. كان الأربعة يحتسون ما تبقَّى من شايهم.

شكرَ أبي مسز هِمبستوك ولِتي على استضافتي، فقالتا إنه ليست هناك مشكلة على الإطلاق، وإنني أستطيع زيارة المَزرعة مرَّةً أخرى. ثم أقلَّنا الشُّرطي الذي كان قد أخذَنا إلى السيَّارة إلى المنزل، وأنزلَنا في نهاية ممرِّ السيَّارات.

قال أبي:

- «من الأفضل ألَّا تَذكُر شيئًا من هذا لأختك».

Twitter: @ketab_n

لم أكُن أرغبُ في الكلام عن هذا مع أيِّ أحد. لقد وجَدتُ مكانًا غير تقليدي، وحصلتُ على صديقةٍ جديدة، وفقدتُ قِصَّتي المصوَّرة، وكنتُ أقبِض بيدي على عُملةٍ قديمةٍ من فئة النِّصف شِلِن.

سألتُ أبي:

- «ما الذي يجعل المُحيط مختلفًا عن البحر؟».

أجاب:

- «إنه أكبر. المُحيط أكبر كثيرًا من البحر. لماذا تسأل؟».

قلتُ:

- «أُفكِّرُ فحسب. هل من الممكن أن يكون هناك مُحيط صغير بحجم بِركة؟».

- «كلا. البِرَك حجمها كالبِرَك، والبحيرات بحجم البحيرات، والبحار هي البحار والمُحيطات هي المُحيطات. هناك المُحيط الأطلنطي والهادي والهندي والمُحيط المتجمِّد الشمالي. أعتَقِدُ أن هذه هي كلُّ المُحيطات في العالم».

صعدَ أبي إلى غُرفة النوم ليتكلَّم مع أمي ويتحدَّث على الهاتف، أمَّا أنا فأسقَطتُ النِّصف شِلِن في حصَّالتي. كانت حصَّالةً على شكل خنزير مصنوعةً من الخَزَف الصِّيني، من النوع الذي لا يُمكنك أن تُخرِج منه شيئًا، لكن عندما يأتي اليوم الذي لا تعود فيه مساحة في الحصَّالة للمزيد من العُملات، سيكون مسموحًا لي بأن أكسرها، وإن كانت بعيدةً تمامًا عن الامتلاء الآن.

Twitter: @ketab_n

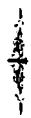

III

لم أرَ سيَّارتنا الميني البيضاء ثانيةً. بَعد يومين، في يوم الاثنين، استلمَ أبي سيَّارة روفر سوداء ذات مقاعد جِلديَّةٍ حمراء مُشَقَّقة. كانت أكبر حجمًا من الميني، وإن لم تَكُن مريحةً مِثلها. رائحة السجائر القديمة تخلَّلَت كِسوة المقاعد الجِلديَّةِ، ودائمًا ما كنا نَشعُر بدُوار الحركة كلما قطعنا مسافاتٍ طويلةً بالروفر السوداء.

لم تَكُن الروفر السوداء الشيء الوحيد الذي تسلَّمناه صبيحة الاثنين، فقد جاءني خِطاب.

كنتُ في السابعة من عُمري، ولم يَسبِق لي أن تلقَّيتُ أيَّ خطاباتٍ على الإطلاق. كنتُ أتلقَّى بطاقات معايَدة في عيد ميلادي من أجدادي ومن إلِن هندرسن صديقة أمي التي لم أكن أعرِفها. في عيد ميلادي كانت إلِن هندرسن، التي تعيش في عربة نَقل مُقْفَلَة، تُرسِل لي منديلًا للجيب، لكن لا خطابات إطلاقًا. وعلى الرغم من ذلك، كنتُ أتفقَّدُ صندوق البريد يوميًّا لأرى إن كان شيءٌ قد جاءَني.

وفي ذلك الصباح جاءَني الخِطاب.

Twitter: @ketab_n

فتَحته من دون أن أفهم ما هذا الذي أقرأهُ، وأخَذته إلى أمي التي قالت:

- «لقد فُزْتَ في سَحب شهادات الاستثمار».

- «وما معنى هذا؟».

- «عندما وُلِـدتَ، وعندما وُلِدَ جميع أحفادها، اشترَت لك جَدَّتك شهادة استثمار باسمك، وعندما يتم السَّحب على الأرقام، من الممكن أن تفوز بآلاف الجنيهات».

- «أنا فُزْتُ بآلاف الجنيهات؟».

قالت وهي تتطلَّع إلى قُصاصة الورق:

- «لا، فُزْتَ بخمسةٍ وعشرين جنيهًا».

شعرتُ بالحزن لأني لم أَفُز بآلاف الجنيهات، (وكنتُ أعرِف فيمَ سأُنفِقها.. كنتُ لأبتاع مكانًا أذهبُ إليه لأكون بمُفرَدي؛ مكانًا ككهفِ باتمان له مدخل خفي)، لكني شعرتُ بالسرور في الآن ذاته لحصولي على ثروةٍ تجاوزَت تخيُّلاتي السَّابقة. خمسة وعشرون جنيهًا. يُمكنني أن أشتري أربع قِطَعٍ صغيرة من عِرق السُّوس، أو مِثلها من حلوى سَلَطة الفواكه ببِنْسٍ واحد، فالقِطعة الواحِدة تُكَلِّف رُبع بِنْسٍ، على الرغم من أن رُبع البِنْس لم يَعُد مُستَخدَمًا. خمسة وعشرون جنيهًا، 240 بِنْسًا لكلِّ جنيه وأربع قِطَع من الحلوى لكلِّ بِنْس.. ما يعني حلوى أكثر مما يَقدِر خيالي على التصوُّر.

لكن أمي قالت مُحَطِّمَةً أحلامي:

- «سأضعها في دفتر توفير البريد».

Twitter: @ketab_n

لم تَكُن معي حلوى أكثر مما كان معي في صباح ذلك اليوم، لكني مع ذلك كنتُ غَنِيًّا، أغنى مما كنتُ قبل لحظاتٍ بخمسةٍ وعشرين جنيهًا دُفعةً واحدةً، وأنا لم أكُن قد رَبِحتُ شيئًا في حياتي أبدًا.

جعَلتُ أمي تُريني قِطعة الورق التي تحمل اسمي مرَّة أخرى قبل أن تضَعها في حقيبة يدها.

كان هذا صباح الاثنين. في الظهيرة كان مستر وولِري، الرجل المُسِن الذي كان يأتي ظهيرة كلِّ اثنين وثلاثاء ليقوم ببعضِ أعمال البستنة، (وكانت زوجته مسز وولِري، التي تُعادِله هَرَمًا، وتنتعل حذاءً مطَّاطيًّا ثقيلًا تحت واقي أحذيةٍ عملاقٍ نِصف شفَّاف، تأتي في ظهيرة الأربعاء لتُنَظِّف). كان مستر وولِري يَحفُر في حديقة الخضروات، عندما عثر في قلب التُّربة على زجاجةٍ مليئةٍ بالبِنسات وأنصاف البِنسات وعُملاتٍ من فئة الثلاثة بِنسات، وحتى من فئة الرُّبع بِنْس. كان أحدَث تاريخ منقوش على العملات هو العام 1937، وقد قضَيتُ فترة الظهيرة في تلميعها بالصلصة البُنِّيَّة والخَل لأجعلها تَبرُق.

وضعَت أمي زجاجة العُملات فوق رَفِّ المدفأة في غُرفة الطعام، وقالت إنها تتوقَّع أن يَدفَع جامعٌ للعُملات جنيهاتٍ كثيرة مُقابِلها.

خلدتُ إلى النوم في تلك الليلة شاعرًا بالسعادة والحماسة.. كنتُ غنيًّا، وثمَّة كنوزٌ دفينةٌ اكتُشِفَت.. العالم مكان جميل.

لا أذكُرُ كيف بدأَت الأحلام، لكن هذا هو ديدن الأحلام، أليس كذلك؟ أعرِفُ أني كنتُ في المدرسة، وأن يومي كان سيِّئًا، وأني كنتُ مختبِئًا من الأولاد الذين يَضرِبونني ويَسُبُّونني، لكنهم عثروا عليَّ على كلِّ حال في مخبأي في أعماق أيكة الورديَّة وراء المدرسة، وكنتُ

Twitter: @ketab_n

أعرِفُ أن هذا حُلمٌ لا بُدَّ، (لكني لم أعرِف هذا في الحُلم نفسه، فكلُّ شيءٍ كان حقيقيًّا واقعيًّا)، لأن جَدِّي كان معهم، ومعه أصدقاؤه الشيوخ ذوو البَشرة الشَّاحبة والسُّعال الذي يُمَزِّق الصَّدر تمزيقًا. كانوا يحملون أقلام رصاص حادَّة من النوع الذي يجعلك تَنزِف إذا طُعِنتَ به. هرَبتُ منهم، لكنهم كانوا أسرع مني، الشيوخ والصِّبيان الكبار، ولحقوا بي أخيرًا في دورة مياه الأولاد، حيثُ اختبَأتُ في واحدٍ من المراحيض، وأمسَكوني وأجبَروني على أن أفتح فمي عن آخِره.

كان جَدِّي (الذي لم يَعُد جَدِّي، بل صار تمثالًا شمعيًّا لجَدِّي يَنشُد بيعي للتَّشريح) يحمل شيئًا حادًّا لامعًا، وبدأ يَحشُره في فمي بأصابعه القصيرة الغليظة. كان شيئًا صُلبًا حادًّا ومألوفًا، وجعلَني أوشك على القيء وأختَنِق، وامتلأ فمي بمذاقٍ معدني.

كانوا يرمونني بنظراتٍ ظافرةٍ خبيثة، كلُّ مَن في دورة مياه الأولاد، وحاوَلتُ ألَّا أختَنِق بالشيء الذي في حَلْقي مُصَمِّمًا على أن لا أمنحهم هذا الانتصار.

واستيقَظتُ وأنا أختَنِقُ..

لم أستطِع التقاط أنفاسي. شيءٌ ما كان في حَلْقي، شيءٌ صُلْبٌ حادٌّ يَعوقني عن التنفُّس والصُّراخ. بدأتُ أسعلُ وأنا أستَيقِظُ والدُّموع تجري على وجنتيَّ وأنفي يسيل.

دسَستُ أصابعي قَدر ما أستطيع في حَلْقي شاعِرًا باليأس والهلع والتصميم. بطرفِ سبَّابتي لمستُ حافَّة شيءٍ صُلب، فوضَعتُ وُسطاي على جانِبه الآخَر خانِقًا نَفسي أكثر، وقَبضتُ عليه بين الإصبعين، وسحَبتُ ذلك الشيء أيًّا كانت ماهيته خارِج حَلْقي.

Twitter: @ketab_n

عبَبتُ الهواء، ثم تقيَّأتُ بعض الشيء على ملاءة الفِراش، وخرجَ مني خيط لُعاب صافٍ مُرَقَّط بالدَّم من جرَّاء الجرح الذي أحدثَه الشيء في حَلْقي وأنا أُخرِجه.

لم أنظُر إليه. شعرتُ به في يدي وهو يحمل لزوجة لُعابي وبلغمي. لم أُرِد أن أنظُر إليه.. لم أُرِد أن يكون الجِسر بين أحلامي وعالم اليقظة موجودًا حقًّا.

ركَضتُ في الرُّواق إلى الحمَّام في مؤخِّرة المنزل، وغسَلتُ فمي وشَرِبتُ من ماء الصنبور البارد مباشرةً وبصَقتُ لونًا أحمرَ في الحوض الأبيض. بمُجرَّد أن فعلتُ هذا جلستُ على حافَّة المغطس الأبيض وفتحتُ يدي شاعِرًا بالخوف.

لكن الشيء الذي كان في يدي -الشيء الذي كان في حَلْقي- لم يكن مخيفًا.. مُجرَّد قِطعة عُملة.. شِلِن فِضِّي.

عُدْتُ إلى غُرفة النوم وبدَّلتُ ملابسي ونظَّفتُ الملاءة من القيء قَدر المستطاع بخِرقةٍ ناعمةٍ رَطْبَةٍ لمسح الوجه، آمِلًا أن تَجِفَّ الملاءة قبل أن أنام في الفِراش في تلك الليلة، ثم إنني نزلتُ إلى الطابِق السُّفلي.

أرَدتُ أن أُخبِر أحدًا بأمر الشِّلِن، لكني لم أعرِف مَن أُخبِرُ. كنتُ أعرِفُ ما يكفي عن الكِبار لأُدرِك أن أحدًا منهم لن يُصَدِّقني إذا أخبرتهم بما حدثَ، وكان الكبار نادرًا ما يُصَدِّقونني عندما أُخبِرهم بالحقيقة على كلِّ حال، فلماذا يُصَدِّقونني عندما أحكي لهم شيئًا بعيد الاحتمال كهذا؟

كانت أختي تلعب في الحديقة الخلفيَّة مع بعض أصدقائها، ثم إنها ركضَت نحوي غاضبةً عندما رأتني، وقالت:

Twitter: @ketab_n

- «أنا أكرهك! سأُخبِر ماما وبابا عندما يعودان».

- «ماذا؟».

- «أنت تعرِف، وأنا أعرِفُ أنه كان أنت».

- «أنا ماذا؟».

- «أنت من كان يَقذِفنا بالعُملات، كلنا، من بين الشُّجيرات. منتهى السُّوء».

- «لكني لم أفعل هذا».

- «لقد آلمتَنا».

وعادَت إلى أصدقائها وأخذوا يَرمُقونني شذرًا كلهم، وشعرتُ بالألم في حَلْقي كأنه مُمَزَّق.

مشيتُ في ممرِّ السيَّارات. لا أدري أين كنتُ أنوي الذهاب، وأعرِفُ فقط أني لم أكن راغبًا في الوجود هناك.

كانت لِتي هِمپستوك واقفةً عِند نهاية الممرِّ تحت أشجار الكستناء. بدَت كأنها تَنتَظِر منذ مئة عام ولا مشكلة عندها في الانتظار مئة عام أخرى. كانت ترتدي فستانًا أبيَض، لكن الضوء الذي تخلَّل أوراق أشجار الكستناء الربيعيَّة اليانعة صبغَه بالأخضر.

قلتُ: «مرحبًا».

قالت: «راودَتك أحلام سيِّئة، أليس كذلك؟».

أخرَجتُ الشِّلِن من جيبي وأريتها إياه قائلًا:

- «كنتُ أختنِقُ به وأنا أستَيقِظُ، لكني لا أدري كيف دخلَ فمي

Twitter: @ketab_n

أصلًا. كنتُ سأستَيقِظُ لو كان أحدهم قد وضعه في فمي، لكنه كان موجودًا من دون تفسير عندما استيقَظتُ».

- «نعم».

- «أختي تقول إنني كنتُ أقذِفها وأصدقاءها بالعُملات، لكني لم أفعل هذا».

قالت موافِقةً:

- «نعم، لم تفعل هذا».

قلتُ:

- «لِتي، ما الذي يَحدُث؟».

قالت كأن الأمر واضح تمامًا:

- «أوه، أحدهم يُحاوِل أن يُعطي الناس مالًا لا أكثر، لكنه يفعلها بأسلوبٍ سيِّئٍ للغاية يتسبَّب في استثارة أشياء يَجدُر بها أن تَظَلَّ ساكنةً، وهذا ليس جيِّدًا».

- «ألهذا علاقة بالرجل الذي مات؟».

- «له علاقة به، نعم».

- «أهو من يفعل هذا؟».

هَزَّت رأسها نفيًا، ثم قالت:

- «هل تناولتَ الإفطار؟».

هزَزتُ رأسي أن لا، فقالت:

Twitter: @ketab_n

- «حسنٌ، هيَّا بنا إذن».

مشينا في الدَّرب معًا. كانت هناك بضعة منازلٍ في أسفل الدَّرب مُشَيَّدة هنا وهناك حينئذٍ، وكانت لِتي هِمپستوك تُشير إليها ونحن نَمُرُّ بها وتقول:

- «في هذا المنزل حلمَ رجل بأنه يُباع ويتحوَّل إلى نقود، والآن بدأ يرى أشياءَ في المرايا».

- «أشياءَ مِثل ماذا؟».

- «نفسه، لكنْ هناك أصابع تَخرُج من مِحْجَرَيْهِ، وأشياءَ تَخرُج من فمه كمخالب سرطان البحر».

فكَّرتُ في الناس وأرجُل سرطان البحر تَخرُج من أفواههم في المرايا، وقلتُ:

- «لماذا وجَدتُ شِلِنًا في حَلْقي؟».

- «لقد أرادَ أن يَحصُل الناس على المال».

- «تَقصِدين مُعَدِّن الأوپال، الذي ماتَ في السيَّارة؟».

- «نعم.. نوعًا ما.. ليس بالضبط. لقد بدأ هو كلَّ هذا، كمن يُشعِل فتيل لُعبة ناريَّة. موته هو الذي أشعلَ هذا الفتيل. الشيء الذي يَنفَجِر الآن ليس مُعَدِّن الأوپال، بل هو شخصٌ آخَر، شيءٌ آخَر».

وحَكَّت أنفها ذا النَّمَش بيدها المُتَّسخة، وقالت:

- «هناك سيِّدة فقدَت عقلها في هذا المنزل».

لم يُراوِدني أيُّ شَكٍّ في كلامها وهي تَستَطرِد:

Twitter: @ketab_n

- «لديها نقود موضوعة داخِل حشايا الأَسِرَّة، والآن تَرفُض مغادَرة سريرها خشية أن يَسرِق منها النقود أحد».

- «وكيف عَرِفتِ هذا؟».

هَزَّت كتفيها قائلةً:

- «عندما تكون موجودًا لفترة، فإنك تتعلَّم بعض الأشياء».

ركَلتُ حَجَرًا وقلتُ:

- «تَقصِدين بـ«فترة» أن تقولي «وقتًا طويلًا جدًّا»؟».

هَزَّت رأسها إيجابًا، فسألتها:

- «كم عُمرك، حقًّا؟».

- «أحد عشر عامًا».

فكَّرتُ قليلًا، ثم سألتُ:

- «ومنذ متى وعُمرك أحد عشر عامًا؟».

وأجابَتني ابتسامَتها..

مررنا بمَزرعة كاراواي، وكان المُزارِعان -اللذان سأعرِفهما في ما بَعد كأبويَّ كالي آندرز- واقِفَيْنِ في فِناء المَزرعة يَصيحان في غضبٍ في وجه أحدهما الآخَر، وتوقَّفا عن الصياح عندما رأيانا نَمُرُّ. عندما دُرنا حول منعطَفٍ في الدَّرب وغِبنا عن نَظرهما، قالت لِتي:

- «مسكينان».

- «لماذا تقولين إنهما مسكينان؟».

Twitter: @ketab_n

- «لأنهما يُعانيان من مشكلاتٍ ماليَّةٍ منذ فترة، وهذا الصباح راوَده حُلم رآها فيه تفعل.. تفعل أشياءَ آثِمة كي تَكسِب المال. وهي نظرَت في حقيبة يدها فوجدَت لفافةً كبيرة من أوراق البنكنوت من فئة العشرة شِلِنات. تقول إنها تَجهَل من أين أتت النقود، وهو لا يُصَدِّقها. إنه لا يَعرِف ماذا يُصَدِّق».

- «كلُّ هذا الشِّجار والأحلام لا علاقة له بالمال حقًّا، أليس كذلك؟».

قالت لِتي بطريقةٍ جعلَتها تبدو كواحدةٍ من الكِبار، لدرجة أني كنتُ شِبه خائِفٍ منها: «لستُ متأكِّدة».

ثم قالت في النهاية:

- «أيًّا كان ما يَحدُث، فمن الممكن التعامُل معه».

ورأت تعبير القلق -بل والخوف- على وجهي، فأضافَت:

- «بَعد أن نَأكُل البان كيك».

طهَت لنا لِتي أقراص البان كيك على صاجٍ كبير فوق موقد المطبخ. كانت رقيقةً كورقة، وكانت لِتي تَعصِر الليمون على كلِّ قُرْصٍ بمجرَّد أن يَنضُج، ثم تَغرِف بعض مربَّى البرقوق في المُنتَصَف وتَلُفُّ القُرص عليها بإحكامٍ كسيجار. عندما طهَت عددًا كافيًا، جلسنا إلى طاولة المطبخ والتهمناها بشهيَّةٍ مفتوحة.

كانت هناك مدفأة في ذلك المطبخ، وكان الدخَّان لا يزال يتصاعَد من الرَّماد الذي يَحترِق بلا لَهَبٍ من الليلة السابقة. قلتُ في نفسي إن المطبخ مكانٌ جميل حقًّا. ثم قلتُ لِتي: «أنا خائف».

Twitter: @ketab_n

ابتسمَت لي قائلةً:

- «سأتأكَّد من أنك في أمان، أعِدُكَ. أنا لستُ خائفةً».

لم يَزُل الخوف بعد رَدِّها، لكنه صار أقلَّ، وقلتُ:

- «الموقِف نفسه مخيف».

قالت لِتي هِمبستوك:

- «قلتُ إنني أعِدُك. لن أدَع أذىً يُصيبك».

صاح صوتٌ عالٍ مشروخ:

- «أذى؟ ومن الذي تأذَّى؟ ما الذي تأذَّى؟ لماذا يُصيب الأذى أيَّ أحدٍ أصلًا؟».

كانت مسز هِمبستوك الكبيرة تحمل مريلة المطبخ، وفي الجزء المجوَّف من المريلة مجموعة كبيرة من زهور النَّرجس البرِّي الأصفر انعكسَ عليها الضوء ليُحيل وجهها إلى ذَهَبٍ، وبدا المطبخ غارِقًا في النور الأصفر.

قالت لِتي:

- «ثمَّة شيء ما يُسَبِّب المشكلات. إنه يُعطي الناس مالًا، في الأحلام وعلى أرضِ الواقع».

وأرَت شِلِني للعجوز مضيفةً:

- «صديقي وجدَ نفسه يَختَنِق بهذا الشِّلِن عندما استيقظَ هذا الصباح».

وضعَت مسز هِمبستوك الكبيرة مريلتها على طاولة المطبخ، وبسرعةٍ أزاحَت الزهور عن القُماش لتضَعها على الخشب، ثم

Twitter: @ketab_n

تناولَت الشِّلِن من لِتي، وضيَّقَت عينيها لتفحصه، وتشمَّمَته، وحكَّته، وأصغَت إليه (أو وضعَته على أُذُنها على الأقل)، ثم مسَّته بطَرَفِ لسانها الأرجواني.

قالت أخيرًا:

- «مكتوب عليه سنة 1912، لكنه لم يَكُن له وجود البارحة».

فعلَّقَت لِتي: «كنتُ أعرِفُ أن هناك شيئًا غريبًا مُرتَبِطًا به».

نظرتُ إلى مسز هِمبستوك الكبيرة وسألتُ: «كيف عرفتِ؟».

- «سؤال جيِّد يا حبيبي. إنه تحلُّل الإلكترونات غالِبًا. عليك أن تَنظُر إلى الأشياء عن كَثَب كي ترى الإلكترونات. إنها تلك الأشياء الصغيرة ذات الشَّكل المُنتَظِم الجميل كابتساماتٍ ضئيلةٍ للغاية. النيترونات هي الأشكال الرَّمادية التي تبدو كتكشيرة. لاحَظتُ أن الإلكترونات باسمةٌ أكثر من اللازم بالنسبة لسنة 1912، ففحَصتُ جوانب الحروف ورأس الملك القديم المنقوش، ووجَدتُ كلَّ شيءٍ جديدًا حادًّا أكثر من المُفتَرَض. حتى في الأجزاء البالية، كان من الواضح أن هذه العُملة صُنِعَت لتبدو باليةً».

قلتُ لها شاعِرًا بالإعجاب:

- «لا بُدَّ أن لديكِ نظرًا قويًّا جدًّا».

أعادَت لي العُملة قائلةً:

- «ليس كما كان من قبل، لكن بصرك لا يعود حادًّا عندما تَبلُغ سِنِّي في جميع الأحوال».

وأطلقَت قهقهةً عاليةً كأنها قالت شيئًا طريفًا للغاية.

- «وكم عُمرك؟».

Twitter: @ketab_n

نظرَت لِتي إليَّ، وخشيتُ أنني قلتُ شيئًا وَقِحًا. أحيانًا لا يروق للكِبار أن يُسألوا عن أعمارهم، وأحيانًا كانوا يُرَحِّبون بالسؤال، وبحسب خِبرتي كان كِبار السِّن لا يجدون غضاضةً في الإجابة، لأنهم يَشعُرون بالفخر لأنهم ظَلُّوا أحياء كلَّ هذا العُمر. كانت مسز وولِري في السابعة والسبعين، ومستر وولِري في التاسعة والثمانين، وكانا يُحِبَّان إخبارنا بعُمريهما.

فتحَت مسز هِمبستوك الكبيرة الخزانة وأخرجَت منها مزهريَّاتٍ ملوَّنةً كثيرة، وقالت:

- «أنا كبيرةٌ بما يكفي لأن أذكُر تكوين القَمر».

- «ألم يكن القَمر موجودًا دائمًا؟».

- «اسم الله عليك! إطلاقًا.. إنني أذكُرُ يوم جاء القَمر. يومها رفعنا أعيننا إلى السَّماء، وكان لون السَّماء بُنِّيًا مُتَّسِخًا ورماديًّا كالسُّخام ها هنا حينئذٍ، وليست أخضرَ وأزرقَ».

ملأَت كلَّ مزهريَّةٍ حتى مُنتَصَفها من الصنبور، ثم تناولَت مقصَّ مطبخٍ مُسوَدًّا وشذَّبَت نِصف بوصةٍ من ساق كلِّ زهرة نرجس.

- «هل أنتِ واثقة من أنه ليس شبح الرجل الذي يفعل هذا؟ واثقة من أن روحًا لا تُطارِدنا؟». قلت.

انفجرَت الاثنتان ضاحِكَتين، الصَّبيَّة والعجوز، وشعرتُ بغبائي، فقلتُ:

- «آسِف».

قالت لِتي:

- «الأشباح لا تستطيع صُنع الأشياء، بل إنها لا تجيد تحريك الأشياء حتى».

Twitter: @ketab_n

قالت لها مسز هِمبستوك الكبيرة:

- «اذهبي وأحضِري أُمَّكِ. إنها تَغسِل الملابس».

ثم نظرت إليّ: «وأنت ستُساعِدني في تنسيق الزهور».

ساعَدتُها على وَضْعِ الزهور في المزهريَّات، وسألَتني عن رأيي في الأماكن التي تضعها فيها في المطبخ، ووضعناها حيث اقترَحتُ، ما أشعرَني بأهميَّتي العظيمة.

استقرَّ النَّرجس البَرِّي في المزهريَّات كرُقَعٍ من نور الشَّمس جعلَت المطبخ الخشبي المُظلِم أكثر إنعاشًا للروح. كانت الأرضيَّة مصنوعةً من ألواح البلاط ذات اللونين الأحمر والرَّمادي، والجدران مُبيَّضَةً بالجير.

أعطَتني العجوز قِطعةً من قُرص عسلٍ آتٍ من خليَّة نحل عائلة هِمبستوك، وضعَتها في صَحنٍ ذي حافَّةٍ مشطوفةٍ وصَبَّت بعض القِشدة من إبريقٍ فوق العسل. أكَلتُه بملعقةٍ ماضِغًا الشَّمع كالعلكة، تارِكًا العسل يسيل في فمي حُلوًا لَزِجًا، ثم يَترُك مذاقًا شبيهًا بالزهور البرِّيَّة.

كنتُ أكشطُ ما تبقَّى من القِشدة والعسل من الصَّحنِ عندما عادت لِتي مع أُمِّها إلى المطبخ. كانت مسز هِمبستوك لا تزال تنتعل حذاءها الكبير طويل العُنُق، وتتحرَّك بخطواتٍ واسعةٍ كأنها على عجلةٍ شديدة، وقالت:

- «أمي، تُطعِمين الصَّبي العسل لتُفسِدي أسنانه؟».

هَزَّت مسز هِمبستوك الكبيرة كتفيها بلا اكتراثٍ، وقالت:

- «سأقولُ شيئًا للسُّوس في فمه وأجعله يَترُك أسنانه وشأنها».

Twitter: @ketab_n

قالت مسز هِمبستوك الأصغر:

- «لا يُمكنك إصدار الأوامر للبكتيريا هكذا، فهذا لا يروق لها».

رَدَّت العجوز:

- «هراء وترهات. لو تركتِ السُّوس وشأنه سيتمادى كأيِّ شيءٍ آخَر. أريه من صاحِب اليد العليا وسيَخدِمكِ بعينه. أنتِ تذوَّقتِ الجُبنة التي أصنعها».

والتفتَت إليَّ مُتابِعةً:

- «لقد فُزْتُ بأوسِمةٍ بسبب جُبنتي، أوسمة! في أيَّام الملك القديم كان هناك مَن يُسافِرون على ظَهر الخيل لأسبوعٍ كامل ليشتروا قالِبًا من جُبنتي. قالوا إن الملك نفسه أكلها مع الخُبز، وإن أولاده -الأمير ديكون والأمير چوفري، وحتى الأمير چون الصغير- أقسموا أنها ألَذُّ جُبنةٍ أكلوها على الإطلاق في..».

قاطعَتها لِتي في مُنتَصَف كلامها: «جدَّتي!».

قالت أُمُّها:

- «ستحتاجين عصًا من خشب البندق، و..»، وأضافَت في شيءٍ من الرَّيبة: «.. أعتَقِدُ أن من الممكن أن تَأخُذي الصَّبي معكِ. إنها عُملته، وسيكون حملها أسهل إذا كان معك. إنها شيء صنعَته هي».

فقالت لِتي: «هي؟».

كانت تحمل سِكِّين الجيب ذات المقبض المصنوع من قَرن الغزال، والنَّصل مُغلَق.

أجابَت أُمُّها:

- «مذاقها يقول إنها هي، لكني قد أكونُ مُخْطِئَةً».

Twitter: @ketab_n

قالت مسز هِمبستوك الكبيرة:

- «لا تَأخُذي الصَّبي معكِ، وإلَّا فإنكِ تَستَدعين المتاعِب».

شعرتُ بخيبة الأمل، لكن لِتي قالت:

- «سنكون بخير. سأعتني به، به وبنفسي. ستكون مغامَرةً، وسنكون صُحبةً. أرجوكِ يا جَدَّتي».

رفَعتُ نظري إلى مسز هِمبستوك الكبيرة والأمل على وجهي، وانتظَرتُ رَدَّها، إلى أن قالت في النهاية:

- «لا تقولي إنني لم أُحَذِّركِ إذا وقعَ ما ليس في الحُسبان».

- «شكرًا يا جَدَّتي. لن أفعل، وسأتوخَّى الحِرص».

تنشَّقَت مسز هِمبستوك الكبيرة وقالت:

- «إياكِ وارتكاب أيِّ أفعالٍ حمقاء. ادني من الشيء بحذرٍ، قيِّديه وأَغلقي مسالِكه وأعيديه إلى السُّبات».

قالت لِتي:

- «أعرِفُ.. أعرِفُ كلَّ ذلك. صِدقًا، سنكون بخير».

هذا ما قالته لِتي، لكن العكس هو ما حدثَ.

Twitter: @ketab_n

IV

قادَتني لِتي إلى دَغْلٍ من أشجار البندق يقع إلى جوار الطَّريق القديم، (وكانت نَوْرات البندق تتدلَّى وتتشابَك معًا بكثافةٍ في الرَّبيع)، وكسرَت فرعًا رفيعًا، ثم استخدمَت سِكِّينها -كأنها فعلَت هذا آلاف المرَّات- وجرَّدت الفرع من لِحائه، وقطَّعَته ثانيةً ليُصبح على شكل حرف Y، قبل أن تعيد السِّكِّين إلى مكانها، (ولا أدري من أين أخرجَتها أصلًا)، وأمسكَت طرفي حَرف الـY بيديها وقالت:

- «إنها ليست عصا استنباء أبحثُ بها عن الماء، بل أستَخدِمها كدليلٍ فحسب. إننا نَبحَث كبدايةٍ عن.. عن واحدةٍ من زهور ندى العنبر الزرقاء على ما أعتَقِدُ، أو عن شيءٍ أزرقَ مائلٍ إلى الأرجواني ولامع».

تطلَّعتُ حولي معها وقلتُ:

- «لا أراها».

قالت بثِقَةٍ:

- «إنها هنا».

Twitter: @ketab_n

بحَثتُ حولي مُدَقِّقًا في العُشب، ورأيتُ دجاجةً بُنِّيَّةً مُحمَرَّةً تَلتَقِط بمِنقارها أشياءَ من الأرض على جانِب ممرِّ السيَّارات، وبعض ماكينات الزراعة الصَّدِئة، والمِنَصَّة الخشبيَّة ذات الحامل على جانِب الطَّريق وقد استقرَّت فوقها مَماخِض الحليب المعدنيَّة السِّت الخالية. رأيتُ بيت مَزرعة هِمبستوك المصنوع من الطُّوب الأحمر جاثمًا مستريحًا كحيوانٍ مسترخٍ، ورأيتُ زهور الربيع؛ زهور اللؤلؤ التي نشرَت بياضها وصفارها في كلِّ مكان، وزهور الهندباء البرِّيَّة، وزهور الحوذان ذات لون الزبدة الصافية.. وفي غير أوانها، زهرة جُرَيْسٍ وحيدةٍ تحت مِنَصَّة مَماخِض الحليب تتلألأ بالنَّدى.

سألتها:

- «هذه؟».

قالت باستحسان:

- «لديك عينان حادَّتان».

مشينا معًا إلى حيث زهرة الجُرَيْس، وأغلقَت لِتي عينيها عندما بلغناها، وأخذَت تدور بجسدها إلى الأمام والخلف وقد مَدَّت عصا خشب البندق كأنها -لِتي- مركز ساعةٍ أو بوصلة، والعصا بمثابة عقارب تشير إلى مُنتَصَف ليلٍ أو شَرقٍ لا أُدرِكه.

- «أسودَ»، قالتها فجأةً كأنها تَصِفُ شيئًا رأته في حُلم. «أسودَ ولَيِّن».

ومشينا بعيدًا عن زهرة الجُرَيْس على الدَّرب الذي كان خيالي يقول لي أحيانًا إنه لا بُدَّ وأنه كان طريقًا في عصر الرومان. كنا قد قطَعنا نحو مئة ياردة على الدَّرب، بالقُرب من المكان الذي كانت سيَّارتنا

Twitter: @ketab_n

الميني مركونةً فيه، عندما رأت لِتي الشيء الذي كانت تبحث عنه: قُصاصة قُماش سوداء عالقة بالأسلاك الشائكة على السُّور.

اقتربَت لِتي من قُصاصة القُماش، ومرَّة أخرى العصا الممدودة، ومرَّة أخرى دوران ودوران.

- «أحمرَ»، بثِقَةٍ قالتها. «أحمرَ جدًّا.. في هذا الاتِّجاه».

مشينا معًا في الاتِّجاه الذي أشارَت إليه، عَبر مَرْجٍ ثم بين مجموعةٍ من الأشجار، وقلتُ مبهورًا:

- «ها هو».

كانت جُثَّة حيوانٍ صغير -فأر حقلٍ على ما يبدو- فوق كُتلةٍ من الطُّحلُب الأخضر. كانت بلا رأس، ولَطَّخَ الدَّم اللامع الفرو وتناثَر على الطُّحلُب كحبَّاتٍ من الخَرَز. كان أحمرَ جدًّا.

قالت لِتي:

- «حسن، من الآن فصاعدًا تمسَّك بذراعي ولا تَترُكها أبدًا».

مدَدتُ يدي اليُمنى وقَبضتُ على ذراعها اليُسرى تحت المِرفَق مباشرةً، وحرَّكَت هي العصا قائلةً:

- «من هنا».

- «عمَّ نبحث؟».

- «إننا نَقتَرِب الآن. الشيء التالي الذي نبحث عنه هو عاصفة».

شقَقنا طريقنا عَبر مجموعةٍ من الأشجار، ومن مجموعة الأشجار إلى غابة، واعتصَرنا نفسينا بين أشجارٍ دانيةٍ من بعضها البعض للغاية

Twitter: @ketab_n

لدرجة أن أوراقها صنعَت مِظَلَّةً سميكةً فوق رأسينا، ثم وجدنا بُقعةً خاليةً من الأشجار في الغابة، ومشينا بحذائها في عالمٍ صُنِعَ من الأخضر.

سمعنا من على يسارنا الهزيم الخافت لرعدٍ بعيد، فقالت لِتي:

- «عاصفة».

وتركَت جسدها يتأرجَح من جديد، فدُرْتُ معها من دون أن أتخلَّى عن ذراعها، وشعرتُ -أو تخيَّلتُ أني شعرتُ- وأنا أُمسِك بذراعها بذبذبةٍ تسري فيَّ كأنني ألمسُ بيدي مُحَرِّكاتٍ قويَّة.

ثم عمدَت لِتي إلى اتِّجاهٍ جديد، وعبَرنا جدول ماءٍ صغيرًا معًا، ثم توقَّفَت فجأةً وتعثَّرَت، لكنها لم تَسقُط.

سألتُ:

- «هل وصلنا؟».

قالت:

- «كلَّا، لم نَصِل. الشيء يَعرِف أننا آتيان. إنه يَشعُر بنا، ولا يُريدنا أن نأتي إليه».

كانت عصا خشب البندق تدور الآن كمغناطيسٍ يدفعه أحدهم نحو قُطْبٍ مُعاكِس، وارتسمت تكشيرة على ملامح لِتي.

هَبَّت دفقة من الريح لتَقذِف أوراق الشجر والتراب في وجيهنا، وعلى مسافةٍ بعيدةٍ سمعتُ صوت قعقعةٍ كأن هناك قطارًا قادمًا، وباتت الرؤية أصعَب، وما استطعتُ أن أراه من السَّماء فوق مِظَلَّة أوراق الشجر كان مُظلِمًا، كأن سُحُب عاصفةٍ عملاقةٍ قد احتشدَت فوق رأسينا، أو كأن النهار قد استحال إلى غَسَقٍ في غمضة عين.

Twitter: @ketab_n

صاحَت لِتي:

- «انبَطِح!».

وربضَت فوق الطُّحلُب جاذبةً إياي معها، وظَلَّت مُنبَطِحَةً على الأرض وأنا مُنبَطِحٌ معها شاعِرًا بالسَّخافة، وكانت الأرض رَطْبة.

- «إلى متى سنبقى...».

قاطعَتني: «صهِ!» بأسلوبٍ شِبه غاضب، فلَزِمتُ الصَّمت.

ثم جاء شيء ما عَبر الغابة من فوق رأسينا، فرفعتُ عينيَّ إلى أعلى لأرى شيئًا بُنِّيًّا زَغِبًا لكن مسطَّحًا كبساطٍ ضخمٍ يَخفِق ويتجعَّد عِند الحواف، وعِند مقدِّمة البساط كان فم مليء بعشراتٍ من الأسنان الحادَّة المتَّجهة إلى أسفل.

خفقَ الشيء وحَلَّقَ فوقنا، ثم رحلَ..

سألتُ وقلبي يَدُقُّ في صدري بعُنفٍ جعلَني لا أدري إن كنتُ سأستطيعُ النهوض ثانيةً:

- «ماذا كان هذا؟».

قالت لِتي:

- «ذِئب مانتا. لقد قطَعنا مسافةً أطول مما توقَّعتُ بالفِعل».

ثم نهضَت على قدميها وتحرَّكَت في الاتِّجاه الذي ذهبَ الشيء الزَّغِب فيه، ورفعَت طرف العصا وبدأَت تدور بتوانٍ، ثم قالت:

- «لستُ أتلقَّى شيئًا».

وحرَّكَت رأسها لتُزيح الشَّعر عن عينيها من دون أن تتخلَّى عن طرفيِّ العصا مضيفةً:

Twitter: @ketab_n

- «إمَّا أنه مختبئ أو أننا اقتربنا جدًّا».

ثم عَضَّت شفتها السُّفلي، قبل أن تقول:

- «الشِّلِن الذي كان في حَلْقك، أخرِجه».

فأخرَجته بيدي اليُسرى وناوَلتها إياه، فقالت:

- «لا، لا يُمكنني أن ألمسه، ليس الآن، ضعه على مُلتَقَى الأفرُع في العصا».

لم أسأل عن السَّبب، واكتفَيتُ بأن وضَعتُ الشِّلِن الفِضِّي على نُقطة تقاطُع حرف الـY، فمَدَّت لِتي ذراعيها ودارَت ببطءٍ شديد وطرف العصا يشير إلى الخارِج بشكلٍ مستقيم، وكنتُ أتحرَّكُ معها من دون أن أشعُر بشيء، لا ذبذبة مُحَرِّكات. كنا قد دُرنا أكثر من نِصف دورةٍ بقليل، عندما توقَّفَت لِتي وقالت:

- «انظر!».

نظرتُ في الاتِّجاه الذي كانت تُواجِهه، وإن لم أرَ شيئًا سوى الأشجار والظِّلال في الغابة.

أشارَت بالعصا قائلةً:

- «لا، هناك، انظر».

كان طرف عصا خشب البندق قد بدأ يُصدِر دخانًا خفيفًا، والتفتَت لِتي بعض الشيء إلى اليسار ثم بعض الشيء إلى اليمين، ثم بعض الشيء أكثر إلى اليمين، وبدأ طرف العصا يَتَّقِد بضوءٍ برتقالي.

قالت لِتي:

- «هذا شيء لم يَسبِق لي أن رأيته من قبل. إنني أستعملُ العُملة كمُضَخِّم، لكن كأن هناك..».

Twitter: @ketab_n

صدر فجأةً صوتٌ أشبه بانفجارٍ مكتوم بعيد، وشَبَّ اللَّهب في طرف العصا، فغرسَته لِتي في الطُّحلُب الرَّطْب وقالت:

- «خُذ عُملتك».

التقَطتُ العُملة بحذرٍ خشية أن تكون ساخنةً، لكنها كانت باردةً كالثَّلج. تركَت لِتي عصا خشب البندق على الطُّحلُب والدخَّان لا يزال يتصاعَد من طرفها المتفحِّم بكثافة.

تحرَّكَت لِتي وتحرَّكتُ إلى جوارها، وكنا مُتشابِكَيِّ اليدين الآن؛ يدي اليُمنى في يُسراها. فاحَت في الهواء رائحة غريبة كرائحة الألعاب الناريَّة، وصار العالم أكثر قُتمًا مع كلِّ خطوةٍ قطَعناها داخِل الغابة.

قالت لِتي:

- «قلتُ إنني سأُبقيك في أمان، أليس كذلك؟».

- «بلى».

- «ووعَدتُ بأني لن أدع شيئًا يَحدُث لك».

- «نعم».

- «فلتَظَلَّ مُمسِكًا بيدي إذن ولا تَترُكها أبدًا. مهما حدث لا تَترُكها».

كانت يدها دافئةً لكن غير مبلَّلةٍ بالعرق، ما أشعرَني بالاطمئنان.

كرَّرَت لِتي:

- «اقبِض على يدي ولا تفعل أيَّ شيءٍ إلى أن أقول لك، مفهوم؟».

Twitter: @ketab_n

قلتُ:

- «لستُ أشعُر بأني آمنٌ جدًّا».

لم تُجادِلني، وقالت:

- «لقد قطَعنا شوطًا أطول مما تخيَّلتُ، أكثر مما توقَّعتُ، ولستُ متأكِّدةً من نوع الأشياء التي تعيش هنا على الحواف».

ثم انتهَت الأشجار، وخرَجنا إلى ريفٍ مفتوح، فسألتها:

- «هل ابتعدنا كثيرًا عن مَزرعتكم؟».

- «كلا، إننا ما زلنا عِند حدود المَزرعة. إن مَزرعة هِمپستوك تمتدُّ مسافةً طويلةً للغاية، وقد جلَبنا الكثير من هذا المحيط بنا من الرِّيف القديم عندما جئنا إلى هنا. المَزرعة جاءت معنا، وجاءت بأشياءَ معها أيضًا، أشياءَ تُسَمِّيها جَدَّتي البراغيث».

لم أكُن أعرِفُ أين نحن، لكني لم أُصَدِّق أننا ما زلنا على أرض عائلة هِمپستوك ولا أننا ما زلنا في العالم الذي نشَأتُ فيه. سماء هذا المكان كانت ذات لونٍ برتقاليٍّ باهِتٍ كأضواء الإنذار، والنباتات كانت شائكةً كالصَّبْرِ الأشعَث وذات لونٍ أخضرَ داكِنًا يلمع كالفِضَّة، وبدت كأنها قد صِيغَت من قذائِف المَدافع البرونزيَّة.

بدأت العُملة في يدي اليُسرى تَبرُد مرَّة أخرى، بَعد أن كانت قد صارت دافئةً إثر حرارة جسدي، إلى أن أصبحَت باردةً كمكعَّب ثلج، وقَبضَت يدي اليُمنى على يد لِتي هِمپستوك بكلِّ قُوَّتها.

ثم قالت لِتي:

- «وصَلنا».

في البدءِ حَسِبتُ أني أنظُرُ إلى بناية، إنها خيمة بارتفاع كنيسةٍ

Twitter: @ketab_n

ريفيَّة، مصنوعةٌ من أشرعةٍ رماديَّة ووردِيَّة أخذَت تُرَفرِف مع هبوب الرِّيح العاصفة في تلك السَّماء البرتقاليَّة، إنها بناء غير متوازن شاخَ مع الطَّقس ومزَّقه الزَّمن.

ثم إنه استدار، ورأيتُ وجهه، وسمعتُ شيئًا يُصدِر أنينًا ككلبٍ ركله أحدهم، وأدرَكتُ أن الشيء الذي يَئِنُّ هو أنا.

كان الوجه ممزَّقًا، عيناه ثُقبان عميقان في النَّسيج ولا شيء من ورائهما، مُجرَّد قناعٍ رماديٍّ من الأشرعة أضخم من خيالي، شاعَت فيه الشقوق والتمزُّقات، يتمايَل ويتراقَص مع الرِّياح العاصفة الهابَّة.

تحرَّك شيء ما، وخفضَ الشيء الممزَّق عينيه إلينا، وقالت لِتي هِمبستوك:

- «سَمِّي نفسكِ».

كان هناك صمت، وحدَّقت عينان خاويتان فينا، ثم قال صوت ليست له ملامح كالرِّيح:

- «أنا سيِّدة هذا المكان، وكنتُ هنا منذ دَهر، قبل أن كان القوم الصِّغار يُضَحُّون ببعضهم بعضًا على الصخور. اسمي هو اسمي أيتها الطِّفلة، وليس اسمكِ. والآن دعيني وشأني قبل أن أنفخكِ بعيدًا عن هنا».

وأشارَ الشيء بذراعٍ كشراع سفينةٍ مكسور، وشعرتُ بنفسي أرتجفُ فَرَقًا.

اعتصرَت لِتي هِمبستوك يدي فوجَدتُ نفسي أتشجَّع، وسمعتها تقول:

Twitter: @ketab_n

- «سألتكِ أن تُسَمِّي نفسكِ، سألتكِ، فلم أسمع إلا التباهي بالعُمر والزَّمن. والآن ستُخبرينني باسمكِ، ولن أسألكِ مرَّةً ثالثةً».

كانت تتكلَّم الآن كفتاةٍ ريفيَّة أكثر من أيِّ وقتٍ مضى. لعله رنين الغضب في صوتها، فقد كانت كلماتها تَخرُج مختلفةً وهي غاضبة.

همسَ الشيء الرَّمادي بلهجةٍ فاترة:

- «أيتها الصغيرة، أيتها الصغيرة.. من صديقكِ؟».

همسَت لِتي:

- «لا تَقُل شيئًا».

هزَزتُ رأسي إيجابًا وأطبَقتُ شفتيَّ بإحكام.

قال الشيء الرَّمادي بهزَّةٍ جلْفَة من الذراعين القُماشيَّتين الباليتين:

- «بدأتُ أسأمُ هذا. شيءٌ جاء إليَّ، وتوسَّل مني الحُبَّ والعون. أخبرَني كيف أني أستطيعُ إسعاد جميع الأشياء التي مِثله، أنه وجِنسه مخلوقات بسيطة كلُّ ما ترومه هو المال، فقط المال لا أكثر.. نقود في المظهَر نفيسة وفي الجوهَر زائفة. لو كان قد طلب مني، لكنتُ منحتهم الحكمة، أو السلام، السلام المُطلَق..».

قالت لِتي هِمبستوك:

- «لا شيء من ذلك. ليس لديكِ شيء يريدونه لتمنحينهم إياه، فدعيهم وشأنهم».

هَبَّت الرِّيح وتمايَل الشكل العملاق معها وتأرجحَت أشرعته الضخمة، وعندما مَرَّت الريح كان قد غيَّر وضعه وبدا الآن جاثِمًا أكثر

Twitter: @ketab_n

على الأرض يفحصنا كعالِمٍ قُماشيٍّ هائل الحجم يتطلَّع إلى فأرين أبيضين صغيرين.

فأرين أبيضين مرعوبين متعانقي الأيدي..

كان العرق قد بدأ يَخرُج من يد لِتي الآن، واعتصرَت يدي لتُطَمئِنني أو تُطَمئِن نفسها لا أدري، واعتصَرتُ يدها بدوري.

تلوَّى الوجه الممزَّق -أو المكان الذي كان ينبغي أن يكون فيه الوجه- وخطرَ لي أنه يَبتَسِم. لعله كان يَبتَسِم. شعرتُ كأنه يفحصني، يُفَكِّكني، كأنه يَعرِف كلَّ شيءٍ عني، يَعرِف أشياءَ لم أعرِفها عن نفسي حتى.

قالت الفتاة الممسكة بيدي:

- «إذا كنتِ لن تُخبريني باسمكِ، سأُكَبِّلكِ كشيءٍ بلا اسم، وستَظَلِّين مُكَبَّلَةً محصورةً مختومةً كشبحٍ ضاج أو عفريت».

وانتظرَت، لكن الشيء لم يَقُل شيئًا، وبدأَت لِتي هِمبستوك تُرَدِّد كلماتٍ بلُغةٍ أجهَلها. أحيانًا كانت تتكلَّم، وأحيانًا بدَت كأنها تُغَنِّي بلسانٍ ليس كمثله شيء سمعته في حياتي من قبل أو سأسمعه من بَعد. لكني كنتُ أعرِفُ اللَّحن مع ذلك. إنها أغنيَّة أطفال كنا نُغَنِّي على لَحنها أغنيَّة المَهد *Girls and Boys Come Out to Play*. كان هذا هو اللَّحن بالفِعل، لكن كلماتها كانت كلماتٍ أقدَم، وكنتُ متأكِّدًا من ذلك.

وبينما غنَّت لِتي، بدأت أشياءَ تَحدُث تحت السَّماء البرتقاليَّة..

تمعَّجَت التُّربة وتمخَّضَت عن ديدانٍ رماديَّةٍ طويلةٍ انبثقَت من باطِن الأرض تحت أقدامنا.

Twitter: @ketab_n

ثم جاء شيء مندفعًا بعُنفٍ نحونا من قلب كُتلة الأشرعة الخافِقة، شيء أكبر حجمًا قليلًا من كرة القدم. في مباريات كرة القدم في المدرسة كنتُ غالبًا ما أُسقِط الأشياء التي ينبغي عليَّ الإمساك بها، أو أُغلِق يدي عليها متأخِّرًا لحظةً لتَلطمني في وجهي أو بطني، لكن هذا الشيء كان قادمًا نحوي ونحو لِتي هِمبستوك مباشرةً، فلم أُفكِّر.. بل فعلتُ.

مددتُ يديَّ معًا وأمسكتُ الشيء الذي كان عبارةً عن كُتلةٍ تُرَفرِف وتتلوَّى من شباك العنكبوت والقُماش المتعفِّن، وإذ أمسكته بيديَّ شعرتُ بشيءٍ يُؤلِمني، بوَخْزٍ موجِع مفاجئ في أخمص قدمي دامَ لحظاتٍ ثم زالَ، كأني دُسْتُ دَبُّوسًا.

أطاحَت لِتي بالشيء الذي في يدي، فسقطَ على الأرض حيث تهاوى على نفسه، وأمسكَت لِتي يدي اليُمنى بحزمٍ مرَّةً أخرى، وخلال كلِّ هذا استمرَّت في الغناء.

لقد حلمتُ بتلك الأغنيَّة، بالكلمات الغريبة المُغَنَّاة على لَحن تلك الأغنية المُقَفَّاة، وفي مناسَباتٍ عِدَّةٍ في أحلامي فَهِمتُ ما كانت تقوله. في تلك الأحلام كنتُ أتكلَّم اللُّغة بدوري، اللُّغة الأولى، وبسَطتُ سيطرتي فوق طبيعة كلِّ ما هو حقيقي. في أحلامي كانت لُغة الموجود، وكلُّ ما يُقال بها يغدو حقيقيًّا، لأن لا كَذِب يقال بتلك اللُّغة. إنها المادَّة الخام الأولى لبناء كلِّ شيء. في أحلامي تكلَّمتُ بهذه اللُّغة لأُشفي المرضى وأطير، وفي مرَّةٍ حلمتُ بأني أدير خانًا صغيرًا على ساحل البحر، ولكلِّ من أتوا للنزول فيه معي كنتُ أقولُ بهذه اللُّغة: «كونوا كاملين»، فيكونون كاملين ولا يعودون أناسًا مكسورين، لأني تكلَّمتُ بلُغة التكوين.

Twitter: @ketab_n

ولأن لِتي كانت تتكلَّم بلُغة التكوين، حتى إذا كنتُ لم أفهم ما تقوله، فإنني فهمتُ ما كان يُقال. كان الشيء في البُقعة الخالية يُقَيَّد الآن بذلك المكان إلى الأبديَّة، صار عالِقًا ها هنا مُحَرَّمًا عليه ممارَسة نفوذه على أيِّ شيءٍ وراء نطاق ملْكه.

وأنهَت لِتي هِمبستوك أغنيتها..

توارَد لذِهني أنني أسمعُ المخلوق يَصرُخ محتَجًّا ويُقاوِم، لكن المكان أدنى السَّماء البرتقاليَّة كان ساكنًا، ولم يَكسر الصَّمت غير رفرفة الأشرعة وحفيف غُصَينات الأشجار مع حركة الرِّيح.

ثم سكنَت الرِّيح..

استقرَّت ألف قِطعةٍ من النسيج الممزَّق المُغْبَرّ على الأرض السوداء كأشياء ميِّتة، أو كالغسيل الذي ظَلَّ مُهمَلًا لزمنٍ طويلٍ للغاية، ولم تَلُح حركة من شيء. قالت لِتي مُعتَصِرةً يدي:

- «سيكفي هذا لتقييده».

حاولَت أن يكون أسلوبها بشوشًا، لكنها فشلَت في هذا وبدا صوتها متجهِّمًا وهي تقول:

- «لنُعِدك إلى البيت».

مشينا ويدي في يدها عبر غابةٍ دائمة الخُضرة مشوبةٍ بصبغةٍ زرقاء، وعبَرنا جِسرًا خشبيًّا مصقولاً أحمرَ وأصفرَ فوق بِركة زينة، ومشينا بحذاء حقلٍ تَطلُع فيه الذُّرة الصغيرة كعُشبٍ أخضرَ مزروعٍ في صفوف، وتسلَّقنا سُلَّمًا خشبيًّا فوق جِدارٍ ويدي ما زالت في يدها، لنَبلُغ حقلًا آخَر زُرِعَ فيه ما يبدو كقصبٍ صغير أو ثعابين زَغِبَةٍ سوداء

Twitter: @ketab_n

وبيضاء وبُنِّيَّة وبرتقاليَّة ورماديَّة ومخطَّطة، كلها يتمايَل برِقَّةٍ ويلتفُّ وينفكُّ في الشَّمس.

سألتها:

- «ما هذا؟».

قالت:

- «يُمكنك أن تَسحَب أحدها وترى إن أردت».

نظَرتُ إلى أسفل، ورأيتُ أن الشيء - الذي يبدو كجزءٍ لولبيٍّ من نبتةٍ معترشةٍ عند قدميَّ - كان أسودَ تمامًا، وقَبضتُ بيدي اليُسرى على قاعدته بصلابةٍ وجذَبتُ.

وخرجَ شيء من الأرض وتدلى متأرجحًا في غضب، وشعرتُ كأن دستةً من الإبَرِ الدَّقيقة قد غُرِسَت في يدي، فمسَحتُ التُّربة عن الشيء واعتذرتُ، وحَدَّقَ هو فيَّ بدهشةٍ وحيرةٍ أكثر من الغضب، ثم وثبَ من يدي إلى قميصي وملَّستُ عليه. كان هِرًّا أسودَ صغيرًا أملسَ الشَّعر ذا وجهٍ فضوليٍّ مدبَّب، لديه بُقعة بيضاء فوق إحدى أذنيه، وعينان من الأزرق الضَّارِب إلى الزُّرقة لهما جاذبيَّة خاصَّة.

قالت لِتي:

- «في المَزرعة نَحصُل على القِطَط بالطَّريقة التلقيديَّة».

- «وماذا تكون هذه؟».

- «بيج أوليفر. لقد جاءَ إلى المَزرعة في عصور الوَثَنِيَّة، وكلُّ قِطَط مزرعتنا من نسله».

نظَرتُ إلى الهِرِّ الصغير المتعلِّق بقميصي بمخالبه الدقيقة، وقلتُ:

Twitter: @ketab_n

- «هل يُمكنني أن آخذه معي؟».

- «إنها بِنت. ليست فِكرة طيِّبة أن تَأخُذ معك شيئًا من هذه الأنحاء».

وضَعتُ الهِرَّة على حافَّة الحقل، واندفعَت هي كالسهم وراء فراشةٍ حلَّقَت إلى فوق بعيدًا عن مُتنَاوَلها، ثم تقافزَت بعيدًا من دون أن تُلقي نظرةً واحدةً وراءها.

قلتُ لِتِي:

- «هِرِّي دهسَته سيَّارة. كان صغيرًا. الرجل الذي مات قال لي ما حدث، لكنه لم يَكُن السائق. قال إنهم لم يروه».

- «أنا آسفة، قالتها وكنا نمشي تحت مِظَلَّةٍ من زهور التُّفَّاح لحظتها ورائحة العالم كالشَّهد. «تلك مشكلة الأشياء الحيَّة، أنها لا تبقى طويلًا. هِرَرٌ صغيرةٌ في يومٍ وقِطَطٌ عواجز في اليوم الذي يليه، ثم مجرَّد ذِكريات، والذِّكريات تخبو وتَمتَزِج وتتلطَّخ معًا..».

وفتحَت بوَّابةً ذات خمسة قضبانٍ مرَرْنا منها، ثم تركَت يدي. كنا في أسفل الدَّرب بالقُرب من المِنَصَّة الخشبيَّة على جانِب الطَّريق، التي تَحمِل مَماخِض الحليب الفِضِّيَّة، وعادَت رائحة العالم طبيعيَّة.

قلتُ:

- «هل عُدنا حقًّا الآن؟».

قالت لِتِي هِمبستوك:

- «نعم، ولن نرى مزيدًا من المتاعب منها».

وصمتَت لحظةً قبل أن تضيف:

- «كانت كبيرةً، أليس كذلك؟ وبشعة! لم أرَ مِثلها من قبل قَطُّ.

Twitter: @ketab_n

لو عَرِفتُ أنها ستكون عجوزًا وكبيرةً وشنيعةً هكذا لما اصطحبتك معي».

لكني كنتُ مسرورًا لأنها اصطحبَتني معها.

ثم إنها قالت:

- «ليتك لم تَترُك يدي. لكنك بخير، أليس كذلك؟ لم يقع أذى ولم تتضرَّر».

قلتُ:

- «أنا بخير، لا تقلقي. أنا جُندي شجاع».

كان هذا ما يقوله جَدِّي دائمًا. ثم إنني كرَّرتُ ما قالته:

- «لم أتضرَّر».

وابتسمَت لي بسمةً صافيةً مستريحةً، وأملتُ أنني قلتُ الشيء الصحيح.

Twitter: @ketab_n

٧

في ذلك المساء جلسَت أختي في فِراشها تُمَشِّط شَعرها من دون توقُّف، وكانت تُمَشِّطه مئة مرَّةٍ في الليلة وتُحصِي كلَّ جَرَّة بالفرشاة، ولا أدري السَّبب.

سألَتني:

- «ماذا تفعل؟».

قلتُ لها:

- «أنظُر إلى قدمي».

كنتُ أتطلَّعُ إلى أخمص قدمي اليُمنى. كان هناك خَطٌّ وردي يمتدُّ عَبره من المَفصِل الكروي وحتى الكعب تقريبًا، حيث كنتُ قد دُسْتُ على زجاجٍ مكسورٍ وأنا صغير. أتذكَّرُ استيقاظي في سريري النقَّال في الصباح التَّالي لهذه الحادثة، وتطلُّعي إلى الغُرَز السود التي أغلقَت حوافَّ الجرح معًا. كانت هذه أقدم ذِكرياتي، وقد تعوَّدتُ على وجود النَّدَب الوردي، أمَّا هذا الثُّقب الصغير إلى جواره في قوس قدمي فكان جديدًا. كان في المكان الذي شعرتُ فيه بالألم المُباغِت الحاد، وإن كان لا يؤلمني الآن، بل مجرَّد ثُقب.

Twitter: @ketab_n

حكَكته بسبَّابتي، وبدا لي أن شيئًا داخِل الثُّقب قد تراجَع.

كانت أختي قد كَفَّت عن تمشيط شَعرها وتَرمُقني بنظراتٍ فضوليَّة، ثم إنني نهضتُ وخرَجتُ من غُرفة النوم عَبر الرُّواق إلى الحمَّام في نهاية الردهة.

لا أدري لِمَ لم أسأل أحد الكِبار عن هذا، ولا أذكُرُ أنني كنتُ أسألُ الكِبار عن أيِّ شيءٍ إلَّا على سبيل الملاذ الأخير. كان ذلك هو العام الذي استخرَجتُ فيه ثُؤلولةً صغيرةً من رُكبتي بواسطة سِكِّين جيب، مكتشِفًا العُمق الذي أستطيعُ أن أقطعَ عليه قبل أن أشعُر بالألم، وكيف تبدو جذور الثَّآليل.

في خزانة الحمَّام، وراء المرآة، كان هناك مِلقاط صغير من الصُّلب غير القابل للصدأ من النوع ذي الطرفين المُدبَّبين الحادَّين لإخراج الشظايا الخشبيَّة الرفيعة، بالإضافة إلى عُلبةٍ من البلاستر اللاصق. جلَستُ على الجانب المعدني من حوض الاستحمام الأبيض وفحَصتُ الثُّقب في قدمي. كان ثُقبًا بسيطًا صغيرًا مستدير الشكل وذا حوافَّ ملساء، ولم أستطِع أن أرى عُمقه لأن شيئًا كان يحول دون هذا، شيئًا كسدادةٍ في الثُّقب بدا كأنه يتراجَع عندما سقطَ عليه الضوء.

أمسَكتُ المِلقاط ونظرتُ، ولم يتحرَّك شيء، ولم يتغيَّر شيء.

وضَعتُ سبَّابتي اليُسرى فوق الثُّقب برِفقٍ حاجِبًا الضوء، ثم وضَعتُ طرف المِلقاط عِند الثُّقب وانتظرتُ وأنا أعُدُّ إلى مئة - مستوحيًا هذا من تمشيط أختي لشَعرها ربما - ثم سحَبتُ إصبعي بعيدًا وغرَستُ المِلقاط في الثُّقب.

Twitter: @ketab_n

وأمسَكتُ رأس الدُّودة -إذا كانت دودةً فعلًا- بطرف المِلقاط بين الشوكتين المعدنيَّتين، واعتصَرتُ الرأس وسحَبته.

هل سبقَ لك أن حاولت أن تُخرِج دودةً من ثُقب؟ أتدري القُوَّة التي تستطيع الدِّيدان التمسُّك بها، والطَّريقة التي تَستَخدِم بها جسمها كله لتَقبِض على جوانب الثُّقب؟

سحَبتُ نحو بوصةٍ ربما من تلك الدودة - وكانت ذات لونين وردي ورمادي ومخطَّطةً كشيءٍ ملوَّث- من الثُّقب في قدمي، ثم شعرتُ بها تتوقَّف. كنتُ أشعُرُ بها داخِل لحمي وهي تجعل نفسها صُلبةً غير قابلةٍ للسَّحب. لم يُشعِرني هذا بالخوف، وكان من الواضح أن هذا مُجرَّد شيءٍ يَحدُث للناس، تمامًا عندما كانت ميستي قِطَّة الجيران مصابةً بالدِّيدان. كانت هناك دودة في قدمي، وما أفعله أنني أُخرِجها.

لويتُ المِلقاط مُفكِّرًا -على ما أعتقد- في السپاجيتي حول الشوكة وأنا ألُفُّ الدُّودة حول المِلقاط. حاولَت أن تَجذِب نفسها إلى الداخِل، لكني ظلَلتُ أديرها شيئًا فشيئًا حتى لم أعُد أستطيع السَّحب أكثر من هذا فعلًا.

شعرتُ في داخِلي بالطَّريقة البلاستيكيَّة اللَّزِجة التي حاولَت التمسُّك بها كأنها شريط من العضل الخالص، ومِلتُ قَدر المستطاع ومدَدتُ يدي اليُسرى وفتَحتُ صنبور المياه السَّاخنة ذا النقطة الحمراء في المُنتَصَف، وترَكتُ المياه تجري لثلاث أو أربع دقائق من الصنبور إلى البالوعة قبل أن يبدأ البخار في الخروج منها.

عندما صارت المياه ساخنةً جدًّا مدَدتُ قدمي وذراعي اليُمنى محافِظًا على ضغطي على المِلقاط والبوصة التي أخرجتها من الكائن من داخِل جسدي، ثم وضَعتُ مكان المِلقاط تحت الصنبور السَّاخن،

Twitter: @ketab_n

فتناثرَت المياه على قدمي، لكن أخمصها كان قد صار صُلبًا من فرط تركها حافيةً، ولم أهتم كثيرًا. أحرقَت المياه السَّاخنة أصابعي، لكني كنتُ جاهزًا للحرارة، أمَّا الدُّودة فلم تَكُن كذلك، وشعرتُ بها تنثني داخِلي محاولةً الانسحاب بعيدًا عن المياه الحارقة، وشعرتُ بتمسُّكها بداخِل قدمي يَلين، فأدَرتُ المِلقاط شاعِرًا بالظَّفَر كأني أفضل من يُنَقِّب عن الجَرَب في العالم، بينما بدأ الكائن في الخروج مني وقد أخذَت مقاومته تَضعُف وتَضعُف.

ظللتُ أسحبه بثباتٍ، ومع وجوده تحت المياه السَّاخنة أخذ يرتخي حتى النهاية. كان قد خرجَ من داخِلي بالكامل تقريبًا -وكنتُ أشعُرُ به- لكني كنتُ واثقًا أكثر من اللازم، شاعِرًا بالظَّفَر أكثر من اللازم، نافد الصَّبر أكثر من اللازم، وشدَدتُ الدُّودة بسرعةٍ وقُوَّةٍ شديدتين حتى انقطعَت في يدي. كان طرفها الذي خرجَ مني يَنزُّ مكسورًا كأنه انقصَف، لكن إذا كان الكائن قد تبقَّى منه شيء داخِل قدمي، فهو شيء صغير على كلِّ حال.

فحَصتُ الدُّودة. كانت ذات لونٍ رماديٍّ داكِن ورماديٍّ فاتح مخطَّط بالبرتقالي، ومفصَّصة كدودة الأرض العاديَّة. والآن وقد ابتعدَت عن المياه السَّاخنة فقد بدا أنها تتعافى، وأخذَت تتلوَّى وتدلَّى جسمها الذي كان ملفوفًا حول المِلقاط، على الرغم من أنه كان معلَّقًا من الرأس (وهل كان هذا رأسها؟ أنَّى لي أن أعرِف؟) حيث أمسَكته بطرفيِّ إصبعيَّ.

لم أرغب في أن أقتُلها -ولم أكُن أقتُل الحيوانات، ليس إذا كانت هناك وسيلة أخرى- لكن كان عليَّ التخلُّص منها، فقد كانت تُشَكِّل خطرًا ولم يَكُن لديَّ شَكٌّ في هذا.

Twitter: @ketab_n

حملتُ الدودة فوق بالوعة حوض الاستحمام حيث تلوَّت وتملَّصَت تحت المياه الحارقة، ثم تخلَّيتُ عنها وراقَبتها حتى اختفَت في البالوعة. تَرَكتُ المياه تجري بعض الوقت وغسَلتُ المِلقاط، وأخيرًا ألصَقتُ قِطعةً صغيرةً من البلاستر فوق الثُّقب في أخمص قدمي، ووضَعتُ سِدادة حوض الاستحمام لأمنع الدُّودة من العودة عبر البالوعة من جديد قبل أن أُغلِق الصنبور. لم أدرِ إن كانت قد ماتت، لكني لم أحسب أن شيئًا يستطيع العودة من البالوعة.

وضَعتُ المِلقاط من حيث أخذته وراء مرآة الحمَّام، ثم أغلَقتُ المرآة وتطلَّعتُ إلى نفسي.

تساءلتُ -كما كنتُ أتساءلُ كثيرًا في تلك السِّن- عمَّن أكون، وما الذي يَنظُر بالضبط إلى هذا الوجه في المرآة. إذا كان الوجه الذي أنظُرُ إليه ليس أنا، وكنتُ أعرِفُ أنه ليس كذلك لأني سأظَلُّ أنا مهما حدث لوجهي، فماذا أكونُ أنا؟ وما الذي يَنظُر إليَّ؟

عُدْتُ إلى غُرفة النوم، وكان دوري الليلة لأترُك الباب مفتوحًا، وانتظَرتُ حتى نامَت أختي كي لا تشي بي، ثم في الضوء الخافت القادم من الرُّواق قرأتُ واحدًا من ألغاز *Secret Seven*[1] إلى أن غِبْتُ في النوم.

(1) مجموعة خياليَّة من المُحَقِّقين الأطفال تظهر في عددٍ كبير من المغامرات التي كتبَتها إيند بلايتون.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

VI

اعترافٌ عن نفسي: عندما كنتُ ولدًا صغيرًا جدًّا، في الثالثة أو الرابعة من العُمر تقريبًا، كنتُ وحشًا حقيقيًّا، وكثيراتٌ من العمَّات والخالات كُنَّ يقلن لي إنني «كنتُ ابن حـرام[1] صغيرًا» بَعد أن تجاوَزتُ سِنَّ البلوغ بقَدرٍ كافٍ يُتيح استعادة أفعالي الطُّفوليَّة الشَّنيعة على سبيل التسلية السَّاخرة. لكن الحق أقول إنني لا أذكُرُ أني كنتُ وحشًا بالفِعل، بل أذكُرُ فقط أني أرَدتُ أن تمضي الأشياء على النحو الذي يروق لي.

يَحسَب الأطفال الصغار أنهم آلهة، أو أن بعضهم يَحسَب ذلك، ولا يَشعُرون بالرِّضا أبدًا إلا عندما تدور بقيَّة العالم في فَلَكِ رؤيتهم للأشياء.

لكني لم أعُد ولدًا صغيرًا، فقد كنتُ في السابعة الآن، وفي السَّابق لم أخَف شيئًا، أمَّا الآن فقد صِرْتُ طِفلًا مرعوبًا.

(1) استخدم جايمان هنا لفظة momzér، وهي كلمة من لُغَة اليِديش - يهود ألمانيا - تعني "ابن الحرام" حرفيًّا.

Twitter: @ketab_n

لم يُشعِرني حادث الثُّقب في قدمي بالخوف ولم أتكلَّم عنه مع أحد، وإن تساءَلتُ في اليوم التالي إن كان الناس يُصابون كثيرًا بدودٍ في أقدامهم، أو إن كان هذا قد حدثَ لي وحدي من دون غيري في المكان ذي السَّماء البرتقاليَّة على حافَّة مَزرعة هِمبستوك.

قشَّرتُ قِطعة البلاستر عن أخمص قدمي عندما استيقَظتُ، وشعرتُ بالرَّاحة عندما رأيتُ أن الثُّقب قد بدأ يَنغَلِق. كانت هناك مساحة ذات لونٍ ورديٍّ حيث كان الثُّقب، تُشبه قَرْحًا دمويًّا، لكن لا شيء آخَر.

نزلتُ لأتناوَل الإفطار، وبدت أمي سعيدةً وهي تقول:

- «لديَّ خبر طيِّب يا حبيبي. لقد حصلتُ على وظيفة. إنهم يحتاجون أخصائي نظَّارات في محل ديكسنز للبصريَّات، ويُريدونني أن أبدأ اليوم بَعد الظُّهر. سأعملُ أربعة أيام في الأسبوع».

لم أُمانع، وسأكونُ بخيرٍ وحدي.

- «ولديَّ المزيد من الأخبار الطيِّبة. هناك من سيأتي ليعتني بك وبأختك في غيابي. اسمها إرسولا، وستنام في غُرفتك القديمة أعلى السلالم. ستعمل كمُدَبِّرَة منزل أو ما شابه، وستتأكَّد من إطعامكما وستُنَظِّف المنزل. مسز وولِري تُعاني من متاعب في وَرْكها، وتقول إنها لن تستطيع العودة إلى العمل قبل بضعة أسابيع. سينزاح عبء ثقيل عن بالي مع وجود أحدهم هنا طالما أني وأبوك سنكون غائبين في العمل».

قلتُ:

- «لكنكما لا تملكان المال. لقد قلتما إنكما لا تملكان أيَّ مال».

Twitter: @ketab_n

- «ولهذا السبب قبلتُ العمل كأخصائيَّة نظَّارات، وإرسولا ستعتني بكما مقابل الإقامة والطعام. إنها في حاجةٍ للبقاء في هذه المنطقة لبضعة شهور. لقد اتَّصلَت هذا الصباح، ومؤهِّلاتها ممتازة».

تمنَّيتُ أن تكون إرسولا تلك لطيفة المَعْشَر. لم تكن جرترود -مُدَبِّرة المنزل السابقة التي كانت تعمل لدينا قبل سِتَّة أشهُر- لطيفةً، وكانت تستمتع بمُمارَسَة الدُّعابات العمليَّة السَّمِجة معي ومع أختي. كانت مثلًا تتلاعب بأغطية سريرينا بحيث لا نستطيع مَدَّ أرجُلنا إلى النهاية، ما كان يثير حيرتنا. وفي النهاية خرجنا في مسيرةٍ خارِج المنزل حامِلَيْن لافتاتٍ تقول: «*نحن نكره جرترودا*» و«*نحن لا نُحِبُّ طهو جرترودا*»، ووضَعنا ضفادع صغيرةً في فِراشها، ثم عادَت جرترودا إلى السويد.

أخذتُ كتابًا وخرَجتُ به إلى الحديقة.

كان يومًا ربيعيًّا دافئًا مُشمِسًا، وتسلَّقتُ سُلَّمًا مصنوعًا من الحبال المجدولة إلى أدنى فروع شجرة الزَّان الكبيرة، وجلَستُ عليه وشرَعتُ في قراءة كتابي. لم أكُن أشعُرُ بالخوف من أيِّ شيءٍ وأنا أقرأُ كتابي، فقد كنتُ غائبًا بعيدًا في مِصر القديمة، أتعلَّم أشياءَ عن حتحور وكيف جابَت مِصر في هيئة لَبُؤَةٍ وقَتلَت عددًا كبيرًا جدًّا من الناس حتى أن رمال مِصر قد اكتسَت باللون الأحمر، وكيف استطاعوا هزيمتها أخيرًا بَعد أن مزَجوا البيرة بالعسل وشراب النوم وصبَغوا هذا المزيج بالأحمر، فظَنَّت حتحور أنه دَم وشَرِبَته وغابَت في النوم. ثم إن رع أبا الآلهة جعلها رَبَّة الحُبِّ بعد ذلك، كي تصير الجراح التي أنزلَتها بالناس مُجرَّد جراحٍ في القلب فقط.

Twitter: @ketab_n

سألتُ: لِمَ فعل الآلهة ذلك؟ ولماذا لم يكتفوا بقتلها عندما كانت الفرصة متاحةً؟

كنتُ أُحِبُّ الأساطير، فهي لم تكن قِصَصًا للكِبار ولا الأطفال، بل كانت أفضل من ذلك. لقد كانت موجودةً فحسب.

لم تكن قِصَص الكِبار مُقنِعةً على الإطلاق، وكانت أحداثها شديدة البطء في بدايتها، وجعلَتني أشعُرُ كأن هناك أسرارًا ما، أسرارًا ماسونيَّة أسطوريَّة لعالم البالِغين. لماذا لا يرغب الكِبار في القراءة عن أرض نارنيا وعن الجُزُر الخفيَّة والمُهَرِّبين والجِنِّيَّات الخطرات؟

كنتُ قد بدأتُ أشعُرُ بالجوع، فتسلَّقتُ شجرتي نزولًا وذهَبتُ إلى مؤخِّرة المنزل، مرورًا بغُرفة الغسيل التي كانت تفوح منها رائحة صابون الغسيل والعَفَن الفِطري، ومرورًا بسقيفة الفحم والخشب، ومرورًا بالمرحاض الخارِجي الذي تعلَّقت به العناكب وانتظرَت، وبالأبواب الخشبيَّة المطليَّة بلون الحديقة الأخضر، ثم دخَلتُ من الباب الخلفي وقطَعتُ الردهة إلى المطبخ.

كانت أمي هناك مع امرأةٍ لم أرها من قبل، وعندما رأيتها آلمني قلبي، وأعني ذلك حرفيًّا وليس مجازًا، إذ شعرتُ بوَخْزٍ خاطفٍ في قلبي دام هنيهةً ثم تلاشى.

كانت أختي جالسةً إلى طاولة المطبخ تَأكُل من وعاءٍ من حبوب الإفطار.

كانت المرأة بارعة الحُسن، شَعرها قصير نوعًا ما وأشقَر كلون العسل، عيناها متَّسعتان جدًّا ولهما لون أزرقَ مائل إلى الرَّمادي، وتضع طلاء شفاهٍ باهِتًا، وبدت طويلة القامة للغاية حتى بالنسبة للكِبار.

Twitter: @ketab_n

قالت أمي:

- «حبيبي، هذه هي إرسولا مونكتن».

لم أقُل شيئًا وحدَّقتُ فيها فحسب، فلكزَتني أمي فقلتُ:

- «مرحبًا».

قالت إرسولا مونكتن:

- «إنه خجول، لكني واثقة من أننا سنُصبِح صديقين رائعين بمجرَّد أن يتعوَّد عليَّ».

ومَدَّت يدها وربَّتَت على شَعر أختي البُنِّي كفرو الفئران، وابتسمَت لها أختي ابتسامةً واسعةً كشفَت عن أسنانها المُفتَرِقة، وقالت:

- «أنا أُحِبُّكِ جدًّا».

ثم قالت مُوَجِّهَةً كلامها لي ولأمي:

- «أريدُ أن أكون إرسولا مونكتن عندما أكبرُ».

ضَحِكَت أمي وإرسولا، وقالت الأخيرة:

- «أنتِ حَبُّوبة صغيرة».

والتفتَت نحوي قائلةً:

- «وماذا عنا، هه؟ هل نحن صديقان كذلك؟».

لم يسعني إلا النَّظَر إليها.. بالغةً شقراء كانت.. ترتدي تنُّورة من اللونين الرَّمادي والوردي.. وشعرتُ بالخوف.

لم تكن ملابسها رثَّةً، بل هكذا كان مجرَّد نمط الفستان الذي ترتديه على ما أعتَقِدُ، لكني عندما تطلَّعتُ إليها تخيَّلتُ فستانها يُرَفرِف

Twitter: @ketab_n

في ذلك المطبخ حيث لا ريح، يُرَفرِف كقِلْعِ سفينةٍ تَمخُر مُحيطًا موحِشًا تحت سماءٍ برتقاليَّة.

لا أدري بِمَ ردَدتُ، أو إن كنتُ قد قلتُ أيَّ شيءٍ أصلًا، لكني خرَجتُ من المطبخ - مع أني كنتُ أشعُرُ بالجوع- من دون أن آخذ معي ولو تُفَّاحة.

أخَذتُ كتابي إلى الحديقة الخلفيَّة، وجلَستُ تحت الشُّرفة عِند حوض الأزهار التي نمَت تحت نافذة غُرفة التليفزيون، وبدأتُ أقرأُ ناسيًا جوعي في مِصر القديمة مع الآلهة ذوي رؤوس الحيوانات، الذين كانوا يُمَزِّقون بعضهم بعضًا إِرَبًا، ثم يعيدون أحدهم الآخَر إلى الحياة.

ثم خرجَت أختي إلى الحديقة وقالت لي:

- «أُحِبُّها كثيرًا. إنها صديقتي. هل تريد أن ترى ما أعطَتني إياه؟».

وأخرجَت كيس نقودٍ رماديًّا صغيرًا من النوع الذي كانت تَحتَفِظ به أمي في حقيبة يدها لتضع فيه العُملات ويُغلَق بواسطة إبزيم معدني على شكل فراشة. بدا مصنوعًا من الجِلد، وتساءَلتُ إن كان هذا جِلد فئران. فتحَت أختي كيس النقود، ودسَّت أصابعها في الفتحة، وأخرجَت منها عُملةً فِضِّيَّةً كبيرة الحجم: نِصف كراون[1].

قالت أختي:

- «انظر! انظر ما حصلتُ عليه!».

كنتُ أرغبُ في أن يكون معي نِصف كراون. كلا.. كنتُ أرغبُ في ما يُمكنني أن أشتريه بنِصف كراون، من حِيَلٍ سِحرِيَّةٍ وألعابٍ

(1) الكراون: عُملة إنجليزيَّة قديمة تساوي خمسة شِلِنات.

Twitter: @ketab_n

بلاستيكيَّةٍ للدُّعابات وكُتُبٍ.. آه.. وأشياءَ كثيرة جدًّا. لكني لم أكُن أرغب في كيس نقودٍ رماديٍّ صغير فيه نِصف كراون.

قلتُ لأختي:

- «أنا لا أُحِبُّها».

- «هذا لأني رأيتها أولًا فقط. إنها صديقتي أنا».

لم أظُن أن إرسولا مونكتن صديقة أيِّ أحد، وأرَدتُ أن أذهب لأُحَذِّر لِتي هِمبستوك منها، لكن ماذا عساي أقول؟ إن مُدَبِّرة المنزل/ جليسة الأطفال الجديدة ترتدي الرَّمادي والوردي؟ إنها تَرمُقني بنظراتٍ غريبة؟

ليتني لم أترُك يد لِتي..

إرسولا مونكتن غلطتي أنا، وكنتُ متأكِّدًا من هذا، ولن أتمكَّن من التخلُّص منها بمجرَّد أن أصرِفها في البالوعة أو أضع الضفادع في فِراشها.

كان يَجدُر بي أن أغادِر حينها، أن أهرُب، أن أفرَّ قاطعًا مسافة الميل أو بعض الميل من الدَّرب إلى حيث مَزرعة هِمبستوك، لكني لم أفعل. ثم إن سيَّارة أجرة أخذَت أمي إلى محل ديكسنز للبصريَّات، حيث ستَعرض على الناس حروف الأبجديَّة عبر عدساتٍ وتُساعِدهم على الرؤية بشكلٍ أوضح، وتُرِكتُ أنا هناك مع إرسولا مونكتن.

وخرجَت إرسولا إلى الحديقة حاملةً طبقًا من الشطائر.

قالت بابتسامةٍ عذبةٍ تحت طلاء الشفاه الباهت:

- «لقد تحدَّثتُ مع أُمِّك، وعندما أكونُ هنا عليك وأختك أن

Twitter: @ketab_n

تَحُدًّا من تحرُّكاتكما. يُمكنكما الذهاب إلى أيِّ مكانٍ في المنزل أو الحديقة، أو سأوصِّلكما بنفسي إلى منازل أصدقائكما، لكن غير مسموحٍ لكما بالخروج عن هذه الحدود والتجوال بعيدًا».

قالت أختي:

- «بالتأكيد».

ولم أقُل شيئًا..

التهمَت أختي شطيرةً من زبدة الفول السوداني، وكنتُ أتضوَّرُ جوعًا. تساءَلتُ إن كانت الشطائر تُشَكِّل خطرًا أم لا، ولم أعرِف الإجابة. كنتُ خائفًا من أن ألتَهِم واحدةً فتستحيل إلى ديدانٍ في معدتي، وأن تتلوَّى تلك الدِّيدان في داخِلي وتَستَعمِر جسدي إلى أن تَنبَثِق من تحت جِلدي.

دخَلتُ المنزل مرَّة أخرى ودفَعتُ باب المطبخ، ولم تكن إرسولا مونكتن هناك. حشَوتُ جيوبي بالفاكهة، بحبَّات من التُّفَّاح والبرتقال والكُمَّثرى البُنِّيَّة الصُّلبة، وأخَذتُ ثلاثة أصابع من الموز ودسَستها في سُترتي، ثم لُذْتُ بالفرار إلى معملي.

كان معملي (وكان هذا هو الاسم الذي أطلقته عليه) عبارةً عن سقيفةٍ مطليَّةٍ بالأخضر تَبعُد كثيرًا عن المنزل، وكانت قد أقيمت قبالة جانِب مرأب المنزل الضخم القديم. كانت هناك شجرة تين نامية إلى جوار السَّقيفة، على الرغم من أننا لم نَذُق ثمارًا ناضجةً من تلك الشَّجرة قَطُّ، وكنا نرى أوراقها الضخمة وثمارها الخضراء لا أكثر. كنتُ أعتبر السَّقيفة معملي لأني كنتُ أحتَفِظُ بأدوات الكيمياء هناك.

Twitter: @ketab_n

كانت مواد وأدوات الكيمياء هديَّة عيد ميلادٍ مُعَمِّرةً، لكن أبي كان قد منع وجودها داخِل المنزل بَعد أن صنَعتُ شيئًا في أنبوب اختبار. كنتُ قد خلطتُ بضعة أشياءَ معًا بشكلٍ عشوائي، ثم سخَّنتها إلى أن فارَ الخليط وتحوَّل لونه إلى الأسود وفاحَت منه رائحة نشادر كريهة رفضَت أن تغيب من الهواء. قال أبي إنه لا يُمانِع أن أُجري تجاربي الكيميائيَّة، (على الرغم من أن لا هو ولا أنا كنا ندري ما الذي أُجري التجارب عليه أصلًا، لكن ذلك لم يكن مهمًّا، فقد كانت أمي تتلقَّى مواد وأدوات الكيمياء كهدايا في عيد ميلادها، وانظر كيف أفادها هذا)، لكنه لم يَرغَب في أن تَتِمَّ هذه التجارب في نطاقٍ يجعل الرائحة تَبلُغ المنزل.

أكَلتُ إصبع موزٍ وحبَّة كُمَّثرى، ثم خبَّأتُ بقيَّة الفاكهة تحت المنضدة الخشبيَّة.

الكِبار يَسلُكون الطُّرُق، أمَّا الأطفال فيَستكشِفون. الكِبار يقنعون بالسَّير في الطَّريق نفسه مئات المرَّات، آلاف المرَّات، وقد لا يَخطُر لهم أبدًا أن يحيدوا عن الطَّريق، أن يزحفوا تحت نباتات الورديَّة، أن يجدوا فراغاتٍ في الأسوار السِّلكيَّة. كنتُ طفلًا، ما يعني أني أعرفُ عشر وسائل مختلفةٍ للخروج من نطاق مِلْكنا إلى الدَّرب، وسائل لا تتضمَّن أن أضطرَّ لعبور ممرِّ السيَّارات. قرَّرتُ أن أتسلَّل من المعمل وأسير بحذاء الجِدار إلى حافَّة الحديقة، ثم أعبُر من بين نباتات الأزاليا وورق الغار التي تَحُدُّ الحديقة هناك، ومن بين أوراق الغار سأنزلِقُ نازلًا التَّلَّ، وأثِبُ فوق السُّور المعدني الصَّدئ الذي يمتدُّ بطول جانِب الدَّرب.

لم يكن هناك من يراني. جريتُ وزحفتُ وعبرتُ من بين أوراق

Twitter: @ketab_n

الغار، ونزلتُ التَّلَّ شاقًّا طريقي بين نباتات العُلَّيق والقُرَّاص التي نمَت منذ كنتُ هناك آخِر مرَّة.

وكانت إرسولا مونكتن تَنتَظِرني عِند سفح التَّلِّ أمام السُّور المعدني الصَّدئ مباشرةً. من المستحيل تمامًا أنها وصلَت إلى هناك من دون أن أراها، لكنها كانت هناك. عقدَت ذراعيها على صدرها ونظرَت إليَّ وفستانها ذو اللونين الرَّمادي والوردي يتمايَل مع هَبَّة الريح، وقالت:

- «ظننتُ أني قلتُ إنه من غير المسوح لك أن تُغادِر نطاق المنزل والحديقة».

أجبتُها باعتدادٍ لم أكُن أشعُر به حقًّا ولو قليلًا:

- «أنا لم أغادِر، وما زلتُ على أرضنا. إنني أستكشِفُ فقط».

قالت:

- «إنك تتسلَّل».

لم أُعَلِّق، فقالت:

- «أعتَقِدُ أنك يجب أن تبقى في غُرفة نومك حيث أستطيعُ أن أراك طوال الوقت، ولقد حان وقت قيلولتك».

كنتُ أكبر سِنًّا من أنام القيلولة، لكني كنتُ أصغر من أن أُجادِلها، أو حتى أن أخرُج رابحًا من الجدل إذا فعلتُ، فقلتُ:

- «حسنٌ».

قالت:

- «لا تقل «حسنٌ»، بل قُل «حاضر يا مِس مونكتن»، أو «سيِّدتي». قُل «حاضر يا سيِّدتي»».

Twitter: @ketab_n

كانت تَرمُقني بعينيها ذاتا اللون الأزرقَ المائل إلى الرَّمادي، ما جعل مُخَيِّلتي تَشرُد إلى صُورة ثقوبٍ متعفِّنةٍ في شراعِ قُماشي، ولم تَبْدُ الصورة جميلةً في تلك اللحظة.

قلتُ وأنا أكره نفسي لقولها:

- «حاضر يا سيِّدتي».

بدأنا نَصعَد التَّلَّ مشيًا معًا، وقالت إرسولا مونكتن:

- «والداك لم يعودا قادِرَيْن على مصاريف هذا المكان، ولا يستطيعان الحفاظ عليه. قريبًا جدًّا سيريان أن السبيل الوحيد لحَلِّ مشكلاتهما الماليَّة هو بيع هذا المنزل وما حوله من حدائق لمُطَوِّري الأراضي. عندها سيتحوَّل كلُّ هذا.. (وكان "هذا" عبارةً عن فروع العُلَّيق المتشابكة والعالم المُهمَل وراء الحديقة).. إلى دستةٍ من المنازل متطابقة الشكل والحدائق، وإذا كنتم محظوظين ستقيمون في واحدٍ منها. وإذا لم يَحدُث هذا، فستكتفون بأن تَحسِدوا من يقيمون هناك. هل سيروق لك ذلك؟».

كنتُ أُحِبُّ هذا المنزل، وأُحِبُّ هذه الحديقة وحالتها المُهمَلة غير المنتظمة. كنتُ أُحِبُّ هذا المكان كأنه جزء مني، ولعله كان كذلك بشكلٍ ما بالفِعل.

سألتها:

- «من تكونين؟».

- «إرسولا مونكتن. أنا مُدَبِّرة منزلكم».

قلتُ:

- «من تكونين حقًّا؟ ولماذا تُعطين الناس مالًا؟».

Twitter: @ketab_n

قالت كأنها تتكلَّم عن شيءٍ بديهي:

- «الجميع يريدون المال. المال يَمنَحك السعادة إذا منَحته الفُرصة».

كنا قد بلغنا كومة جُذاذات العُشب الواقعة وراء دائرة العُشب الأخضر التي كنا نُطلِق عليها اسم حلقة الجِنِّيَّات. أحيانًا، عندما يكون الجو رَطْبًا، كانت الحلقة تمتلئ بِفِطر الغاريقون الأصفر الزَّاهي.

قالت إرسولا:

- «والآن اذهب إلى غُرفتك».

وركَضتُ هاربًا منها.. ركَضتُ بأقصى ما لديَّ من سرعة قاطِعًا حلقة الجِنِّيَّات، وعبر الحديقة، مرورًا بشُجيرات الورد، ومرورًا بسقيفة الفحم، وإلى داخِل المنزل.

وكانت إرسولا مونكتن واقفةً داخِل باب المنزل الخلفي لتُرَحِّب بي، على الرغم أنه من المستحيل أنها كانت تستطيع الوصول قبلي، وكنتُ لأراها إذا فعلَت. بدا شَعرها مُمَشَّطًا بعناية، وطلاء شفتيها كأنه وُضِعَ للتو.

قالت:

- «لقد كنتُ في داخِلك، فخُذها مني كلمةً حكمةً إذن: إذا أخبرت أيَّ أحدٍ بأيِّ شيء فلن يُصَدِّقك، ولأني كنتُ في داخِلك سأعرِفُ أنك تكلَّمت، وباستطاعتي أن أجعلك غير قادرٍ على قول أيِّ شيءٍ لا أريدك أن تقوله، أبدًا أبدًا».

Twitter: @ketab_n

صعدتُ إلى غُرفتي واستلقَيتُ على الفِراش. كانت البُقعة في أخمص قدمي حيث كانت الدُّودة تَنبض وتُؤلِمني، والآن كان صدري يُؤلِمني أيضًا. غِبْتُ بعيدًا داخِل رأسي، داخِل كتاب، إذ كان هذا هو المكان الذي أَفرُّ إليه كلما عاندَني عالم الواقع وصار عسير الاحتمال. شدَدتُ حُفنةً من كُتُب أمي القديمة التي كانت تقرأها في صِباها، وقرأتُ عن طالبات المدارس اللائي كُنَّ يَقُمنَ بمغامراتٍ في الثلاثينات والأربعينات. غالبًا ما كُنَّ يُواجِهنَ المُهَرِّبين أو الجواسيس أو المنتمين للطابور الخامس -أيًّا كان معنى ذلك- ودائمًا ما كانت تلك البنات يتحلَّينَ بالشَّجاعة، ودائمًا ما كُنَّ يَعرِفنَ ما يجب فِعله بالضبط. أمَّا أنا فلم أكُن شُجاعًا، ولم أكُن أملك أدنى فِكرة عما أفعله.

في حياتي كلها لم أشعر بهذه الوحدة القاسية..

تساءَلتُ إن كانت عائلة هِمبستوك تملك هاتفًا. بدا هذا غير مُحتمَل لكن ليس مستحيلًا، ولعلَّ مسز هِمبستوك هي من أبلغَت الشُّرطة عن سيَّارتنا الميني المهجورة أصلًا. كان دليل الهاتف في الطابق السُّفلي، لكني كنتُ أعرِفُ رقم الاستعلامات، وكان كلُّ ما عليَّ أن أسأل عن أيِّ شخصٍ يحمل اسم هِمبستوك يَقطُن في مَزرعة هِمبستوك. كان هناك هاتف في غُرفة أبويَّ.

نهضتُ من الفِراش وخرَجتُ إلى المدخل ونظَرتُ حولي. كان رُواق الطابق العُلوي خاليًا، وبكلِّ ما استطعتُ تدبيره من هدوءٍ سِرْتُ إلى غُرفة النوم المجاورة لغُرفتي. كانت الجدران مطليَّة بلونٍ ورديٍّ باهت، وكان فِراش والديَّ مُغَطًّى بغطاءٍ مُغَطًّى بدوره بورودٍ مطبوعةٍ ضخمة. كانت هناك نافذة على الطراز الفرنسي تُطِلُّ على الشُّرفة الممتدَّة على جانِب المنزل. كان هناك هاتف بلون القِشدة الأصفر

Twitter: @ketab_n

الشاحب موضوع فوق كومود باللون نفسه وله حواف مُذَهَّبَة. رفَعتُ السمَّاعة وسمعتُ صوت الأزيز المُمِل المميِّز لرنَّة طلب الأرقام، وطلَبتُ رقم الاستعلامات وأصابعي تسحب قُرص الأرقام -واحد.. تسعة.. اثنان- وانتظَرتُ أن يَرُدَّ عليَّ عامِل السنترال ليُخبِرني برقم مَزرعة هِمبستوك. كان معي قلم رصاص، وكنتُ جاهزًا لكتابة رقم الهاتف المنشود على ظَهر كتابٍ مُجَلَّد بالقُماش الأزرق اسمه "پانسيه تُنقِذ المدرسة".

لم يُجِبني عامل السنترال، واستمرَّت رنَّة طلب الأرقام، وبصوتٍ يعلو عليها سمعتُ إرسولا مونكتن تقول:

- «الصغار الذين رُبُّوا تربيةً سليمةً لا يَجدُر بهم أبدًا التفكير في التسلُّل لاستخدام الهاتف، أليس كذلك؟».

لم أقُل شيئًا، وإن لم يَكُن لديَّ أدنى شَكٍّ في أنها تسمع صوت أنفاسي. وضَعتُ السمَّاعة في مكانها وعُدْتُ إلى غُرفة النوم التي كنتُ أتقاسَمها مع أختي الصغيرة.

وجلستُ على فِراشي وجعلتُ أُحَدِّق في العالم وراء النافذة.

كان فِراشي محشورًا بشِدَّة في الجدار أسفل النافذة مباشرةً، وكنتُ أُحِبُّ النوم والنافذة مفتوحة. كانت الليالي المطيرة هي الأفضل على الإطلاق، فكنتُ أفتحُ نافذتي وأضعُ رأسي على الوسادة وأُغلِقُ عينيَّ وأشعُرُ بالرِّياح على وجهي وأُصغي للأشجار وهي تتمايَل وتَصرُّ.

كانت قطرات المطر تطير لتَنزِل على وجهي أيضًا إذا حالفَني الحظ، فأتخيَّلُ أنني في قاربي الذي يجوب المُحيط، وأنه يتمايَل فوق

Twitter: @ketab_n

أمواج البحر. لم أكُن أتخيَّل أنني قُرصان، أو أنني ذاهبٌ في وجهةٍ معيَّنة. كنتُ أتخيَّلُ فقط أنني على متن قاربي.

لكن السَّماء لم تكُن تُمطِر الآن، ولم يَكُن الوقت ليلًا، وكلُّ ما استطعتُ رؤيته من النافذة هو الأشجار والسَّحاب والأُفُق الأرجواني البعيد.

كان لديَّ مخزون طوارئ من الشوكولاتة خبَّأته تحت تمثال باتمان الكبير الذي حصلتُ عليه في عيد ميلادي. أكَلتُ الشوكولاتة، وبينما آكلها فكَّرتُ كيف أنني تركتُ يد لِتي هِمبستوك كي أُمسِك كرة القُماش العَفِن، وتذكَّرتُ طعنة الألم التي شعرتُ بها في قدمي بعدها.

- أنا الذي جِئتُ بها إلى هنا.. وكنتُ واثقًا من صِحَّة هذا.

إرسولا مونكتن لم تكن حقيقيَّةً. إنها مُجرَّد قناعٍ ورقي يُواري الشيء الذي أتى إلى هنا في داخِلي كدودة، الشيء الذي رَفرَف وعصفَ في الرِّيفِ المفتوح تحت السَّماء البرتقاليَّة.

عُدْتُ إلى قراءة "پانسيه تُنقِذ المدرسة". كانت التصميمات السِّرِّيَّة الخاصَّة بالقاعدة الجويَّة المجاوِرة للمدرسة يجري تهريبها إلى العَدُوِّ على يد جواسيسٍ يعملون كأساتذةٍ في المدرسة يعملون على توزيع حِصَص الخضروات، وكانت التصميمات مُخَبَّأةً داخِل لُبِّ الخضروات المُفَرَّغ.

قال المُفَتِّش ديڤدسن، رجل قِسم المُهَرِّبين والجواسيس السِّرِّيين الشهير في سكوتلاند يارد (ق. م. ج. س.)، بدهشة: «بحقِّ السَّماء! هذا آخِر مكان كان من الممكن أن نبحث فيه حرفيًّا!».

- «نحن مدينون لكِ باعتذار يا پانسيه»، قالتها مديرة المدرسة الصَّارمة بابتسامةٍ دافئةٍ تُخالِف طبيعتها، ولمعةٍ في عينيها جعلَت پانسيه

Twitter: @ketab_n

تُفكِّر أنها ربما أساءت في الحُكم عليها طوال هذا الفصل الدراسي. «لقد أنقذتِ سُمعة المدرسة! لكن الآن، قبل أن يتابكِ الغرور، أليس هناك بعض الأفعال التي عليك تصريفها للمدام أستاذة الفرنسيَّة؟».

في جزءٍ من عقلي كان يُمكنني الشعور بالسعادة مع مغامرات پانسيه، حتى مع امتلاء بقيَّة عقلي بالخوف. انتظَرتُ أن يعود والداي إلى المنزل. سأُخبِرهما بما يَحدُث، سأُخبِرهما.. وسيُصَدِّقانني.

في تلك الفترة كان أبي يعمل في مكتبٍ على بُعد ساعةٍ بالسيَّارة. لم أكُن متأكِّدًا من طبيعة العمل الذي يُزاوِله. كانت لديه سكرتيرة حسناء لطيفة جدًّا لديها كلب من نوع التوي پودِل، وكلما عَرِفَت أني وأختي قادمان إلى المكتب لزيارة أبينا كانت تأتي بالكلب من المنزل لنلعب معه. أحيانًا كنا نَمُرُّ بمبانٍ، فيقول أبي: «هذا واحد من مبانينا»، لكني لم أكن أُبالي بالمباني، وهكذا لم أسأل قَطُّ كيف يكون المبنى ملكًا لنا، أو حتى من نكون نحن.

تمدَّدتُ في فِراشي أقرأُ كتابًا وراء كتابٍ إلى أن ظهرَت إرسولا مونكتن عِند مدخل الغُرفة، وقالت:

– «يُمكنك أن تَنزِل الآن».

كانت أختي جالسةً أمام التليفزيون في الطابق السُّفلي في غُرفة التليفزيون، وكانت تُشاهِد برنامجًا اسمه *How*، وهو برنامج عن العلوم المبسَّطة وكيف تعمل الأشياء، يَفتَتِحه المذيعون وهُم يرتدون الزِّيَّ التقليدي للهنود الحُمر قائلين: «كيف؟»، ويزعقون بهتافاتٍ حربيَّةٍ سخيفةٍ مُحرِجة.

أرَدتُ تغيير المحطَّة إلى الـBBC، لكن أختي رمقَتني بنظرةٍ ظافرةٍ وقالت:

Twitter: @ketab_n

- «إرسولا قالت إنني أستطيع مُشاهَدة المحطَّة التي أرغبُ فيها، وإن من غير المسموح لك بتغييرها».

جلستُ معها بعض الوقت بينما كان رجل مُسِن ذو شاربٍ يُري أطفال إنجلترا كيف يَعقِدون ذباب الصَّيد في الصِّنَّارات.

قلتُ:

- «إنها ليست لطيفة».

- «أنا أُحِبُّها. إنها جميلة».

عادَت أمي إلى المنزل بعد خمس دقائق، وألقَت التحيَّة علينا من الرُّواق، ثم دخلَت المطبخ لترى إرسولا مونكتن، ثم ظهرَت من جديد وقالت:

- «العشاء سيكون جاهزًا بمجرَّد أن يعود بابا. اغسلا أيديكما».

صعدَت أختي إلى الطابق العُلوي وغسلَت يديها، بينما قلتُ لأمي:

- «أنا لا أُحِبُّها. هلَّا صرفتيها؟».

تنهَّدَت أمي وقالت:

- «لن نُكَرِّر ما حدث مع جرترودا مرَّةً أخرى يا صغيري. إرسولا فتاة لطيفة جدًّا ومن عائلة ممتازة، كما أنها تَعشَقكما حتى النُّخاع».

عادَ أبي إلى المنزل وتَمَّ تقديم العشاء الذي تكوَّن من حساء خضرواتٍ ثخين، ثم الدجاج المشوي في الفُرن مع البطاطس الطازجة والبازلاء المجمَّدة. كنتُ أُحِبُّ جميع الأصناف الموضوعة على المائدة، لكني لم آكُل شيئًا منها.

Twitter: @ketab_n

قلتُ مُفَسِّرًا:

- «لستُ جائعًا».

قالت إرسولا مونكتن:

- «أنا لستُ ممن يشون بكلِّ شيءٍ يرونه كتلامذة المدارس، لكن الشوكولاتة كانت تُلَطِّخ فم أحدهم ويديه عندما نزل من غُرفته».

قال أبي مُتَذَمِّرًا:

- «ليتك لا تأكل تلك النفايات».

وقالت أمي:

- «إنها مجرَّد سُكَّر مُعالَج، كما أنها تُفسِد شهيَّتك وأسنانك كذلك».

كنتُ خائفًا من أن يُجبِروني على الأكل، لكنهم لم يفعلوا، وجلستُ هناك جائعًا بينما تَضحَك أورسُلا مونكتن على كلِّ نِكات أبي، وبدا لي أنه يَبتَكِر نِكاتٍ خاصَّة لها وحدها.

بَعد العشاء شاهَدتُ حلقةً من مسلسل *Mission: Impossible*. كنتُ أُحِبُّ مُشاهَدة هذا المسلسل في المعتاد، لكن حلقة اليوم أشعرَتني بعدم الرَّاحة، إذ أخذوا يَنزَعون وجوههم ليَكشِفوا عن وجوهٍ جديدة. كانوا يضعون أقنعةً مطَّاطيَّة، ومَن تحتها كان أبطالنا دائمًا، لكني تساءَلتُ عما قد يَحدُث إذا خلعَت إرسولا مونكتن وجهها..أيُّ شيءٍ سيكون تحته؟

خلَدنا إلى الفِراش، وكان الدور على أختي ليلتها لتُغلِق باب الغُرفة، وافتقَدتُ الضوء الآتي من الـرُّواق. تمدَّدتُ في الفِراش

Twitter: @ketab_n

والنافذة مفتوحة يَقْظًا كُلِّيَّةً، أُصغي إلى الأصوات التي يُصدِرها المنزل القديم في نهاية كلِّ يوم طويل، وتمنَّيتُ بكلِّ ما لديَّ من طاقة، آملًا أن تتحقَّق أمانيَّ. تمنَّيتُ أن يَصرِف أبي وأمي إرسولا مونكتن، ثم أذهب إلى مَزرعة هِمپستوك وأحكي لِلتي ما فعلته، وتُسامِحني، وتجعل كلَّ شيءٍ على ما يُرام.

لم أستطِع النوم، وكانت أختي قد نامَت بالفِعل. كان يبدو أنها تستطيع الغياب في النوم متى أرادَت، وهي مهارةٌ حسَدتُها عليها ولم أتمتَّع بها.

غادَرتُ غُرفتي..

مشيتُ مُتلكِّئًا عِند قِمَّة السلالم، أُصغي لضجيج التليفزيون القادم من الطابق السُّفلي، ثم انسلَلتُ حافي القدمين بمنتهى الهدوء على السلالم، وجلستُ على الدرجة الثالثة من أسفل. كان باب غُرفة التليفزيون نِصف مفتوح، وإذا نزلتُ درجةً واحدةً أخرى سيراني أيًّا كان من يُشاهِد التليفزيون الآن، وهكذا قبعتُ في مكاني منتظِرًا.

كنتُ أسمع الأصوات الصادرة من التليفزيون تُقاطِعها انفجارات من الضحك التليفزيوني بين الحين والآخَر.

ثم، بصوتٍ يعلو على أصوات التليفزيون، صوت شخصين كبيرين يتكلَّمان.

قالت إرسولا مونكتن:

- «إذن، هل تغيب زوجتك عن المنزل كلَّ مساء؟».

وصوت أبي:

Twitter: @ketab_n

- «كلا، لقد عادَت إلى هناك هذا المساء من أجل تنظيم الغد، لكن بدايةً من الغد ستغيب مرَّةً في الأسبوع. إنها تجمع المال من أجل أفريقيا في مجلس القرية، لحَفر الآبار، وعلى ما أعتَقِدُ لمَنْعِ الحمل كذلك».

قالت إرسولا:

- «طيِّب، أنا أعرفُ كل شيءٍ عن ذلك بالفعل!».

وضحكَت.. ضحكةً عاليةً رنَّانةً كان وَقْعُها ودودًا مُخلِصًا حقيقيًّا، ولم يَحمِل أيَّ خِرَقٍ تُرَفرِف، ثم إنها قالت:

- «الرَّامي الصغير[1]..»، وبَعد لحظةٍ انفتح الباب على مِصراعيه، وكانت إرسولا مونكتن تُحَدِّق فيَّ مباشرةً. كانت قد أعادَت وَضْعَ ماكياجها؛ طلاء الشفاه الباهت والأهداب الطويلة.

قالت:

- «اذهب إلى فِراشك.. الآن».

قلتُ بلا أمل:

- «أريدُ أن أتكلَّم مع بابا».

لم تَقُل شيئًا.. فقط ابتسمَت ابتسامةً بلا دِفءٍ وبلا حُب، وارتقَيتُ السلالم مرَّةً أخرى، وصعدتُ إلى سريري واستلقَيتُ في الغُرفة المُظلِمة إلى أن يئست من مجيء النوم، ثم إن النوم جاء وطوَّقَني وأنا لا أنتظره، ونِمْتُ من غير راحة.

(1) في لعبة البيزبول، الرَّامي هو اللاعب الذي يرمي الكرة من الرابية إلى اللاعب الذي يَضرِبها بالمضرب، وإرسولا تَقصِد بهذه التسمية ما فعله راوي القِصَّة عندما أمسك بالشيء القُماشي الشبيه بالكرة في الغابة.

Twitter: @ketab_n

VII

اليوم التالي كان سيِّئًا..

كان أبي وأمي قد غادَرا قبل أن أستَيقِظ. تسلَّلَت البرودة إلى الجو، واكتسَت السَّماء بلونٍ رماديٍّ كئيب خالٍ من أيِّ جمال. خرجتُ من غُرفة أبويَّ إلى الشُّرفة التي كانت ممتدَّةً بطول غُرفتهما وغُرفتنا، ووقفتُ في الشُّرفة الطويلة ودعوتُ السَّماء أن تكون إرسولا مونكتن قد سَئِمَت هذه اللعبة، وألَّا أراها ثانيةً.

وكانت إرسولا مونكتن تَنتَظِرني أسفل السلالم عندما نزلتُ قائلةً:

- «القواعد نفسها اليوم كما الأمس أيها الرَّامي الصغير. لا يُمكنك مغادَرة نطاق المنزل والحديقة. إذا فعلت، سأحبِسك في غُرفتك بقيَّة اليوم، وعندما يعود والداك سأقول لهما إنك فعلت شيئًا مُقرِفًا».

- «لن يُصَدِّقاك».

قالت بابتسامةٍ عذبة:

Twitter: @ketab_n

- «متأكِّد؟ ماذا لو قلتُ لهما إنك أخرجتَ حمامتك الصغيرة وطرطرتَ على أرضيَّة المطبخ، وإنني مسَحتها وطهَّرتها؟ أعتَقِدُ أنهما سيُصَدِّقاني. سأكونُ مُقْنِعَةً جدًّا».

خرجتُ من المنزل وذهبتُ إلى معملي. أكَلتُ كلَّ الفاكهة التي خبَّأتها هناك في اليوم السَّابق، وبدأتُ أقرأُ في واحدٍ آخَر من كُتُب أمي مغامَرةً اسمها «ساندي تُنجِز المهمَّة»، تحكي عن ساندي التلميذة الجريئة الفقيرة التي أُلحِقَت عن طريق الخطأ بمدرسةٍ راقيةٍ كان الجميع يكرهونها فيها. في النهاية فضحَت حقيقة أستاذة الجغرافيا التي اتَّضحَ أنها بُلشفيَّة دوليَّة اختطفَت أستاذة الجغرافيا الحقيقيَّة وقيَّدَتها. جاء مشهد الذُّروة في تجمُّع المدرسة، عندما نهضَت ساندي بشَجاعةٍ وألقَت خطابًا افتتحَته بقولها: *«أعرِفُ أنه ما كان لي أن أُلحَق بهذه المدرسة. كان مجرَّد خطأ في الأوراق هو الذي أرسلَني إلى هنا وأرسل ساندي التي تتهجَّى اسمها في نهايته بحرف Y وليس IE إلى مدرسة النَّحو والصَّرف في البلدة. لكني أشكُر العناية الإلهيَّة على مجيئي إلى هنا، لأن مِس ستريبلنج ليست مَن تَدَّعي»*.

في النهاية وجدَت ساندي القبول من الذين كانوا يَبغُضونها من قبل.

عادَ أبي من العمل مبكِّرًا، أبكرَ من أيِّ مرَّةٍ رأيته فيها في المنزل في هذه الساعة منذ سنوات.

أرَدتُ أن أُكَلِّمه، لكنه لم يَكُن بمُفرَده لحظةً واحدةً، وجعلتُ أُراقِبهما من فوق فرع شجرتي الزَّان.

في البداية اصطحَب إرسولا مونكتن في جولةٍ حول الحدائق،

Twitter: @ketab_n

ليُريها بفخرٍ شُجيرات الورد والكَشمَش الأسود وأشجار الكرز وزهور الأزاليا، كأن له أيَّ فضلٍ عليها، كأنها لم تُزرَع في مكانها وتتلقَّى الرعاية من مستر وولِري طوال خمسين عامًا قبل أن نشتري المنزل أصلًا.

كانت تضحك على جميع دعاباته، ولم أستطِع أن أسمع ما يقوله، لكني كنتُ أرى الابتسامة المعوجَّة التي تعتلي وجهه عندما يَعرِف أنه يقول شيئًا طريفًا.

كانت واقفةً على مقربةٍ شديدةٍ منه، وأحيانًا ما كان يُريح يده على كتفها بأسلوبٍ ودود. أقلقَني أنه يقف على هذا القُرب منها. إنه لا يدري ماذا تكون. إنها وحش، وهو يحسب أنها مُجرَّد إنسانةٍ طبيعيَّةٍ ويتعامَل معها بلُطف. كانت ترتدي ملابس مختلفةً اليوم: تنُّورة رماديَّة من النوع الذي يُسَمُّونه ميدي مع بلوزة ورديَّة.

لو كنتُ قد رأيتُ أبي يمشي في الحديقة في أيِّ يومٍ آخَر، لكنتُ قد ركَضتُ إليه، لكن ليس في ذلك اليوم. كنتُ خائفًا من أن يغضب، أو أن تقول إرسولا مونكتن شيئًا يُغضِبه مني.

كان يُرعِبني عندما يغضب، إذ يتضرَّج وجهه النحيل جدًّا (والأنيس عادةً) باللون الأحمر، وكان يَزعَق، يَزعَق باهتياجٍ بصوتٍ عالٍ كان يشلُّني في مكاني حرفيًّا ويُعجِزني عن التفكير.

لم يكن يَضرِبني، ولم يكن يؤمن بالضَّرب. كان يحكي لنا كيف أن أباه كان يَضرِبه، وكيف كانت أُمُّه تُطارِده بالمكنسة، وكيف أنه أفضل من أن يفعل ذلك. عندما كان يغضب بما فيه الكفاية لأن يَزعَق في وجهي، كان يُذَكِّرني أحيانًا بأنه لا يَضرِبني، كأني به يُريدني

Twitter: @ketab_n

أن أشعُر بالامتنان لهذا. في قِصَص المدرسة التي قرأتها كانت إساءة الأدب تُفضي غالبًا إلى الضَّرب بالعصا أو الشِّبشِب، ثم تُنسى وتُغتَفَر، وكنتُ أحيانًا أحسدُ أولئك الأطفال الخياليِّين على نظافة حياتهم.

لم أرغب في الاقتراب من إرسولا مونكتن، إذ لم أكُن أشاءُ المُخاطَرة بأن يَغضَب أبي مني.

تساءَلتُ إن كان الوقت مواتيًا لأن أُغادِر المكان، أن أتَّجه إلى أسفل الدَّرب، لكني كنتُ متأكِّدًا من أني إذا فعلتُ ذلك، سأرفعُ عينيَّ لأرى وجه أبي الحانِق إلى جانِب وجه إرسولا مونكتن الجميل المُنتَصِر.

راقَبتهما ببساطةٍ من مكاني فوق فرع شجرة الزَّان الضخم، وعندما غابا بعيدًا عن نظري وراء شُجيرات الأزاليا تسلَّقتُ السُّلَّم المصنوع من الحبال نزولًا، ودخَلتُ المنزل وصعدتُ إلى الشُّرفة وراقَبتهما من هناك. كان اليوم غائمًا، لكن زهور النَّرجس البرِّي الصفراء كالزبدة كانت في كلِّ مكان، وزهور النَّرجس غزيرة وفيرة ببتلاتها الخارِجيَّة باهتة اللون وأبواقها ذات اللون البرتقالي الداكِن. اقتطَف أبي باقةً من النَّرجس وأعطاها لإرسولا مونكتن التي ضَحِكَت وقالت شيئًا، ثم انحنَت كما تفعل السيِّدات في البلاط الملكي، فحنَى هو ظهره بدوره وقال شيئًا أضحكَها، وخطرَ لي أنه غالبًا قد نَصَّب نفسه فارِسها ذا الدِّرع اللامعة أو شيئًا من هذا القبيل.

أرَدتُ أن أصيح مناديًا عليه، أن أُحَذِّره من أنه يهدي الزهور لوحش، لكني لم أفعل، وظلَلتُ واقفًا فقط في الشُّرفة أُراقِبهما، ولم يرفع أيهما عينيه إلى أعلى، ولم يرياني.

Twitter: @ketab_n

كنتُ قد تعلَّمتُ من كتابي عن الأساطير الإغريقيَّة أن زهرة النَّرجس قد سُمِّيَت على اسم شابٍّ شديد الوسامة لدرجة أنه وقع في غرام نفسه، وعندما رأى انعكاسه في الماء لم يَستَطِع أن يُفارِقه، وفي النهاية مات، فاضطرَّت الآلهة لتحويله إلى زهرة. تخيَّلتُ في عقلي عندما قرأتُ هذا أن النَّرجس لا بُد وأن تكون أجمل زهرةٍ في العالم على الإطلاق، وشعرتُ بخيبة الأمل لمَّا عَرِفتُ أنها مجرَّد زهرة نرجسٍ برِّي أقل إثارة للإعجاب.

خرجَت أختي من المنزل وذهبَت إليهما، ورفعَها أبي وأرجحَها في الهواء، ثم عاد ثلاثتهم إلى الداخِل معًا، أبي وأختي متعلِّقةٌ بعُنُقه، وإرسولا مونكتن وذراعاها مليئتان بالزهور الصفراء والبيضاء.

وراقَبتهم.. راقَبتُ يد أبي الحُرَّة، اليد التي لا يحمل بها أختي، تَنزَلِق إلى أسفل وتستريح بشكلٍ عَرضي -تَمَلُّكِي- على التكويرة البارزة من تحت تنُّورة إرسولا مونكتن.

كانت ردَّة فِعلي لتَختَلِف في الوقت الحالي، لكني لا أعتَقِدُ أني وجَدتُ أيَّ معنىً لذلك حينئذٍ على الإطلاق. لقد كنتُ في السابعة.

دخلتُ متسلِّقًا من نافذة غُرفة نومي، التي يَسهُل بلوغها من الشُّرفة، ونزلتُ على سريري حيث قرأتُ كتابًا عن فتاةٍ بقيت في جُزُر القنال وتحدَّت النازيِّين لأنها رفضت التخلِّي عن فَرَسها القزم.

وبينما أقرأُ فكَّرتُ في هذا: *إرسولا مونكتن لا تستطيع سَجني هنا إلى الأبد، فعما قريب -خلال أيامٍ قليلةٍ على الأكثر- سيَأخُذني أحدهم إلى البلدة، أو بعيدًا عن هنا، وحينها سأذهبُ إلى المَزرعة في أسفل الدَّرب، وسأُخبِرِ لتِي هِمبستوك بالذي فعلته.*

Twitter: @ketab_n

ثم إنني فكَّرتُ: وماذا لو كان كُلّ ما تحتاجه إرسولا مونكتن هو أيام قليلة؟

وأخافَني هذا الخاطِر..

أعدَّت إرسولا مونكتن رغيف اللحم للعشاء في ذلك المساء، ورفَضتُ أن آكُله. كنتُ مُصِرًّا على ألَّا آكُل شيئًا صنعَته أو طبخَته أو مسَّته.

لم يَرُق هذا لأبي، وقلتُ له:

- «لكني لا أريده. لستُ أشعُرُ بالجوع».

كنا في يوم الأربعاء، وكانت أمي تحضر اجتماعها في مجلس القرية المجاورة على الطَّريق، من أجل جَمْع النقود كي يستطيع سُكَّان أفريقيا الذين يحتاجون الماء أن يَحفُروا الآبار. كانت لديها مُلصَقات ستُعَلِّقها، ورسوم بيانيَّة كذلك، وصُوَر لأناسٍ مبتسمين.

إلى مائدة العشاء جلسَت أختي وأبي وإرسولا مونكتن، وأنا..

قال أبي:

- «إنه مفيد، مفيد لك ولذيذ، ونحن لا نُبَدِّد الطعام في هذا المنزل».

- «قلتُ إني لستُ جائعًا».

كنتُ أكذِبُ، وكنتُ أتضوَّرُ جوعًا لدرجةٍ آلمَتني.

- «جَرِّب قضمةً واحدةً. إنه طَبقك المفضَّل، رغيف اللحم مع البطاطس المهروسة وصلصة المَرَق. أنت تُحِب هذه الأصناف».

Twitter: @ketab_n

كانت هناك مائدة للأطفال في المطبخ نَأكُل عليها عندما يكون لدى أبويَّ زُوَّار من أصدقائهما، أو عندما نَأكُل في وقتٍ متأخِّر. لكننا كنا جالِسَيْن الليلة إلى مائدة الكِبار. كنتُ أُفَضِّل مائدة الأطفال في الحقيقة، إذ كنتُ أشعُرُ بأنني خفيٌّ هناك، ولا أحد كان يُشاهِدني وأنا آكُلُ.

جلسَت إرسولا مونكتن إلى جوار أبي وحدَّقَت فيَّ ببسمةٍ صغيرةٍ في زاوية فمها.

كنتُ أعرِفُ أن عليَّ أن ألزَم الصَّمت، أن أظَلَّ ساكِتًا عابِسًا، لكني لم أستطِع مَنْعَ نفسي، وكان يجب أن أُخبِر أبي لِمَ لا أريدُ أن آكُلُ.

قلتُ له:

- «لن آكُل شيئًا أعدَّته هي. أنا لا أُحِبُّها».

قال أبي:

- «ستَأكُل طعامك. ستُجَرِّبه على الأقل، وستَعتَذِر لِمِس مونكتن».

- «لن أفعل».

- «ليس من الضروري أن يفعل»، قالتها إرسولا مونكتن بتعاطُف، ونظرَت إليَّ، وابتسمَت. لا أحسبُ أن الشخصين الآخرَين الجالسين إلى المائدة قد لاحَظا أنها كانت تَبتَسِم باستمتاعٍ، أو أن مُحَيَّاها لم يَكُن يحوي أيَّ تعاطُفٍ حقيقيٍّ إطلاقًا، ولا ابتسامتها، ولا قُماش عينيها العَفِن.

قال أبي بنبرةٍ أعلى بعض الشيء ووجهٍ أكثر حُمرةً بعض الشيء:

Twitter: @ketab_n

- «أخشى أن عليه أن يفعل. لن أسمح له بأن يتكلَّم عنك بهذه الوقاحة».

ولي قال:

- «أعطِني سببًا واحدًا مُقنِعًا -مُجرَّد سببٍ واحدٍ مُقنِع- لعدم اعتذارك ولرَفضِك أن تَأكُل الطعام الجميل الذي أعدَّته إرسولا لنا».

لم أكن أجيد الكَذِب.. وأخبَرته..

- «لأنها ليست بَشَرِيَّةً. إنها وحش. إنها.. (ماذا كان الاسم الذي تُطلِقه عائلة هِمبستوك على الأشياء من نوعها؟) .. إنها برغوثة!».

كان خَدَّا أبي مُتَّقِدَيْن بالأحمر الآن، وشفتاه مزمومتين، وقال:

- «إلى الخارِج، في الردهة، الآن».

غاصَ قلبي في داخِلي، ونزلتُ من كُرسيَّ وتبعته إلى الرُّواق. كانت الردهة مُظلِمةً، والضوء الوحيد كان يجيء من المطبخ عبر لوحٍ من الزجاج الشَّفَّاف فوق الباب.

نظرَ إليَّ أبي وقال:

- «ستعود إلى المطبخ، وستَعتَذِر لمِس مونكتن، وستَأكُل طَبَق طعامك، ثم بهدوءٍ وأدبٍ ستَخلُد إلى فِراشك مباشرةً».

قلت له:

- «لا، لن أفعل».

واندفعتُ جاريًا في الردهة ودُرْتُ حول الرُّكن، وركَضتُ أعلى السلالم ضاربًا إياها بقدميَّ بعُنف. لم يكن لديَّ شَكٌّ في أن

Twitter: @ketab_n

أبي سيلحق بي. كان ضِعف حجمي، وسريع الحركة، لكني لم أكُن سأجري لمسافةٍ طويلة. كانت هناك غُرفة واحدة في المنزل يُمكنني أن أوصِدها، وإلى هناك كنتُ مُتَّجِهًا، يسارًا عِند أعلى السلالم وبطول الرُّواق إلى نهايته. بلَغتُ الحمَّام قبل أبي، وصفَقتُ الباب وأغلَقتُ المزلاج الفِضِّي.

لكن أبي لم يُطارِدني. لعلَّه ظَنَّ أن مُطارَدته لطفلٍ تهين كرامته، لكن بَعد لحظاتٍ قليلةٍ سمعتُ قبضته وهي تَقرَع الباب، ثم صوته يقول:

- «افتح الباب».

لم أقُل شيئًا، وجلستُ على مقعد المرحاض المغطَّى بغطاءٍ من النسيج الموبَّر، وكرهتُ أبي بقَدرٍ يدنو من كراهيتي لإرسولا مونكتن.

هوَت دقَّة أخرى أعنف على الباب، وصاح أبي بصوتٍ عالٍ بما يكفي لأن أسمعه عَبر الباب:

- «إذا لم تفتح هذا الباب سأُحَطِّمه».

هل يستطيع أن يفعل ذلك؟ لم أكُن أدري. كان الباب موصَدًا، والأبواب الموصَدة تَمنَع الناس من الدخول. الباب الموصَد يعني أنك في الداخِل، وعندما يرغب أحدهم في دخول الحمَّام سيَهِزُّ الباب ولن يَنفَتِح، فيقول: «آسف!»، أو يصيح: «هل ستتأخَّر؟»، و..

وانفجَر الباب إلى الداخِل. تدلَّى المزلاج الفِضِّي الصغير من إطار الباب ملويًّا مُحَطَّمًا، ووقفَ أبي في مدخل الحمَّام وقد ملأه بجسده، عيناه مُتَّسِعتان عن آخِرهما وبيضاوان، ووجنتاه مُضطَرِمتان بالثَّورة.

Twitter: @ketab_n

قال:

- «حسنٌ»، وكان هذا كلَّ ما قاله، لكن يده قَبضَت على ذراعي اليُسرى من أعلى بقُوَّةٍ لم أكُن أستطيع التملُّص منها أبدًا. تساءَلتُ عما سيفعله الآن. هل سيَضرِبني أخيرًا؟ أم يُرسِلني إلى غُرفتي؟ أم يَزعَق في وجهي بصوتٍ مُدَوٍّ فأتمنَّى أن أموت؟

لكنه لم يفعل أيًّا من تلك الأشياء..

شَدَّني أبي إلى حوض الاستحمام، ومال وثَبَّتَ السِّدادة المطَّاطيَّة البيضاء في البالوعة، ثم فتحَ الصنبور البارد، ليَندَفِع منه الماء ويتناثَر على القيشاني الأبيض، وببطءٍ وثباتٍ بدأ الماء يملأ الحوض.

وجرى الماء بصوتٍ صاخِب..

التفتَ أبي إلى الباب المفتوح وقال لإرسولا مونكتن:

- «يُمكنني التعامُل مع هذا الأمر».

كانت واقفةً في المدخل مُمسِكةً بيد أختي، وبدَت رقيقةً قَلِقَةً، لكن الانتصار كان لائحًا في عينيها.

قال أبي:

- «أغلِقي الباب».

بدأت أختي تَنشج بأنفاسٍ متلاحقة، لكن إرسولا مونكتن أغلقَت الباب قَدر المستطاع، لأن واحدةً من المُفَصَّلات لم تَكُن ثابتةً في مكانها، ومنعَ المزلاج المكسور الباب من أن يَنغَلِق إلى آخِره.

ولم يَعُد هناك إلَّاي وأبي..

Twitter: @ketab_n

كانت وجنتاه قد تحوَّلتا من الأحمر إلى الأبيض وشفتاه مزمومتين، ولم أكُن أدري ماذا سيفعل، أو لماذا يملأ حوض الاستحمام بالماء، لكني كنتُ خائفًا، خائفًا للغاية.

قلتُ له:

- «سأعتَذِرُ، سأقول إنني آسف. لم أعنِ ما قلتُ. إنها ليست وحشًا. إنها.. إنها جميلة».

لم يَنبس ببنتِ شَفَة. كان الحوض قد امتلأ، وأغلَق أبي صنبور الماء البارد.

ثم حملَني بسرعةٍ وقد وضعَ يديه الضخمتين تحت إِبْطَيَّ، ورفعَني بسهولةٍ تامَّة كأن لا وزن لي على الإطلاق.

نظرتُ إليه وتعبير الإصرار على وجهه. كان قد خلعَ سُترته قبل أن يصعد، وكان يرتدي تحتها قميصًا أزرقَ فاتحًا وربطة عُنُقٍ ذات لونٍ أحمرَ داكِنٍ من الصُّوف المُزَركَش. والآن خلعَ ساعته ذات السَّير القابل للتمدُّد، وأسقَطَها على إفريز النافذة.

ثم إنني أدرَكتُ ما سيفعله، وأخَذتُ أركُلُ بقدميَّ، وضربته بذراعيَّ محاولًا التملُّص، من دون أن يكون لهذا أو ذاك أيُّ تأثيرٍ من أيِّ نوعٍ وهو يغطّسني في الماء البارد.

كنتُ مرعوبًا، لكنه كان في البداية الرُّعب الناشئ عن حدوث الأشياء عكس نظامها الثَّابت. كنتُ أرتدي ملابسي كاملةً، وهذا خطأ.. وكنتُ أرتدي صندلي، وهذا خطأ.. وكان الماء في الحوض باردًا، باردًا جدًّا وخطأً جدًّا.. كان هذا أول خاطِرٍ راوَدني وهو يَدفَعني داخِل الماء، ثم إنه دفعَني أكثر ليَغمُر رأسي وكتفيَّ تحت الماء البارد، وغيَّرَ الرُّعب طبيعته، وكانت الفِكرة في رأسي أنني *سوف أموت*.

Twitter: @ketab_n

وإذ فكَّرتُ في هذا، بِتُّ مُصِرًّا على أن أحيا..

لوَّحتُ بيديَّ مُحاوِلًا العثور على شيءٍ أتمسَّكُ به، لكن لم يَكُن هناك ما أُمسِكه باستثناء الجوانب الزَّلِقَة لحوض الاستحمام الذي تحمَّمتُ فيه طوال العامين الماضيين، (وكنتُ أقرأُ كُتُبي في ذلك الحوض، وكان واحدًا من أماكني الآمنة، والآن لم يَكُن لديَّ شَكٌّ في أنني سأموتُ فيه).

فتحتُ عينيَّ تحت الماء، ورأيتها متدليةً هناك أمام وجهي، فُرصتي في الحياة.. وتشبَّثتُ بربطة عُنُق أبي بيديَّ معًا.

أمسَكتُ بها بقُوَّة، وبينما يدفَعني هو إلى أسفل سحبتُ نفسي إلى أعلى قابِضًا على الحياة ذاتها، ودفَعتُ وجهي إلى خارِج الماء القارس وأنا متمسِّكٌ بربطة العُنُق بشِدَّةٍ جعلته لا يستطيع دَفْعَ رأسي وكتفيَّ تحت الماء مرَّة أخرى من دون أن يَنغَمِس فيه بدوره.

كان وجهي خارِج الماء الآن، ودفنتُ أسناني في ربطة العُنُق تحت العُقدة مباشرةً.

تصارَعنا، وكنتُ مبتلًّا عن آخِري، وشعرتُ بشيءٍ من السرور لأنه ابتلَّ بدوره وقد التصَق قميصه الأزرق بجسده الضَّخم.

والآن دفعَني إلى أسفلٍ من جديد، لكن الخوف من الموت يَمُدُّنا بالقُوَّة. كانت يداي وأسناني ككَلَّاباتٍ مغروسةٍ في ربطة عُنُقه، ولم يَكُن يستطيع إفلاتها دون أن يَضرِبني.

وأبي لم يكن يَضرِبني..

اعتدلَ أبي، وانسحَبتُ مع الحركة إلى أعلى مبتلًّا مُدَمدِمًا غاضبًا باكيًا خائفًا، وتخلَّيتُ عن ربطة عُنُقه بأسناني من دون أن تَترُكها يداي.

Twitter: @ketab_n

قال:

- «لقد أفسدتَ ربطة عُنُقي. اترُكها».

كانت العُقدة قد صارت بحجم حبَّة البازلاء، وبِطانتها تتدلَّى مبتلَّةً خارِجها، وقال:

- «يَجدُر بك أن تُسَرَّ لأن أُمَّك ليست هنا».

تَرَكتُ ربطة عُنُقه، وهَبطتُ على أرضيَّة الحمَّام المفروشة بالمشمَّع الذي امتلأ ببِرَك الماء الصغيرة، وتراجَعتُ خطوةً إلى الخلف صوب المرحاض، ونظرَ أبي إليَّ وقال:

- «اذهب إلى غُرفتك. لا أريدُ أن أراك ثانيةً الليلة».

وذهَبتُ إلى غُرفتي.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

VIII

كنتُ أرتعِشُ بعُنفٍ مُزَلزِلٍ ومبتلًّا من قِمَّة رأسي إلى أخمص قدميَّ وأشعرُ ببرودةٍ رهيبة، كأن دِفء دمي قد سُلِبَ مني. التصقَت الثياب المبتلَّة بلحمي وأخذَت تَقطُر الماء البارد على الأرض، ومع كلِّ خطوةٍ خطوتها كان صندلي يُصدِر أصوات تخويضٍ هزليَّة والماء يَنزُّ من الثُّقوب الصغيرة الشبيهة بالماسات في وجه الصندل.

خلَعتُ ملابسي كلها وتركتها في كومةٍ مشبَّعةٍ بالماء على القرميد عِند مدفأة الغاز حيث بدأت تُكَوِّن بِركةً صغيرةً، وأخَذتُ علبة الثِّقاب من فوق رَفِّ المدفأة، وأدرتُ مفتاح الغاز وأشعَلتُ المدفأة.

(إنني أُحَدِّقُ الآن في بِركة، أتذكَّر أشياءَ من العسير تصديقها، فلِمَ أجدُ أن أصعب ما يُمكنني تصديقه وأنا أتذكَّر، أن بتّا في الخامسة وولدًا في السابعة كانت لديهما مدفأة غازٍ في غُرفتهما؟).

لم تَكُن هناك مناشف في الغُرفة، ووقَفتُ هناك مبتلًّا أتساءلُ كيف أُجَفِّفُ نفسي. أخَذتُ غطاء فِراشي الرَّقيق وجفَّفتُ نفسي به، ثم ارتدَيتُ منامتي. كانت مصنوعةً من النيلون الأحمر، لامعةً ومخطَّطة،

Twitter: @ketab_n

مع أثر حرقٍ أسودَ لَذْنٍ على الكُمِّ الأيسر حيث كنتُ قد مِلْتُ قريبًا من مدفأة الغاز ذات مرَّةٍ واشتعَل كُمُّ المنامة، وإن لم تَحترِق ذراعي بمعجزةٍ ما.

كان هناك معطف منزلي أكاد لا أستَخدِمه تقريبًا معلَّق على ظَهر باب غُرفة النوم، ظِلُّه مُلقىً بشكلٍ مثاليٍّ يَجعَله يرمي ظلالًا كابوسيَّة على الحائط عندما يكون الرُّواق مضاءً والباب مفتوحًا. هكذا ارتدَيته فوق المنامة.

انفتَح باب الغُرفة، ودخلَت أختي لتَأخُذ ثوب نومها من تحت وسادتها، وقالت:

- «كنتَ سيِّئ السلوك لدرجة أنه غير مسموحٍ لي أن أكون في الغُرفة نفسها معك. سأنامُ في فِراش ماما وبابا الليلة، وبابا يقول إنني أستطيع مُشاهَدة التليفزيون!».

كان هناك تليفزيون قديم في خزانةٍ بُنِّيَّةٍ من الخشب في رُكن غُرفة نوم أبويَّ لا يُفتَح تقريبًا، لأن الهوائي كان لا يُعتمَد عليه، والصورة بالأبيض والأسود المشوَّشة كانت كثيرًا ما تسري في شريطٍ بطيء، بحيث تختفي رؤوس الناس أسفل الشاشة بينما تَهبِط أرجُلهم بشكلٍ يوحي بالمهابة من أعلى.

قلتُ لها:

- «لا أبالي».

قالت أختي بنبرة رضا في صوتها:

- «بابا قال إنك أفسدت ربطة عُنُقه، كما أنه مبتلٌّ تمامًا».

Twitter: @ketab_n

قالت إرسولا مونكتن الواقفة عِند باب الغُرفة:

- «نحن لا نتحدَّث إليه، ولن نتحدَّث إليه مرَّة أخرى حتى يُسمَح له بأن ينضمَّ للعائلة من جديد».

خرجَت أختي متَّجهةً إلى الغُرفة المجاوِرة، غُرفة أبويَّ، بينما قلتُ لإرسولا مونكتن:

- «أنتِ لستِ من عائلتي. عندما تعود ماما سأحكي لها ما فعله بابا».

- «إنها لن تعود قبل ساعتين أخريين. وما الذي ستقوله لها ومن شأنه أن يُحدِث أيَّ فارِقٍ أصلًا؟ إنها تُسانِد أباك في كلِّ شيء، أليس كذلك؟».

كان هذا صحيحًا، ودائمًا ما كان الاثنان يُشَكِّلان جبهةً موحَّدةً.

قالت إرسولا مونكتن:

- «لا تُعارِضني. إن لديَّ أشياءَ أفعلها هنا، وأنت تَعتَرِض طريقي. المرَّة القادمة سيكون العقاب أسوأ بكثير. المرَّة القادمة سأحبسك في العِلِّيَّة».

- «أنا لستُ خائفًا منك»، قُلتها لها وأنا أشعرُ بخوفٍ شديدٍ منها، خوفٍ لم يُشعِرني به شيء آخَر مُطلقًا.

قالت باسِمةً:

- «الجو حارٌّ هنا».

وتوجَّهَت إلى مدفأة الغاز ومدَّت يدها وأطفأَتها، وأخذَت الثِّقاب من فوق الرَّف.

Twitter: @ketab_n

قلتُ:

- «ما زلتِ مجرَّد برغوثةٍ لا أكثر».

تلاشَت ابتسامتها، ومدَّت يدها إلى الأسكفة فوق الباب، التي تعلو فوق متناوَل أيِّ طفل، والتقطَت المفتاح الموضوع هناك، ثم غادرَت الغُرفة وأغلقَت الباب، وسمعتُ صوت المفتاح وهو يدور وتكَّة القِفل وهو يُوصَد.

كنتُ أسمعُ أصوات التليفزيون القادمة من الغُرفة المجاوِرة، وسمعتُ باب الرُّواق وهو يُغلَق ليَفصِل غُرفتيِّ النوم عن بقيَّة المنزل، وعَرِفتُ أن إرسولا مونكتن في طريقها إلى الطابق السُّفلي. عمدتُ إلى القِفل واختلَستُ النَّظر منه. كنتُ قد تعلَّمت من كتابٍ أني أستطيع استخدام قلمِ رصاص لأدفع مفتاحًا عبر ثُقب مفتاحٍ ليَسقُط على فرخٍ من الورق موضوعٍ تحت الباب، وبهذا أُحَرِّر نفسي.. لكن ثُقب المفتاح كان خاليًا.

عندها بكيتُ.. كنتُ في تلك الغُرفة أشعُرُ بالبرد ولا يزال جسدي رَطْبًا، وبكيتُ من الألم والغضب والرُّعب.. بكيتُ شاعِرًا بالأمان لمعرفتي أن لا أحد سيَدخُل ويراني، أن لا أحد سيُضايِقني لبكائي كما يُضايِقون أيَّ غلامٍ في مدرستي كان بعدم الحكمة الكافي لأن يَستَسلِم للدُّموع.

سمعتُ الطقطقة الخافتة لقطرات المطر على زجاج نافذة الغُرفة، لكن حتى ذلك الصوت لم يكن مصدر بهجةٍ لي.

بكيتُ حتى جفَّت الدُّموع، ثم عببتُ الهواء بشراهة، وفكَّرتُ أن إرسولا مونكتن - وحش الأقمشة المُرَفْرِف، الدُّودة، البرغوثة - سوف تنال مني إذا حاوَلتُ مغادَرة أرضنا. كنتُ أعرِفُ ذلك.

Twitter: @ketab_n

لكن إرسولا مونكتن حبسَتني في غُرفتي، ولن تتوقَّع أن أُغادِرها الآن.

ولعلَّها - إذا حالفَني الحَظُّ - تكون ملهيَّةً بشيءٍ ما.

فتَحتُ نافذة غُرفة النوم وأصغَيتُ لأصوات الليل. كان المطر الخفيف يصنع صوتًا يكاد يكون حفيفًا، وكانت ليلةً باردةً وأنا أشعُرُ بالبرد فِعلًا. كانت أختي في الغُرفة المجاوِرة تُشاهِد شيئًا في التليفزيون ولن تسمعني.

ذهَبتُ إلى الباب وأطفَأتُ النور، ثم قطَعتُ الغُرفة المُظلِمة وصَعِدتُ على الفِراش مجدَّدًا وأنا أُفكِّرُ: *أنا في فِراشي. أنا مستلقٍ في فِراشي أُفكِّر كم أنا مُنزَعِج، وبعد قليلٍ سأغيبُ في النوم. أنا في فِراشي، وأعرِفُ أنها فازَت، وإذا تفقَّدَتني ستَجِدني في فِراشي نائمًا. أنا في فِراشي وحان الوقت، لأنام الآن.. لا أستطيع إبقاء عينيَّ مفتوحتين حتى. أنا مُستَغرِقٌ في نومٍ عميق، مُستَغرِقٌ في نومٍ عميقٍ في فِراشي..*

ووقفتُ على الفِراش وتسلَّقتُ النافذة إلى الخارِج، وتعلَّقتُ للحظةٍ ثم تركتُ نفسي أسقط بهدوءٍ قَدر الإمكان في الشُّرفة.

كان هذا الجزء السَّهل..

خلال نشأتي استقَيتُ أشياءَ كثيرةً من الكُتُب، ومنها تعلَّمتُ معظم ما عَرِفته عما يفعله الناس وعن الأسلوب الذي أتصرَّفُ به، فكانت بمثابة المُعلِّم والمُرشِد لي. في الكُتُب كان الأولاد يتسلَّقون الأشجار، فتسلَّقتُ الأشجار، أحيانًا إلى ارتفاعاتٍ عاليةٍ جدًّا وإن صاحَبني الشعور بالخوف من السقوط دائمًا. في الكُتُب كانوا يتسلَّقون أنابيب الصَّرف صعودًا ونزولًا لدخول المنازل والخروج منها، فكنتُ أتسلَّقُ

Twitter: @ketab_n

أنابيب الصَّرف بدوري. كانت تلك أنابيب الصَّرف القديمة الثقيلة التي تُصنَع من الحديد وتُثبَّت بالقرميد، وليس أنابيب اليوم الخفيفة المصنوعة من البلاستيك.

لم يَكُن قد سبقَ لي أن نزلتُ على أنبوب صرفٍ في الظَّلام أو أثناء نزول المطر، لكني كنتُ أعرِفُ أماكن البروزات فيها، وكنتُ أعرِفُ كذلك أن أكبر تحدٍّ أمامي لا يتمثَّل في السقوط مسافة عشرين قدمًا في حوض الزهور المبتل، بل إن الأنبوب الذي تعلَّقتُ به كان يَمُرُّ بغُرفة التليفزيون في الطابق السُّفلي، حيث كانت إرسولا مونكتن تُشاهِد التليفزيون مع أبي لا ريب.

حاوَلتُ ألَّا أُفكِّر..

اجتَزتُ السُّور القرميدي الذي يَحُدُّ الشُّرفة، ومدَدتُ يدي حتى شعرتُ بالأنبوب الحديدي البارد الزَّلِق بفِعل المطر، فتمسَّكتُ به ثم أخَذتُ خطوةً واحدةً كبيرةً نحوه جاعلًا قدميَّ الحافيتين تستقرَّان على المِلزَم المعدني الذي يحيط بالأنبوب ويُثبِّته بإحكامٍ إلى القرميد.

وبدأتُ أنزلُ خطوةً خطوةً متخيِّلًا أنني باتمان، متخيِّلًا نفسي كمئة من أبطال وبطلات قِصَص المدارس الرومانسيَّة، ثم تذكَّرتُ نفسي فتخيَّلتُ أني قطرة ماءٍ على الجِدار، أني قالبٌ من القرميد، أني شجرة. *أنا في فراشي*. تخيَّلتُ أني لم أكن هناك وضوء غُرفة التليفزيون يتدفَّق أسفلي من النافذة مع عدم إسدال الستائر، جاعلًا المطر الذي يَسقُط أمام النافذة يبدو كسلسلةٍ من الشرائط والخطوط اللامعة.

- لا تَنظُرا ناحيتي.. لا تَنظُرا من النافذة..

انخفَضتُ في بُطءٍ حَذِر. في المعتاد كنتُ لأخطو من الأنبوب إلى إفريز نافذة غُرفة التليفزيون الخارِجي، لكن ذلك كان غير واردٍ

Twitter: @ketab_n

الآن إطلاقًا. باحتراسٍ انخفَضتُ بضع بوصاتٍ أخرى، وانحنَيتُ أكثر وسط الظِّلال بعيدًا عن الضوء، واختلَستُ نظرةً خائفةً داخِل الغُرفة متوقِّعًا أن أرى أبي وإرسولا مونكتن يُحملِقان فيَّ بدورهما.

لكن الغُرفة كانت خاليةً..

كانت الأنوار مضاءةً، والتليفزيون مفتوحًا كذلك، لكن لا أحد كان جالسًا على الأريكة، وكان باب الردهة السُّفليَّة مفتوحًا.

أخَذتُ خطوةً سهلةً إلى أسفل لأَهبِط على إفريز النافذة، آملًا رغم يأسي ألَّا يعود أيهما إلى الغُرفة ويراني، ثم تَرَكتُ نفسي أسقط من الإفريز إلى حوض الزهور، وشعرتُ بنعومة التُّربة المبتلَّة على قدميَّ.

كنتُ سأجري، فقط أجري وأَفرُّ، لكن كان هناك ضوء يأتي من غُرفة الضيوف التي لم نَكُن نحن الأطفال نَدخُلها أبدًا، فالغُرفة المغطَّاة بألواح السنديان كانت مخصَّصةً لأفضل الزُّوار فقط وللمناسَبات الخاصَّة.

كانت الستائر المصنوعة من المخمل الأخضر والمبطَّنة بالأبيض مُسْدَلَةً، والضوء الذي يتسلَّل من خَصاصها حيث لم تَكُن مغلَقةً حتى النهاية كان ذهبيًّا رقيقًا.

تحرَّكتُ نحو النافذة، ولم تَكُن الستائر مغلَقةً عن آخِرها، فاستطَعتُ أن أرى ما في داخِل الغُرفة، أن أرى ما أمامي مباشرةً.

لم أكُن متأكِّدًا من طبيعة المنظر الذي أراه بالتحديد. كان أبي يضغط إرسولا مونكتن إلى جانِب المدفأة الكبيرة في الجِدار البعيد، وكان يوليني ظَهره، وكذلك هي وقد ضغطَت بيديها على رَفِّ المدفأة

Twitter: @ketab_n

العالي الضخم. كان يَحتَضِنها من الخلف، بينما كانت تنُّورتها الميدي مسحوبةً إلى أعلى حول خَصرها.

لم أستَوعِب ما كانا يفعلانه بالضبط، ولم أكُن أهتمُّ حقًّا في تلك اللحظة. كلُّ ما كان يَهُمُّ أن إرسولا مونكتن كانت تَصُبُّ اهتمامها على شيءٍ آخَر عداي.. وابتعَدتُ عن فُرجة الستائر والضوء والمنزل، وفرَرتُ حافي القدمين في الظُّلمة المطيرة.

لم يَكُن الظَّلام دامِسًا، بل كانت ليلةً غائمةً من النوع الذي يبدو فيه السَّحاب كأنه يَستَجمِع الضوء من أعمدة الإنارة البعيدة والمنازل أسفل الدَّرب، ثم يُلقيه مرَّةً أخرى على الأرض. كنتُ أستطيعُ الرؤية بما يكفي بمجرَّد أن تكيَّفَت عيناي على الظَّلام، ووصلتُ إلى أقصى الحديقة مرورًا بكومة جُذاذات العُشب المستخدَمة كسَمادٍ عُضويٍّ للأرض، ثم نزلت التَّلَّ إلى الدَّرب. طعنَ العُلَّيق والأشواك قدميَّ ووَخَزَا ساقيَّ، لكني واصلتُ العَدْوَ.

اجتَزتُ السُّور المعدني الواطئ إلى الدَّرب وصرْتُ خارِج أرضنا، وشعرتُ كأن صداعًا لم أكُن أعرِف أني مصابٌ به قد غادَر رأسي بغتةً. في لهفةٍ همستُ: «لِتي؟ لِتي هِمبستوك؟»، وفكَّرتُ: *إنني في فِراشي.. إنني أحلُم بكلِّ هذا.. إنها أحلامٌ جلَيَّةٌ جدًّا.. إنني في فِراشي..* ولم أكن أعتَقِد أن إرسولا مونكتن تُفكِّر فيَّ لحظتها.

فكَّرتُ وأنا أركُضُ في أبي، في ذراعيه اللتين طوَّقتا مُدَبِّرة المنزل التي لم تَكُن كذلك وفمه إذ أخذ يُقَبِّل عُنُقها، ثم إنني رأيتُ وجهه عَبر مياه حوض الاستحمام القارسة وهو يَدفَعني تحتها، والآن لم أعُد خائفًا مما حدثَ في الحمَّام، بل كان منبع خوفي ما يعنيه تقبيل أبي لعُنُق إرسولا مونكتن، إن يديه قد رفعتا تنُّورتها حول خَصرها.

Twitter: @ketab_n

أبواي كانا وحدةً واحدةً لا يَفصِمها شيء، وعلى حين غِرَّةٍ أضحى المُستَقبَل مجهولًا، والآن من الممكن أن يَحدُث أيُّ شيء. لحظتها كان قطار حياتي قد انحرَف عن القضبان وأخذَ يَشُقُّ الحقول قاطِعًا الدَّرب معي.

آلَمَت أحجار الصوَّان التي رُصِفَ بها الدَّرب قدميَّ وأنا أعدو، لكني لم أكتَرِث. كنتُ واثقًا من أن الشيء الذي يدعو نفسه إرسولا مونكتن سرعان ما سيَفرُغ من أبي، ولربما يصعدان إلى الطابق العُلوي ليتفقَّداني معًا، وعندها ستَعرِف أني فرَرتُ وستأتي في أعقابي.

فكَّرتُ: *إذا جاءا ورائي فسيأتيان في سيَّارة.*

بحَثتُ عن فُرجةٍ في سياج الأشجار على جانبي الدَّرب، ولمحتُ سُلَّمًا خشبيًّا فتسلَّقته، واستمرَّيتُ في العَدْوِ عَبر المَرْجِ وقلبي يَنبض كأكبر وأصخب طبلةٍ عرِفَها العالم أو سيَعرِفها، حافي القدمين ومنامتي ومعطفي المنزلي مُشَبَّعان بالماء تحت الرُّكبتين ومُلتَصِقان بساقيَّ. ركَضتُ من دون أن أبالي بروث الأبقار، وكان المَرْجُ أحَنَّ على قدميَّ من صوَّان الدَّرب. الرَّكض على العُشب جعلَني أسعَد، وأشعَرَني بأنني حقيقيٌّ أكثر.

دَوَّى هزيم الرَّعد من ورائي على الرغم من أني لم أرَ بَرقًا يسطع. تسلَّقتُ سورًا معدنيًّا، وغاصَت قدماي في التُّربة الناعمة لحقلٍ محروثٍ حديثًا تعثَّرتُ وأنا أقطعه، وسقَطتُ في غير مرَّة، لكني لم أتوقَّف. سُلَّمٌ آخَر تسلَّقته إلى الحقل التالي الذي لم يَكُن محروثًا هذه المرَّة، وعبَرته مُحافِظًا على قُربي من سياج الأشجار خشية أن أتواجد في الخلاء المكشوف أكثر من اللازم.

Twitter: @ketab_n

سطعَت أضواء سيَّارةٍ على الدَّرب فجأةً فأعمَتني، وتسمَّرتُ في مكاني مُغلِقًا عينيَّ ومُتَخَيِّلًا نفسي نائمًا في سريري. مَرَّت السيَّارة من دون أن تُبطِّئ حركتها، وبنظرةٍ خاطِفةٍ لمحتُ أضواءها الخلفيَّة الحمراء وهي تَبتَعِد عني. كانت سيَّارةً ڤان بيضاء خطر لي أنها ملك عائلة آندرز.

على أن ذلك جعل الدَّرب يبدو أقلَّ أمنًا، والآن بدَأتُ أقطعُ الدَّرب مبتعدًا. بلَغتُ الحقل التالي، ورأيتُ أن لا شيء يَفصِله عن الحقل الذي كنتُ فيه سوى طولٍ من الأسلاك الرفيعة من السَّهل أن أنحني من تحتها، إذ لم تكن أسلاكًا شائكةً حتى، وهكذا مدَدتُ ذراعي ودفَعتُ واحدًا من الأسلاك العارية إلى أعلى لأُفسِح مكانًا أعتَصِر نفسي من تحته، و..

وكأني لُطِمتُ.. لُطِمتُ بقُوَّةٍ في صدري. تشنَّجت ذراعي حيث أطبَقتُ بها على السِّلك، واشتعلَت راحة يدي وَجَعًا كأني خبَطتُ جِدارًا بعظمة كوعي.

تخلَّيتُ عن السُّور المُكَهرَب وتراجَعتُ مُتَعَثِّرًا إلى الخلف. لم أعُد أستطيع الرَّكض، لكني هرولتُ في الرِّيح والمطر والظَّلام بطول جانِب السُّور مُحاذِرًا أن ألمسه، إلى أن بلَغتُ بوَّابةً ذات خمسة قضبان، فعبرتُ من فوقها وقطَعتُ الحقل مُتَّجِهًا صوب الظُّلمة الأعمق في الطرف البعيد، (وفكَّرتُ أنها أشجار ربما، وغابة)، ولم أقتَرِب أكثر من اللازم من حافَّة الحقل خشية أن يكون هناك سُورٌ مُكَهرَبٌ آخَر يَنتَظِرني.

تردَّدتُ غير متأكِّدٍ من الاتِّجاه الذي أسلُكه بعد ذلك. ثم، وكأنها استجابَت لتساؤلاتي، أضاءت الدُّنيا من حولي للحظةٍ واحدة، وكلُّ ما

Twitter: @ketab_n

كنتُ أحتاجه هو لحظة واحدة من سطوع البَرق؛ ورأيتُ سُلَّمًا خشبيًّا وجريتُ نحوه.

تسلَّقتُ السُّلَّم، وهبطتُ على الجانِب الآخَر في شبكةٍ من نبات القُرَّاص الشائك. عَرِفتُ هذا من الوخز السَّاخن-البارد الذي أحرَقَ كاحليَّ المكشوفين وقدميَّ من أعلى، لكني عُدْتُ أركضُ من جديد، وبأقصى سرعةٍ لديَّ. أملتُ أني ما زلت مُتَّجِهًا صوب مَزرعة هِمبستوك.. لا بُدَّ أنني على الطَّريق الصحيح.. ثم إنني عبرتُ حقلًا آخَر قبل أن أُدرِك أني لم أعُد أدري أين الدَّرب الآن، أو أين أنا نفسي أصلًا. كلُّ ما كنتُ أعلمه أن مَزرعة هِمبستوك تَقَعُ في نهاية الدَّرب، لكني كنتُ تائهًا في حقلٍ مُظلِم، والسُّحُب الرعديَّة دَنَتْ أكثر، والليل باتَ داجيًا جدًّا، والمطر لا يزال يَسقُط فوق رأسي على الرغم من أنه لم يَكُن يَهطل بقُوَّةٍ بَعد، والآن بدأت مُخَيِّلَتي في مَلْءِ الظَّلام بالذِّئاب والأشباح. أرَدتُ أن أكُفَّ عن التخيُّل، عن التفكير، لكني لم أقدِر.

ووراء الذِّئاب، وراء الأشباح والأشجار التي تمشي، كانت إرسولا مونكتن تقول لي إن عصياني لها في المرَّة القادمة سيكون ذا عواقب أوخمَ كثيرًا عليَّ، وإنها ستَحبِسني في العِلِّيَّة.

لم أكُن شُجاعًا. كنتُ أهربُ من كلِّ شيء، وكنتُ باردًا، ومبتلًّا، وضائعًا.

بأعلى صوتي هتفتُ:

- «لِتي! لِتي هِمبستوك! هل من أحد؟!».

وما من مجيب.. ولم أتوقَّع أن تأتيني إجابة..

هدرَ الرَّعد وقَعقَع بزئيرٍ خفيضٍ متواصل كأسدٍ استفزَّه أحدهم

Twitter: @ketab_n

إلى حَدِّ الاهتياج، وأخذَ البَرق يسطع ويومض كمصباح فلورسنت معطوب.

في وميض البَرق استطَعتُ أن أرى أن مساحة الحقل الذي كنتُ فيه تَبلُغ نهايتها بسياجين من الأشجار على الجانِبين ولا وسيلة للمرور منها. لم أرَ بوَّابةً ولا سُلَّمًا غير الذي جِئْتُ من عليه في طرف الحقل البعيد.

ثم سمعتُ شيئًا ما يُطَقطِق..

رفعتُ عينيَّ إلى السَّماء. لقد رأيتُ البَرق في الأفلام على شاشة التليفزيون يسطع كمَذارٍ مُثَلَّمةٍ طويلةٍ تَخترِق السَّحاب، لكن البَرق الذي رأيته حتى الآن بأُمِّ عيني كان مجرَّد وميضٍ أبيضَ يجيء من أعلى كأنه فلاش كاميرا يضيء العالم بنورٍ نابضٍ يجعل كلَّ شيءٍ مرئيًّا.

أمَّا ما رأيته في السَّماء فكان شيئًا مختلفًا..

ولم يَكُن بَرقًا شبيهًا بالمذاري المُثَلَّمة كذلك..

راحَ وجاءَ ذلك البياض الحارِق الضَّارب إلى الزُّرقة في السَّماء.. بَهتَ ثم توهَّجَ، وأضاءَ وهجه ووميضه المَرْجَ مُمَكِّنًا إياي من الرؤية. انهمَر المطر مدرارًا وجلدَ وجهي كالسِّياط، وفي غمضة عينٍ استحال من رذاذٍ إلى شلَّال. خلال ثوانٍ غَرِقَ معطفي المنزلي بالماء تمامًا، لكني في الضوء رأيتُ -أو حَسِبتُ أني رأيتُ- فتحةً في السياج على يميني، وعَمِدتُ إليها مشيًا بأقصى سرعة مشيٍ لديَّ، إذ لم أعُد أستطيع الرَّكض، حقًّا لم أعُد أستطيع، وكلِّي أملٌ أن تَكون الفتحة حقيقيَّة.

رَفرَفَ معطفي المنزلي في الرِّيح العاصفة، وبَثَّ صوت القُماش المُرَفرِف الهلع في نفسي.

Twitter: @ketab_n

لم أرفع ناظريَّ إلى السَّماء، ولم أنظُر ورائي..

لكني كنتُ أرى طرف الحقل القصي، وكان هناك فراغٌ بالفعل في سياج الأشجار، وكنتُ قد بلغته تقريبًا بالفِعل عندما سمعتُ صوتًا يقول:

- «حَسِبتُ أني قلتُ لك أن تَظَلَّ في حُجرتك، والآن أجدك تتسلَّل كبَحَّارٍ غارِق».

استدَرتُ ونظرتُ ورائي ولم أرَ شيئًا على الإطلاق.. لم يَكُن هناك أحد..

ثم إنني نظرتُ إلى أعلى..

الشيء الذي أطلقَ على نفسه اسم إرسولا مونكتن كان مُعَلَّقًا في الهواء على ارتفاع عشرين قدمًا فوقي تقريبًا، ومن ورائها أخذَ البَرق يَزحَف ويومض. لم تكن طائرةً، بل طافية بلا وزنٍ كالبالون، وإن كانت عصفات الرِّيح الحادَّة لم تُحَرِّكها خطوةً واحدةً.

عَوَت الرِّياح وجلدَت وجهي بسياطها، وزأرَ الرَّعد البعيد، وجاشَت رعودٌ أخرى أصغر وبصقَت، وتكلَّمت هي بهدوءٍ، لكني سمعتُ كلَّ كلمةٍ قالتها بوضوحٍ تامٍّ كأنها كانت تَهمِس في أُذُني.

- «آهٍ يا صغيري الحَبُّوب الجميل، أنت في مشكلةٍ كبيرة!».

كانت تَبتَسِم.. وفي حياتي لم أرَ ابتسامةً بهذا الاتِّساع وبروز الأسنان في وجه إنسانٍ من قبل قَطُّ، لكنها لم تَبْدُ راضيةً.

إنني أهربُ منها في قلب الظَّلام منذ.. منذ متى؟ نِصف ساعة؟ ساعة؟ تمنَّيتُ لو أني بقيتُ على الدَّرب ولم أحاول اختصار الطَّريق

Twitter: @ketab_n

عبر الحقول، فإذا فعلتُ ذلك لكنتُ في مَزرعة هِمبستوك الآن، لكني بدلًا من ذلك كنتُ تائهًا واقعًا في الشَّرَك.

انخفضَت إرسولا مونكتن بعض الشيء. بلوزتها الورديَّة كانت مفتوحة وغير مزرَّرة، وكانت ترتدي سوتيانًا أبيضَ. رَفرَفَت تنُّورتها الميدي الطويلة بفِعل الرِّيح كاشفةً عن رَبْلَتَيِّ ساقيها، ولم تَبْدُ مبتلَّةً على الرغم من العاصفة العاتية. ملابسها ووجها وشَعرها.. كلُّ هذا كان جافًّا تمامًا.

كانت تطفو فوقي الآن، والآن مدَّت يديها..

كلُّ حركةٍ قامت بها، كلُّ شيءٍ فعلَته كانت تتغلَّفه البروق المروَّضَة التي ومضَت وتمعَّجَت حولها. انفتحَت أصابعها كلقطةٍ لزهرةٍ في فيلم تُعرَض مُسَرَّعَةً، وأدرَكتُ أنها كانت تعبَث معي، وأدرَكتُ ما أرادَت مني أن أفعله، وكَرِهتُ نفسي لأني لم أثبت في مكاني، لكني فعلتُ ما أرادَت مني أن أفعله: جريتُ.

كنتُ شيئًا صغيرًا تتسلَّى به. كانت تلعَب، تمامًا كما رأيتُ مونستر -القِطَّ البرتقاليَّ الكبير- يلعب بفأر: يَترُكه كي يَهرُب، ثم يَنقَضُّ عليه ويُثبِّته بكَفِّه. لكن الفأر كان يجري مع ذلك، وأنا لم يَكُن لديَّ خيار، وبدوري جريتُ.

جريتُ إلى الفتحة في سياج الأشجار بأقصى سرعةٍ استطعتُ تدبيرها، أتعثَّرُ وأتألَّمُ وأعاني من البلل.

وتردَّد صوتها في أُذُنيَّ وأنا أجري..

- «قلتُ لك إنني سأحبِسك في العِلِّيَّة، أليس كذلك؟ وسوف أفعل. بابا واقعٌ في غرامي الآن، وسيفعل أيَّ شيءٍ أقوله. لعلَّه من الآن

Twitter: @ketab_n

فصاعدًا سيَصعَد السُّلَّم كلَّ ليلةٍ ليجعَلك تَخرُج من العِلِّيَّة. سيجعَلك تنزل من العِلِّيَّة، سيجعَلك تنزل السُّلَّم، وفي كلِّ ليلةٍ سيُغرِقك في الحمَّام، سَيُغْرِقك بالمياه الباردة القارسة. سأجعله يفعلها كلَّ ليلةٍ إلى أن يتملَّكني السأم، ثم سأُخبِره ببساطةٍ أن يُعيدك ويَدفَعك تحت الماء إلى أن تَكُفَّ عن الحركة وحتى لا يعود هناك شيء سوى الظُّلُمات والمياه في رئتيك. سأجعله يَترُكك في مياه حوض الاستحمام الباردة، ولن تتحرَّك قيد أُنْمُلَةٍ بعدها أبدًا، وفي كلِّ ليلةٍ سأُقَبِّله وأُقَبِّله».

كنتُ قد عبرتُ الفتحة في سياج الأشجار الآن، وأعدو فوق عُشبٍ ناعم.

كانت طقطقة البَرق ورائحة معدنيَّة حادّة غريبة قريبتين مني جدًّا حتى إني شعرتُ بوخزٍ في جِلدي، وصار كلُّ شيءٍ حولي أسطعَ وأسطعَ وقد أناره الضوء الأبيض المُزرَق.

قالت إرسولا مونكتن وأنا أتخيَّلُ أن شفتيها تمسَّان أُذُنيَّ:

- «وعندما يَترُكك بابا أخيرًا في حوض الاستحمام إلى الأبد ستكون سعيدًا، لأنك لن تُحِبَّ وجودك في العِلِّيَّة، ليس لأنها مُظلِمةٌ فحسب، وملأى بالعناكب والأشباح، لكن لأني سأُحضِر أصدقائي أيضًا. لا يُمكنك رؤيتهم في ضوء النهار، لكنهم سيكونون في العِلِّيَّة معك، ولن تَستَمتِع بصُحبتهم على الإطلاق. أصدقائي هؤلاء لا يُحِبُّون الأولاد الصِّغار، وسيتظاهَرون بأنهم عناكب كبيرة كالكلاب. ستَجِدَ ملابس قديمة خاوية من الداخِل تَشُدُّك ولا تتخلَّى عنك أبدًا، لا تتخلَّى عن أحشاء رأسك. وعندما تكون في العِلِّيَّة، لن تكون هناك كُتُب ولا قِصَص بعدها أبدًا».

Twitter: @ketab_n

لم أتخيَّل هذا. لقد مَسَّت شفتاها أُذُنيَّ فعلًا. كانت طافيةً في الهواء إلى جواري، فكان رأسها إلى جوار رأسي، وعندما رأتني أنظُرُ إليها ابتسمَت ابتسامتها الزَّائفة، وصِرْتُ عاجزًا عن الرَّكض. بالكاد استطعتُ الحركة، وكنتُ أشعُرُ بألمٍ في جانبي، ولم أستطِع التقاط أنفاسي، وانتهى أمري.

تهاوَت ساقاي من تحتي، وتعثَّرتُ وسقطتُ، وهذه المرَّة لم أنهض.

شعرتُ بسخونةٍ على ساقيَّ، ونظرتُ إلى أسفل لأرى خيطًا أصفرَ يسري من مقدِّمة سروال منامتي.

كنتُ في السابعة من عُمري ولم أعُد طِفلًا صغيرًا، لكني كنتُ أُبَلِّل نفسي الآن كرضيع، ولم يَكُن هناك ما أقدِرُ على فِعله وإرسولا مونكتن معلَّقة في الهواء على ارتفاع أقدامٍ قليلةٍ فوقي تُشاهِدني بلا مَشاعر.

لقد انتهَت المطارَدة..

وقفَت معتدلةً في الهواء على ارتفاع ثلاثة أقدام من الأرض، وكنتُ مُنبَطِحًا أسفلها على ظَهري فوق العُشب المبتلّ، وبدأَت هي تَنخَفِض ببطءٍ عنيدٍ كشخصٍ على شاشة تليفزيونٍ تالفة.

مَسَّ شيءٌ ما يدي اليُسرى، شيءٌ ناعم تشمَّمَ يدي، ونظرتُ إليه خائفًا أن يكون عنكبوتًا كبيرًا ككلب. في ضوء البروق التي أحاطَت بإرسولا مونكتن رأيتُ قِطعةً من الظَّلام الأدهم إلى جوار يدي، قِطعةً من الظَّلام الأدهم لديها بُقعة بيضاء فوق إحدى أُذُنيها. رفعتُ الهِرَّة بيدي وضمَمتها إلى صدري عِند القلب وملَّستُ على شَعرها.

Twitter: @ketab_n

قلتُ:

- «لن آتي معكِ، ولن يُمكنكِ أن تُجبِريني».

اعتدَلتُ جالسًا لأني شعرتُ بأني أقلُّ هشاشةً وأنا جالس، وتكوَّرَت الهِرَّة وأراحَت نفسها في يدي.

- «صغيري الحَبُّوب الجميل»، قالتها إرسولا مونكتن وقدماها تَمسَّان الأرض وقد أضاءتها البروق المحيطة بها، فبدَت كصورةٍ زيتيَّةٍ لامرأةٍ بدرجات من الرَّمادي والأخضر والأزرق، وإن كانت ليست امرأةً حقيقيَّة على الإطلاق. «أنت مجرَّد صبيٍّ صغير وأنا من الكِبار، وكنتُ من الكِبار عندما كان عالمك لا يزال مجرَّد كرةٍ من الصَّخر المصهور، وبك أستطيعُ أن أفعل ما أشاءُ. والآن قِف، سأعيدك إلى المنزل».

أصدرَت الهِرَّة التي دفنَت وجهها في صدري صوتًا عاليًا وليس مواءً، والتفَتُّ بعيدًا عن إرسولا مونكتن لأَنظُر خلفي.

كانت الفتاة التي تسير نحونا عَبر الحقل ترتدي معطف مطرٍ أحمرَ لامعًا ذا قلنسوة، وحذاءً مطَّاطيًّا طويل العُنُق بدا أكبر من مقاسها بكثير. خرجَت لِتي هِمبستوك من الظَّلام بلا خوف، ورفعَت عينيها إلى إرسولا مونكتن قائلةً:

- «ابتعدي عن أرضي».

تراجعَت إرسولا مونكتن خطوةً إلى الوراء وارتفعَت في الآن ذاته لتتعلَّق في الهواء فوقنا، ومَدَّت لِتي هِمبستوك يدها لي من دون أن تُلقي نظرةً واحدةً غلى مكان جلوسي، وأمسكَت يدي لتُعانِق أصابعها أصابعي.

Twitter: @ketab_n

قالت إرسولا مونكتن:

- «لستُ ألمسُ أرضكِ. ارحلي أيتها الصغيرة».

قالت لِتي هِمبستوك:

- «أنتِ على أرضي».

لاحَت ابتسامة على وجه إرسولا مونكتن، وتلوَّت البروق والتفَّت حولها. كانت القُوَّة مجسَّدةً والهواء يُطَقطِق حولها. كانت هي العاصفة.. كانت هي البَرق.. كانت عالم الكِبار بكلِّ قواه وكلِّ أسراره وكلِّ قسوته الحمقاء اللامبالية.. وغمزَت لي.

كنتُ ولدًا في السابعة من عُمره، وكانت قدماي مخدوشتين تَنزِفان، وكنتُ قد بلَّلتُ نفسي للتَّوِّ، والشيء الطَّافي أعلاي كان ضخمًا جَشِعًا وأرادَ أن يَأخُذني إلى العِلِّيَّة، وعندما يُصيبه الضَّجَر مني سيجعل أبي يَقتُلني.

جعلَتني يد لِتي هِمبستوك في يدي أتشجَّع، لكن لِتي كانت مُجرَّد بِنت، حتى إذا كانت بِنتًا كبيرة، حتى إذا كانت في الحادية عشرة من العُمر، حتى إذا كانت في الحادية عشرة منذ زمنٍ طويل. أمَّا إرسولا مونكتن فكانت من الكِبار. في تلك اللحظة لم يكن مهمًّا أنها كانت تجسُّدًا من لحمٍ لكلِّ وحشٍ وكلِّ ساحرةٍ شرِّيرةٍ وكلِّ كابوس، فقد كانت كبيرةً أيضًا، وعندما يُصارِع الكِبار الأطفال يَربَح الكِبار دائمًا.

قالت لِتي:

- «يَجدُر بكِ أن تَعُودي من حيث أتيتِ في المقام الأول. ليس في صالحكِ أن تكوني هنا، فعُودي من أجل مصلحتكِ».

Twitter: @ketab_n

ضَجَّةٌ في الهواء، ضَجَّةٌ شنيعة موجعة تَخدِش الأسماع ملأى بالألم والأذى، ضَجَّةٌ جعلَت أسناني تَصُرُّ وجعلَت الهِرَّة التي أراحَت كفَّيها على صدري تتصلَّب وشَعرها يَنتَصِب. التوى الشيء الصغير وصعد إلى كتفي متشبِّثًا بها بمخالبه، وأخذ يَهِسُّ ويُزَمجِر. رفعتُ عينيَّ إلى إرسولا مونكتن، وفقط عندما رأيتُ وجهها عَرفتُ فحوى تلك الضَّجَّة.

كانت إرسولا مونكتن تضحك..

- «أعودُ؟ لقد انتهزتُ الفُرصة عندما صنعَ قومك المَزْقَ في الأبديَّة. كان بوسعي أن أَحكُم عوالم كاملةً، لكني تَبعتكم، وانتظَرتُ، وتحلَّيتُ بالصَّبر. كنتُ أعرِفُ أن القيود سوف تَنحَلُّ عاجلًا أم آجلًا، وأني سأمشي على الأرض الحقيقيَّة تحت شمس السَّماء».

لم تكن تضحك الآن وهي تقول:

- «كلُّ شيءٍ هنا في غاية الضَّعف أيتها الصغيرة. كلُّ شيءٍ يَنكَسِر بمنتهى اليُسر، وكلُّ ما يرغبون فيه مجرَّد أشياءَ بسيطة. سآخُذُ كلَّ ما أريده من هذا العالم كطِفلٍ يحشو شِدْقيه السَّمينين الصغيرين بالتُّوت الأسود من شُجيرة».

لم أتخلَّ عن يد لِتي، ليس هذه المرَّة. ملَّستُ على الهِرَّة التي غرسَت مخالبها الصغيرة كالإِبَرِ في كتفي، وفي المقابل تلقَّيتُ منها عَضَّةً، لكن عَضَّتها لم تَكُن قاسيةً، بل بدافِع الخوف فقط.

جاءَ صوتها من كلِّ حدبٍ وصوبٍ حولنا والرياح العاصفة تَهُبُّ:

- «لقد أبقيتموني بمنأىً عن هنا لزمنٍ طويل، ثم إنكِ أتيتِ لي بباب، واستخدَمته ليُخرِجني من زنزانتي، والآن ما الذي بوسعكِ فِعله وقد خرجتُ؟».

Twitter: @ketab_n

لم يَبْدُ الغضب على لِتي، بل فكَّرَت ثم قالت:

- «يُمكنني أن أصنع لكِ بابًا جديدًا، أو أفعل ما هو أفضل من ذلك. يُمكنني أن أجعل جَدَّتي تُرسِلك عبر المُحيط إلى المكان الذي جِئْتِ منه في الأصل».

بصقَت إرسولا مونكتن على العُشب، وفرقعَت كرة لهبٍ ضئيلةٍ على الأرض وأصدرَت أزيزًا حيث سقطَت البصقة، وكلُّ ما قالته هو:

- «أعطيني الولد. إنه ينتمي إليَّ. لقد جِئْتُ إلى هنا في داخِله، ولهذا أملكه».

قالت لِتي هِمبستوك غاضبةً:

- «لستِ تملكين شيئًا، أيَّ شيء، خصوصًا هو».

ساعدَتني لِتي على النهوض على قدميَّ، ثم وقفَت ورائي وطوَّقَتني بذراعيها. كنا طِفلين في حقلٍ في الليل. أمسكَت لِتي بي، وأمسَكتُ بالهِرَّة، ومن كلِّ مكانٍ حولنا قال صوتٌ:

- «ماذا ستفعلين؟ تَأخُذينه معكِ إلى البيت؟ إن هذا العالم عالم قواعد أيتها الصغيرة، وهو ينتمي إلى والديه في النهاية. خُذيه وسيأتي أبواه ليُعيداه إلى بيته، وأبواه ينتميان إليَّ أنا».

قالت لِتي هِمبستوك:

- «لقد مللتُ منكِ تمامًا، وقد منحتكِ الفُرصة. أنتِ على أرضي، فارحلي».

وهي تقول هذا شعرتُ بجِلدي كما فعلتُ عندما حككتُ بالونًا بسُترتي الصُّوفيَّة، ثم لمستُ به وجهي وشَعري. كلُّ شيءٍ كان يَخِزُ

Twitter: @ketab_n

ويُدَغدِغ. كان شَعري مبتلًّا بالكامل، لكن حتى مع بلله شعرتُ به يَنتَصِب عن آخِره.

طوَّقَتني لِتي هِمبستوك بقُوَّةٍ وهمسَت:

- «لا تقلق».

وكنتُ على وشك أن أقول شيئًا، أن أسأل لماذا يجب ألا أقلق، وما الذي أخاف منه، عندما بدأ الحقل الذي كنا فيه يتوهَّج.

توهَّجَ الحقل بلونٍ ذَهبي. كلُّ ورقة عُشبٍ توهَّجَت وومضت، كلُّ ورقةٍ على كلِّ شجرة. حتى السياج الذي صنعته الأشجار كان يتوهَّج. كان ضوءًا دافئًا، وبدا لعينيَّ كأن التُّربة تحت العُشب قد استحالَت من مادَّةٍ خامٍ إلى نورٍ صافٍ، وفي وهج المَرْجِ الذَّهبي بدت البروق البيضاء المُزرقَّة المُطَقطِقَة حول إرسولا مونكتن أقلَّ إثارةً للرَّهبة بكثير.

ارتفعَت إرسولا مونكتن بلا ثباتٍ كأن الهواء قد صار ساخنًا وبدأ يَحمِلها إلى أعلى، ثم إن لِتي هِمبستوك بدأت تَهمِس بكلماتٍ قديمةٍ إلى العالم، وتفجَّر المَرْجُ بالنور الذَّهبي. رأيتُ إرسولا مونكتن تَنكَبِس بعيدًا إلى أعلى، على الرغم من أني لم أشعُر بأيِّ رياح، لكن كان لا بُدَّ من وجود رياح، لأنها كانت تَنكسح وتتعثَّر كورقة نباتٍ ميِّتةٍ في قلب عاصفة. شاهَدتُها وهي تتشقلَب في سماء الليل، ثم اختفَت إرسولا مونكتن وبروقها.

قالت لِتي هِمبستوك:

- «هَلُمَّ. يجب أن نُجلِسك أمام نار المطبخ ونضعك في حمَّامٍ ساخن وإلا لقيت حتفك».

Twitter: @ketab_n

وتخلَّت عن يدي وحَلَّت ذراعيها من حولي وتراجعَت إلى الوراء. خفتَ الوهج الذَّهبي بتؤدةٍ شديدةٍ، ثم تلاشى تاركًا بُقعًا ضئيلةً من الوميض والبريق بين الشُّجيرات، كاللحظات الأخيرة من الألعاب الناريَّة في ليلة الخامس من نوفمبر[1].

سألتها:

- «هل ماتت؟».

- «كلا».

- «سوف تعود إذن، وستقعين في مشكلة».

قالت لِتي:

- «احتمال. هل أنت جائع؟».

سألَتني، فعَرِفتُ أني جائعٌ فِعلًا. بشكلٍ ما كنتُ قد نسيت، لكني تذكَّرتُ الآن. كنتُ جائعًا لدرجةٍ مؤلمة.

كانت لِتي تتكلَّم وهي تقودني بين الحقول:

- «لنرَ.. أنت مبتلٌّ تمامًا. سنحتاج أن نُحضِر لك شيئًا ترتديه. سألقي نظرةً في أدراج خزانة الملابس في غُرفة النوم الخضراء. أعتَقِدُ أن ابن العم چابِث قد ترك بعضًا من ملابسه عندما رحلَ ليُقاتِل في حروب الفئران[2]. لم يَكُن أكبر حجمًا منك بكثير».

كانت الهِرَّة تَلعَق أصابعي بلسانها الخشن الصغير.

---

(1) ليلة الخامس من نوفمبر: ليلة الاحتفال التي يُقيمها البريطانيُّون كلَّ عامٍ في ذكرى فشل مؤامرة تفجير مبنى البرلمان على يد جاي فوكس.

(2) حروب الفئران: تُعرِف أيضًا باسم حروب الضفادع والفئران، وهي محاكاة ساخرة لملحمة "الإلياذة" يَنسِبها الرومان لهوميروس نفسه، بينما يقول پلوتارخ إن صاحبها هو پيجرس أخو أرتميسيا ملكة كاريا، ويَنسِبها عدد من الدَّارسين لشاعرٍ مجهول من عصر الإسكندر الأكبر.

Twitter: @ketab_n

قلتُ:

- «لقد وجدتُ هِرَّةً».

- «أرى هذا. لا بُدَّ أنها تبعتك من الحقول حيث سحَبتها من الأرض».

- «أهي تلك الهِرَّة؟ الهِرَّة نفسها التي انتقيتها؟».

- «نعم. هل أخبرَتك باسمها بَعد؟».

- «كلا. هل تفعل القِطَط ذلك؟».

- «أحيانًا، إذا أصغيتَ».

رأيتُ أضواء مَزرعة هِمبستوك أمامنا تُشير إلينا في ترحاب، وشعرتُ بالبهجة على الرغم من أني لم أفهم كيف انتقَلنا من الحقل الذي كنا فيه إلى بيت المَزرعة بهذه السرعة.

قالت لِتي:

- «لقد حالَفَك الحظ. لو ابتعَدت خمس عشرة قدمًا أخرى، كنت ستَجِد نفسك في الحقل الذي ينتمي لكولِن آندرز».

قلتُ لها:

- «كنتِ ستأتين على كلِّ حال، كنتِ ستُنقِذينني».

اعتصرَت ذراعي بيدها، لكنها لم تَقُل شيئًا.

قلتُ:

- «لِتي، لستُ أريدُ العودة إلى منزلي».

Twitter: @ketab_n

لكن ذلك لم يكن صحيحًا. كنتُ أريدُ العودة أكثر من أيِّ شيءٍ آخَر، لكن ليس إلى المكان الذي فرَرتُ منه تلك الليلة. أردتُ أن أعود إلى المنزل الذي عِشْتُ فيه قبل أن يَقتُل مُعَدِّن الأوبال نفسه في سيَّارتنا الميني البيضاء الصغيرة، أو قبل أن يَدهَس هِرِّي الصغير بسيَّارته.

ضغطَت كرة الشَّعر الأسود نفسها في صدري، وتمنَّيتُ لو أنها كانت هِرِّي، لكني كنتُ أعلمُ أنها ليست كذلك.

عادَ المطر رذاذًا من جديد.

مشينا عبر بِرَكٍ موحلةٍ عميقةٍ نَنثُر قطرات الماء، لِتي بحذائها المطَّاطي طويل العُنُق وأنا بقدميَّ الحافيتين المتألِّمتين. كانت رائحة السَّماد حادَّةً لاذعةً في الهواء عندما بلَغنا فِناء المَزرعة، ثم إننا دخَلنا من بابٍ جانبيٍّ إلى مطبخ بيت المَزرعة الضَّخم.

Twitter: @ketab_n

IX

كانت أُمُّ لِتي تَنخُس نار المدفأة الضخمة بواسطة مُذَكٍّ وتدفع قِطَعَ الحطب المحترقة معًا، وكانت مسز هِمبستوك الكبيرة تُقَلِّب محتويات قِدرٍ منتفخةٍ على الموقد بملعقةٍ خشبيَّةٍ كبيرة، ورفعَت الملعقة إلى فمها ونفخَت فيها بأسلوبٍ مسرحي، ثم رشفَت منها وزَمَّت شفتيها، قبل أن تضيف رَشَّةً من شيءٍ ما وحَفنةً من شيءٍ آخَر. ثم إنها نظرَت إليَّ من قِمَّة شَعري المبتل إلى أخمص قدميَّ الحافيتين المُزرَقَّتين الباردتين. بدأَت بِركة صغيرة تتجمَّع على أحجار الأرضيَّة اللوحيَّة مع وقوفي هناك، وتقاطرَ الماء من معطفي المنزلي فيها.

قالت مسز هِمبستوك الكبيرة:

- «حمَّام ساخن الآن وإلَّا سيَنفُق».

أجابَتها لِتي:

- «هذا ما قُلته».

كانت أُمُّ لِتي تَسحَب حوض استحمامٍ من الصفيح من تحت

Twitter: @ketab_n

طاولة المطبخ بالفِعل، وتملأه بالماء المغلي من الغلَّاية السوداء الضخمة المعلَّقة فوق المدفأة، ثم أضافَت إليه قدورًا من الماء البارد إلى أن أعلنَت أن درجة الحرارة صارت مثاليَّة، فقالت مسز هِمبستوك الكبيرة:

- «حسنٌ، هَلُمَّ الآن، بسرعة».

نظَرتُ إليها برُعبٍ. هل عليَّ أن أتجرَّد من ملابسي أمام أناسٍ لا أعرِفهم؟

- «سنَغسِل ملابسك ونُجَفِّفها لك، ونُصلِح هذا المعطف»، قالتها أُمُّ لِتي والتقطَت المعطف المنزلي مني، وأخذَت الهِرَّة -التي أدرَكتُ بالكاد أني كنتُ لا أزال أحملها- وخرجَت من المطبخ.

بأقصى سرعةٍ خلَعتُ منامتي النيلون الحمراء. كان السروال مبلَّلًا تمامًا، والساقان رثَّتين ممزَّقتين ولا سبيل لإصلاحهما من جديد. غمَستُ أصابعي في الماء، ثم وضَعتُ نفسي في الحوض وجلَستُ على أرضيَّته الصفيحيَّة في ذلك المطبخ ذي المناخ المُطَمْئِن أمام المدفأة الكبيرة، وارتكَنتُ على ظَهري في الماء السَّاخن. بدأَت قدماي تَنبِضان والحياة تَدُبُّ فيهما ثانيةً. كنتُ أعرِفُ أن العُري خطأٌ، لكن لم يَبْدُ أن عائلة هِمبستوك كانت تُبالي بعُريي. كانت لِتي قد غادرَت ومعها المعطف والمنامة، بينما كانت أُمُّها تُخرِج سكاكينَ وشُوَكًا وملاعقَ وأباريقَ صغيرةً وأباريقَ أكبر حجمًا وسكاكينَ لتقطيع اللحوم وصِحافًا خشبيَّةً، وتُرَتِّب كلَّ هذا على الطاولة.

ناولَتني مسز هِمبستوك الكبيرة كوبًا خزفيًّا مليئًا بحساءٍ من القِدر السوداء على الموقد قائلةً:

Twitter: @ketab_n

- «اشرب هذا. يجب أن تَشعُر بالدِّفء من الداخِل أولًا».

كان الحساء دَسِمًا يَبعَث على الدِّفء. لم يَكُن قد سبق لي أن شَرِبت الحساء في حوض الاستحمام من قبل، فكانت التجربة جديدةً عليَّ تمامًا. عندما أنهيته أعَدته إليها، وناولَتني هي قُرصًا كبيرًا من الصابون الأبيض ولوفةً للوجه وقالت:

- «والآن افرُك نفسك. أعِد الحياة والدِّفء إلى عظامك».

ثم إنها جلسَت في كرسيٍّ هزَّاز على الجانِب الآخَر من المدفأة وبدأَت تَهتَزُّ برِفقٍ من دون أن تَنظُر إليَّ.

وأحسَستُ بالأمان..

بدا كأن خُلاصة الجدوديَّة ذاتها قد تكثَّفَت واختُصِرَت في هذا المكان الواحد في هذه المرَّة الواحدة. لم يُراوِدني أيُّ خوفٍ البتَّة من إرسولا مونكتن أيًّا كانت ماهيتها؛ ليس في ذلك الوقت وليس في ذلك المكان.

فتحَت مسز هِمبستوك الصغيرة باب أحد الأفران وأخرجَت فطيرةً كانت قاعدتها البُنِّيَّة الصَّقيلة تلمع، ووضعَتها على إفريز النافذة كي تَبرُد.

جفَّفتُ نفسي بمنشفةٍ أحضرنها لي وحرارة النار تُجَفِّفني بقَدر ما تفعل المنشفة، ثم عادَت لِتي هِمبستوك وأعطَتني شيئًا أبيضَ ضخمًا يُشبه ثوب نومٍ للفتيات لكن مصنوعًا من القُطن الأبيض، له ذراعان طويلتان وتنُّورة تَنسَدِل حتى الأرض وقُبَّعة بيضاء. تردَّدتُ أن أرتديه إلى أن أدركتُ ماهيته. كان قُفطانًا من الطراز القديم رأيتُ صُوَرًا لمِثله

Twitter: @ketab_n

في الكُتُب. كان وي ويلي وينكي[1] يجري مُنطَلِقًا في البلدة وهو يرتدي واحدًا كهذا في كلِّ كتابٍ أملكه لأغاني الأطفال.

ارتدَيتُ القُفطان، لكن قُبَّعة النوم كانت كبيرةً جدًّا عليَّ وانزلقَت على وجهي، فأخذَتها لِتي مرَّةً أخرى.

كان العشاء رائعًا. قُدِّمَت قِطعة كبيرة من اللحم البقري، مع البطاطس المشويَّة (ذهبيَّة مقرمشة من الخارِج، بيضاء ليِّنة من الداخِل)، وخضروات بالزبدة لم أدرِ نوعها (وإن كنتُ أعتَقِدُ الآن أن واحدًا منها كان القُرَّاص ربما)، والجَزَر المشوي المُسوَّد الحُلو (ولم أحسب أني سأُحِبُّ الجَزَر المطبوخ، فكدْتُ ألَّا آكُل شيئًا منه، لكني تحلَّيتُ بالشَّجاعة وجرَّبتُ واحدةً وراقَت لي، وطوال ما تبقَّى من طفولتي شعرتُ بالإحباط من مذاق الجَزَر المسلوق). بالنِّسبة للحُلو كانت هناك الفطيرة المحشوَّة بالتُّفَّاح وحبَّات الزَّبيب الكبيرة والمكسَّرات المطحونة، وعلى الوجه طبقة صفراء ثخينة من الكاسترد أدسم وأغنى من أيِّ شيءٍ تذوَّقته في المدرسة أو البيت.

نامَت الهِرَّة على وسادةٍ إلى جوار المدفأة حتى نهاية الوجبة، قبل أن تنضمَّ إلى قِطَّةٍ منزليَّةٍ ذات لونٍ رماديٍّ كالضَّباب تفوقها حجمًا أربع مرَّاتٍ في وجبةٍ من بقايا اللحم.

لم يُقَل شيء ونحن نَأكُل عمَّا حدثَ لي أو سبب وجودي هنا، وبدلًا من ذلك تكلَّمَت نساء هِمپستوك عن المَزرعة. كان هناك مثلًا باب سقيفة الحَلْب الذي يحتاج طبقةً جديدةً من الطِّلاء، وبقرة اسمها

(1) وي ويلي وينكي: أغنيَّة أطفال شهيرة لوليام ميلر نُشِرَت للمرَّة الأولى عام 1841.

Twitter: @ketab_n

ريانون يبدو أن الكُساح قد بدأ يُصيب قائمتها الخلفيَّة اليُسرى، والممرُّ الذي يجب تنظيفه على الطَّريق الذي يقود إلى المخزن.

سألتُ:

- «ألا يوجد هنا إلَّا ثلاثتكنَّ؟ أليس هناك أيُّ رجال؟».

صاحَت مسز هِمبستوك الكبيرة:

- «رجال! لا أدري أيَّ منفعةٍ قد تأتي من الرجال! ليس هناك شيء يستطيع رجل أن يفعله في هذه المَزرعة ولا أستطيع فِعله بضِعف السرعة وخمسة أضعاف الجودة».

قالت لِتي:

- «أحيانًا ما يكون معنا رجال ها هنا. إنهم يأتون ويرحلون، لكن الآن ليس هناك سوانا».

هَزَّت أُمُّها رأسها قائلةً:

- «لقد رحلَ ذكور هِمبستوك ليبحثوا عن أقدارهم وحظوظهم.. في الغالِب. ليس من شيءٍ يُمكنه إبقاءهم هنا عندما يأتي النِّداء. عندها تلوح نظرة شاردة في عيونهم، ثم نَفقدهم إلى الأبد. وعندما تلوح لهم الفُرصة، يرحلون إلى بلداتٍ ومُدُنٍ أخرى حتى، ولا يتبقَّى شيء يَدُلُّ على وجودهم هنا من قبل أصلًا غير بطاقةٍ بريديَّةٍ بين الحين والآخَر».

قالت مسز هِمبستوك الكبيرة:

- «أبواه قادِمان! إنهما في الطَّريق إلى هنا بالسيَّارة. لقد مرَّا بشجرة دَردار پارسون حالًا، وقد رأتهما حيوانات الغُرَير».

Twitter: @ketab_n

سألتُ:

- «أهي معهما؟ إرسولا مونكتن؟».

أجابَت مسز هِمبستوك الكبيرة ضاحكةً:

- «هي؟ ذلك الشيء؟ لا، ليس هي».

فكَّرتُ للحظةٍ، ثم قلتُ:

- «سيجعلانني أعودُ معهما، ثم ستَحبِسني هي في العِلِّيَّة وتَجعَل أبي يَقتُلني عندما تَمَلُّ مني. هي قالت هذا».

قالت أُمُّ لِتي:

- «لعلَّها قالت هذا يا عزيزي، لكنها لن تفعله، ولن تفعل أيَّ شيءٍ مُشابِهًا، وإلا فاسمي ليس چيني هِمبستوك».

راقَ لي اسم چيني، لكني لم أُصَدِّقها ولم أشعُر بالاطمئنان. سرعان ما سيَنفَتِح باب المطبخ، وسيَصرُخ أبي في وجهي، أو أنه سيَنتَظِر إلى أن نركب السيَّارة ويَصرُخ في وجهي هناك، وسيَأخُذاني إلى المنزل أعلى الدَّرب، وسأضيعُ تمامًا.

قالت چيني هِمبستوك:

- «لنرَ.. من الممكن ألا نكون هنا عندما يأتيان، ومن الممكن أن يَصِلا يوم الثلاثاء الماضي لمَّا لم يَكُن أحد هنا».

قالت العجوز:

- «غير مقبول على الإطلاق. اللَّعب بالزَّمن يُعَقِّد الأمور لا أكثر. يُمكننا تحويل الصبي إلى شيءٍ آخَر فلا يجداه مهما بحثا».

Twitter: @ketab_n

طرَفتُ بعينيَّ سائلًا إن كان ذلك ممكنًا أصلًا. أرَدتُ أن أتحوَّل إلى شيءٍ آخَر. كانت الهِرَّة قد أتت على نصيبها من بقايا اللحم (وبدا في الواقع أنها أكلَت كميَّة أكبر من قِطَّة المنزل)، ووثبَت في حِجري وبدأَت تَغسِل نفسها بلسانها.

نهضَت چيني هِمپستوك وغادرَت المطبخ، وتساءَلتُ إلى أين ستَذهَب.

قالت لِتي وهي تَرفَع آخِر الأطباق وأدوات المائدة:

- «لا يُمكننا تحويله إلى أيِّ شيء. سيُصاب أبواه بالهياج، وإذا كانت البرغوثة تتحكَّم فيهما، فستُذَكِّي هياجهما لا أكثر. ثم إننا سنَجِد الشُّرطة تُمَشِّط المخزن بحثًا عنه، أو أسوأ.. المُحيط».

استلقَت الهِرَّة في حِجري وتكوَّرَت على نفسها إلى أن صارت لا شيء أكبر من دائرةٍ صغيرةٍ مسطَّحةٍ من الشَّعر الأسود الزَّغِب، وأغلقَت عينيها الزَّرقاوين الزَّاهيتين كالمُحيط، وغابَت في النوم وراحَت تُقَرقِر.

قالت مسز هِمپستوك الكبيرة:

- «ماذا تَقتَرِحين إذن؟».

أطرقَت لِتي مُفكِّرَةً وقد زَمَّت شفتيها معًا إلى جانِبٍ واحد، وخطرَ لي أنها تَستَعرِض البدائل، قبل أن تتهلَّل أساريرها وتقول:

- «القَص والخياطة؟».

تنشَّقَت جَدَّتها وقالت:

- «أنتِ فتاة بارعة. لستُ أقولُ إنك لستِ كذلك، لكن القَصَّ

Twitter: @ketab_n

والخياطة.. أنتِ لا تستطيعين ذلك، ليس بَعد. يجب أن تَقُصّي الحوافَّ بالضبط، ثم تُخَيِّطينها معًا مرَّةً أخرى من دون أن تَظهَر الدَّرْزات. وماذا ستَقُصّين؟ البرغوثة لن تسمح لك بأن تَقُصّيها. إنها ليست داخِل النَّسيج بل خارِجه».

عادَت چيني هِمپستوك حاملةً معطفي المنزلي القديم، وقالت:

– «لقد وضَعتُه تحت المكواة الاسطوانيَّة، لكنه ما زال رَطْبًا، وسيجعل هذا تسوية الحواف معًا أصعب. لستِ تريدين القيام بشُغل الإبرة والنَّسيج لا يزال رَطْبًا».

ووضعَت المعطف على الطاولة أمام مسز هِمپستوك الكبيرة، ثم أخرجَت من جيب مريلتها الأمامي مقصًّا أسودَ قديمًا وإبرةً طويلةً وبكرةً من الخيط الأحمر.

ردَّدتُ شيئًا كنتُ قد قرأته في كتابٍ يقول:

– *«ثِمار السِّمان والخيوط الحمراء.. تَصُدُّ سرعة السَّاحرة الشَّمطاء»*.

قالت لِتي:

– «كان ذلك ليُفلِح، وعلى نحوٍ ممتاز، لو كانت المسألة تتضمَّن أيَّ ساحرات، لكن ليست هناك ساحرات في الأمر».

كانت مسز هِمپستوك الكبيرة تفحص معطفي المنزلي. كان من الصُّوف البُنِّي الداكِن المُقلَّم الذي بَهتَ لونه، وكان قد أهدانيه جَدَّاي لأبي منذ أعياد ميلادٍ كثيرة عندما كان لا يزال واسعًا عليَّ على نحوٍ مُضحِك. قالت كأنها تُحَدِّث نفسها:

Twitter: @ketab_n

- «لربما.. من الأفضل أن يكون أبوك سعيدًا ببقائك هنا الليلة، لكن كي يَحدُث هذا فلا يُمكن أن يكون والداك غاضِبين منك أو قَلِقَين عليك حتى».

كان المقصُّ الأسود في يدها بالفِعل، وها هي تَقُصُّ وتَقُصُّ وتَقُصُّ، عندما سمعتُ طَرقةً على الباب الأمامي، فنهضَت چيني هِمپستوك لتُجيبه، وخرجَت إلى الردهة وأغلقَت باب المطبخ وراءها.

قلتُ لِلِتي:

- «لا تدعيهما يَأخُذانني».

قالت:

- «صَهِ! إنني أعمل الآن بينما تَقُصُّ جَدَّتي. انعَس أنت وكُن في سلام، كُن سعيدًا».

كنتُ أبعد ما أكون عن السعادة، ولا أشعُر بأدنى درجةٍ من النُّعاس. مالَت لِتي فوق الطاولة وأطبقَت على يدي قائلةً:

- «لا تقلق».

وفي هذه اللحظة انفتحَ باب المطبخ ودخلَ أبي وأمي. أرَدتُ أن أختبئ، وغيَّرت الهِرَّة وضعها في حِجري على نحوٍ مُطَمْئِن، ومنحَتني لِتي بدورها ابتسامةً مُطَمْئِنَةً.

كان أبي يقول لمسز هِمپستوك:

- «إننا نبحث عن ابننا، ولدينا ما يدعو للاعتقاد بأن..».

وبينما كان يقول هذه الكلمات كانت أمي تَندَفِع نحوي هاتفةً:

Twitter: @ketab_n

- «ها هو ذا! كنا في غاية القلق عليك يا حبيبي!».

وقال أبي:

- «أنت في مشكلةٍ كبيرةٍ أيها الصغير».

وأخذَ المقصُّ الأسود يَقُصُّ.. ويَقُصُّ.. ويَقُصُّ، وسقطَت قُصاصة القُماش غير المُنتَظِمَة التي كانت مسز هِمبستوك الكبيرة تَقُصُّها على الطاولة.

وتجمَّدَ أبواي في مكانهما.. كَفَّا عن الكلام وكَفَّا عن الحركة. كان فَمُ أبي لا يزال مفتوحًا، ووقفَت أمي على ساقٍ واحدةٍ بثباتٍ كدُمية عَرضٍ في واجِهة محل.

قلتُ غير دارٍ إن كان يَجدُر بي أن أستاء أم لا:

- «ماذا.. ماذا فعلتِ بهما؟».

قالت چيني هِمبستوك:

- «إنهما بخير. القليل من القَصِّ ثم القليل من الخياطة، وسيكون كلُّ شيءٍ بخير».

ومَدَّت يدها لتُشير إلى قُصاصة المعطف المنزلي الصُّوفي باهتة اللون على الطاولة مضيفةً:

- «هذا أنت وأبوك في الردهة، وهذا الحمَّام. لقد قَصَّت هذا، وعليه لا داعي لغضب أبيك منك من دون أيٍّ من هذا».

لم أكُن قد أخبرتهنَّ بما حدث في الحمَّام، لكني لم أتساءَل كيف عَرِفَت.

Twitter: @ketab_n

والآن كانت العجوز تضع الخيط الأحمر في سِمِّ الإبرة، وتنهَّدَت على نحوٍ مسرحيٍّ قائلةً:

- «عيناي العجوزتان.. عيناي العجوزتان».

على أنها لَعِقَت طرف الخيط ودفعَته عَبر سِمِّ الإبرة من دون أيِّ صعوبة، ثم قالت:

- «لِتي، يجب أن تَعرِفي كيف تبدو فرشاة أسنانه».

وبدأَت تُخَيِّط حوافَّ المعطف معًا بغُرَزٍ دقيقةٍ بعناية، بينما سألَتني لِتي:

- «كيف تبدو فرشاة أسنانك؟ بسرعة».

أجبتُ:

- «إنها خضراء، بلون التُّفَّاح الأخضر نوعًا. ليست كبيرة الحجم جدًّا. مجرَّد فرشاة أسنان خضراء على مقاسي».

كنتُ أعرِفُ أنني لا أصِفها جيِّدًا، وتخيَّلتها في رأسي محاولًا أن أجد ما هو أكثر فيها لأصِفه كي أُمَيِّزها عن أيِّ فرشاة أسنانٍ أخرى، لكن من دون فائدة. فقط تخيَّلتها ورأيتها بعين الخيال موضوعةً مع بقيَّة فُرَش الأسنان في الكوب المنقَّط بالأحمر والأبيض فوق حوض الحمَّام.

قالت لِتي:

- «وجدتها! أحسنتَ».

وقالت مسز هِمبستوك الكبيرة:

Twitter: @ketab_n

- «عمل مُتقَن تمامًا».

ابتسمَت چيني هِمپستوك ابتسامةً واسعةً جدًّا أضاءَت وجهها المستدير المُشَرَّب بالحُمرة، والتقطَت مسز هِمپستوك الكبيرة المقصَّ وقَصَّت مرَّةً أخيرةً، وسقطَ جزء ضئيل من الخيط الأحمر على سطح الطاولة.

وهبطَت قدم أمي على الأرض، وخطَت خطوةً واحدةً ثم توقَّفَت، بينما أطلقَ أبي همهمةً وقالت چيني:

- «.. وقد سَعِدَت صغيرتنا لِتي للغاية بمجيء ولدكما وقضاء الليلة هنا. أخشى أن الأشياء قديمة الطراز هنا نوعًا».

قالت العجوز:

- « لدينا حمَّام داخِلي هذه الأيام. لا أدري كيف يُمكن أن يكون المرء عصريًّا أكثر من هذا. الحمَّامات الخارِجيَّة وأوعية الفضلات كانت تُناسِبني تمامًا».

قالت چيني لي:

- «لقد تناوَل وجبةً ممتازة، أليس كذلك؟».

قلتُ لأبويَّ:

- «كانت هناك فطيرة أكلناها مع طبق الحلو».

كان جبين أبي مُقَطَّبًا وبدا حائرًا. ثم إنه مَدَّ يده داخِل جيب معطفه وأخرجَ شيئًا طويلًا أخضرَ اللون التفَّت حول رأسه قِطعة من ورق الحمَّام، وقال:

- «نسيتَ فرشاة أسنانك، وخطرَ لنا أنك ستحتاجها».

Twitter: @ketab_n

كانت أمي تقول لچيني هِمپستوك:

- «والآن إذا كان يرغب في العودة إلى البيت، فليَعُد إلى البيت. لقد ذهبَ لقضاء ليلةٍ عِند آل كوڤاكس منذ بضعة شهور، وبحلول الساعة التاسعة كان يتَّصل بنا كي نأتي ونَأخُذه».

كان كريستوفر كوڤاكس أكبر مني بعامين وأطول مني برأسٍ كامل، وكان يعيش مع أُمِّه في كوخٍ كبير يُواجِه مدخل دَربنا عِند صهريج المياه الأخضر القديم. كانت أُمُّه مُطَلَّقَةً، وكنتُ أُحِبُّها. كانت طريفةً، وتقود سيَّارةً ڤولكسڤاجن بيتل، كانت أول ما رأيتُ من طرازها. كان كريستوفر يملك كُتُبًا كثيرةً لم أقرأها، وكان عُضوًا في نادي پافِن[1]، وكان مسموحًا لي أن أقرأ كُتُبه الصَّادرة عن پافِن بشَرْطِ أن أذهَب إلى منزله، إذ كان لا يسمح لي باستعارتها قَطُّ.

كان هناك سرير من دورين في غُرفة نوم كريستوفر على الرغم من أنه كان طِفلًا وحيدًا، وأُعطِيتُ الدور السُّفلي ليلة كنتُ هناك. بمجرَّد أن دخَلتُ الفِراش وتمنَّت لنا أُمُّ كريستوفر ليلةً طيِّبةً وأطفأَت نور الغُرفة وأغلقَت الباب، مال هو إلى أسفل وبدأ يَبُخُّني بمسدَّس ماء كان قد أخفاه تحت وسادته، ولم أدرِ ماذا أفعل.

قلتُ لأمي مُحرَجًا:

- «هناك فارِق عن الليلة التي ذهبتُ فيها إلى منزل كريستوفر كوڤاكس. إنني أُحِبُّ المكان هنا».

سألَتني مُحَدِّقَةً في قُفطان وي ويلي وينكي في دهشة:

(1) نادي پافِن: نادٍ للكُتُب تابع لـPuffin Books، أكبر ناشر لكُتُب الأطفال في المملكة المتَّحدة منذ ستينات القرن العشرين.

Twitter: @ketab_n

- «ما هذا الذي ترتديه؟».

قالت چيني:

- «لقد وقعَت له حادثة صغيرة. إنه يرتدي هذه إلى أن تَجُفَّ منامته».

قالت أمي:

- «آه، فهمت. حسنٌ، ليلة طيِّبة يا صغيري. استَمتِع بوقتك مع صديقتك الجديدة».

وحدَّقَت في لِتي سائلةً:

- «قُلتِ ما اسمكِ يا عزيزتي؟».

- «لِتي». أجابَت لِتي هِمپستوك:

سألتها أمي:

- «أهذا اختصار لاسم لِتيشا؟ كنتُ أعرِفُ واحدةً اسمها لِتيشا أيام الجامعة، لكن الجميع كانوا يُسمُّونها لِتوس بالطبع».

اكتفَت لِتي بابتسامةٍ ولم تُعَلِّق على الإطلاق.

وضعَ أبي فرشاة الأسنان على الطاولة أمامي، وفكَكتُ ورق الحمَّام الملفوف حول رأسها، ووجَدتُ أنها فرشاة أسناني فِعلًا وبما لا يدع مجالًا للشَّك. تحت معطفه كان أبي يرتدي قميصًا أبيضَ نظيفًا بلا ربطة عُنُق.

قلتُ: «شكرًا».

قالت أمي:

- «في أيِّ وقتٍ ينبغي أن نأتي لنَأخُذه في الصباح إذن؟».

Twitter: @ketab_n

اتَّسعَت ابتسامة چيني وهي تجيب:

- «أوه، سوف تُعيده لِتي إليكما. يجب أن نَمنَحهما بعض الوقت ليلعبا معًا في الصباح. لكن قبل أن تَرحَلا، لقد خبزتُ بعض الكعك المدوَّر هذه الظهيرة».

ووضعَت بضع كعكاتٍ في كيسٍ ورقيٍّ تناولَته أمي منها بتهذيب، ثم أرشدَت چيني أبويَّ خارِج الباب، وكتَمتُ أنا أنفاسي إلى أن سمعتُ صوت الروڤر تتحرَّك عائدةً إلى أعلى الدَّرب.

سألتُ:

- «ماذا فعلتِ بهما؟». وأضفت: «أهذه فرشاة أسناني حقًّا؟».

أجابَت مسز هِمپستوك الكبيرة والرِّضا في صوتها:

- «كان هذا شُغل قَصٍّ وخياطةٍ محترَمًا جدًّا إذا طلبتم رأيي».

ورفعَت معطفي المنزلي، فلم أرَ أين القِطعة التي أزالَتها ولا المكان الذي خيَّطَتها فيه من جديد. كان المعطف بلا أيِّ ثغراتٍ ومكان التَّصليح خفيًّا. ناولَتني العجوز قُصاصة القُماش الموضوعة على الطاولة التي كانت قد قَصَّتها، وقالت:

- «هكذا كانت أحداث أمسيتك. يُمكنك الاحتفاظ بها إذا شِئْتَ، لكني كنتُ لأَحرِقها لو كنتُ مكانك».

طَقطَقَت قطرات المطر الهاوية على زجاج النافذة، وهزَّت الرِّيح إطارها.

رفعتُ قُصاصة القُماش المحزَّزة من على الطاولة، وكانت رَطْبَةً. ثم إنني نهضتُ موقِظًا الهِرَّة التي وثَبَت من حِجري واختفَت بين الظِّلال، واتَّجَهتُ إلى المدفأة. وسألتهنَّ:

Twitter: @ketab_n

- «إذا أحرَقتُ هذه، هل ما حدثَ سيكون قد حدثَ حقًّا؟ هل سيكون أبي قد حاوَل إغراقي في حوض الاستحمام؟ هل سأنسى أن كلَّ هذا قد حدثَ؟».

كانت چيني هِمپستوك قد كَفَّت عن التبسُّم وبدَت مهتمَّةً الآن وهي تسألني:

- «ما الذي تُريده أنت؟».

- «أريدُ أن أتذكَّر، لأن ما حدثَ حدثَ لي، وأنا ما زلتُ أنا».

أجبتُ، وألقَيتُ قُصاصة القُماش في النار..

كان هناك صوت طَقطَقَة، وأخرجَت قُصاصة القُماش دخَّانًا، ثم بدأَت تَحتَرِق.

- *كنتُ تحت الماء.. كنتُ مُتَمَسِّكًا بربطة عُنُق أبي.. وظننتُ أنه سيَقتُلني..*

وصَرَختُ..

كنتُ على أرضيَّة مطبخ عائلة هِمپستوك أصرُخُ وأتلوَّى. لقد شعرتُ كأني دُسْتُ بقدمي الحافية على جمرةٍ مُشتَعِلة، وكان الألم فظيعًا، ناهيك عن الألم الآخَر الذي شعرتُ به في أعماق صدري، الذي كان أبعَد وليس بالقُوَّة نفسها: ألم يُشعِر بعدم الرَّاحة ولا يَحرق.

كانت چيني إلى جواري تسألني:

- «ماذا بك؟».

- «قدمي.. إنها تَحتَرِق، تُؤلِمني للغاية».

فحصَت قدمي، ثم لعقَت إصبعها ومَسَّت به الثُّقب في أخمصها الذي أخرَجتُ منه الدُّودة قبل يومين. سمعتُ هسيسًا، ثم بدأ الألم في قدمي يهدأ.

Twitter: @ketab_n

قالت چيني هِمپستوك:

- «لم أرَ شيئًا كهذا من قبل إطلاقًا. كيف حدثَ لك هذا؟».

أجَبتها:

- «كانت هناك دودة في داخِلي. هكذا جاءَت هي معنا من المكان ذي السَّماء البرتقاليَّة، في قدمي».

ثم إنني نظَرتُ إلى لِتي التي كانت جاثمةً إلى جواري مُمْسِكَةً بيدي، وقلتُ:

- «أنا من جاء بها. إنها غلطتي. أنا آسف».

كانت مسز هِمپستوك الكبيرة آخِر من وصلَ إليَّ، فمالَت عليَّ ورفعَت أخمص قدمي إلى أعلى في الضوء، وقالت:

- «شيءٌ بَشِع، وشديد البراعة كذلك. لقد تركَت الثُّقب في داخِلك كي تَستَعمِله مرَّةً أخرى. كان بإمكانها الاختباء في داخِلك إذا احتاجَت، واستخدامك كبابٍ تعود به إلى دارها. لا عجب أنها أرادَت أن تضعك في العِلِّيَّة. حسنٌ، لنَطرُق الحديد وهو ساخن كما قال الجُندي عندما دخلَ المغسلة».

وهمزَت الثُّقب في قدمي بإصبعها، وكان لا يزال يؤلمني لكن الألم كان قد خَفَّ بعض الشيء، والآن كنتُ أشعُرُ كأنه صُداع داخِل قدمي.

خفقَ شيءٌ ما في صدري، كعُثَّةٍ ضئيلة الحجم، ثم سكنَ.

سألَتني مسز هِمپستوك الكبيرة:

- «هلَّا تحلَّيت بالشَّجاعة؟».

Twitter: @ketab_n

لم أدرِ إن كنتُ أستطيع، ولم أحسب أني أستطيع. تراءى لي أن كلَّ ما فعلته الليلة حتى الآن هو الهرب من شيءٍ أو آخَر. كانت العجوز تُمسِك الإبرة التي استخدمَتها لخياطة معطفي، وكانت تَقبِض عليها الآن بأسلوبٍ لا يشي بأنها تريد خياطة شيء، بل بأنها على وشك أن تطعَنني بها.

سحَبتُ قدمي قائلًا:

- «ماذا ستفعلين؟».

اعتصرَت لِتي يدي وقالت:

- «سوف تُزيل الثُّقب. سأُمسِك يدك. ليس من الضروري أن تَنظُر إذا لم تشأ».

قلتُ:

- «سأتألَّم».

- «كلام فارغ». قالت العجوز.

وجذبَت قدمي إليها بحيث صار الأخمص يُواجِهها، وغرسَت الإبرة.. ليس داخِل قدمي -كما أدرَكتُ- بل داخِل الثُّقب ذاته.

ولم أشعُر بأيِّ ألم..

ثم إنها لوَت الإبرة وسحبَتها ناحيتها، وشاهَدتُ مشدوهًا إذ خرجَ شيء يَلمَع (بدا أسودَ اللون أولًا، ثم شفَّافًا، ثم عاكِسًا كالزِّئبق) من أخمص قدمي على طرف الإبرة.

كان بإمكاني الشعور به وهو يُغادِر قدمي، وبدا أن الإحساس يَنتَقِل إلى أعلى داخِل جِسمي حتى النهاية؛ إلى أعلى ساقي وعَبر

Twitter: @ketab_n

مُلتقى فخذيَّ ومعدتي وحتى داخِل صدري. براحةٍ شعرتُ به يُغادِرني، وضَعُفَ الشعور الحارِق ومعه رُعبي.

ودَقَّ قلبي على نحوٍ غريب..

شاهَدتُ مسز هِمبستوك الكبيرة وهي تَلُفُّ الشيء، وبشكلٍ ما كنتُ لا أزال غير قادرٍ على استيعاب ما أراه بالكامل. كان ثُقبًا بلا شيءٍ حوله، طوله يَبلُغ قدمين أو يزيد، أنحل من دودة أرض، كالجِلد الساقط عن ثعبانٍ شفَّاف.

ثم إنها كَفَّت عن لَفِّ الشيء وقالت:

- «لا يريد الخروج. إنه متمسِّك».

شعرتُ ببرودةٍ في قلبي، كأن شظيةً من الجليد كانت محشورةً هناك. قامت العجوز بنفضةٍ خبيرةٍ بمِعصَمها، ثم رأيتُ الشيء اللامع يتدلَّى من إِبرتها (ووجدتُ نفسي الآن أُفكِّر، ليس في الزِّئبق، بل في آثار المادَّة الفِضِّيَّة اللَّزِجَة التي تُخَلِّفها الحلزونات في الحديقة)، ولم يَعُد داخِل قدمي.

تركَت العجوز قدمي وسحَبتُها. كان الثُّقب المستدير الدَّقيق قد تلاشى تمامًا كأنه لم يوجد قَطُّ.

وقَهقَهَت مسز هِمبستوك الكبيرة بمرحٍ وقالت:

- «تَحسَب نفسها شديدة الذَّكاء بتَركها السبيل إلى دارها داخِل الصَّبي. أهذا ذكاء؟ لا أحسبُ أنه ذكاء. جِنسها كله لا يساوي بنسين عِندي».

أحضرَت چيني هِمبستوك برطمان مربَّى فارغًا، ووضعَت العجوز

Twitter: @ketab_n

أسفل الشيء المتدلِّي داخِله، ثم رفعَت البرطمان ليحتويه، وفي النهاية أزالَت الشيء الخفي اللامع عن الإبرة ووضعَت الغطاء على البرطمان بحركةٍ حاسمةٍ من مِعصَمها النَّحيل.

- «ها!»، قالتها وكرَّرتها. «ها!».

قالت لِتي:

- «هل يُمكن أن أراه؟».

وأخذَت برطمان المربَّى ورفعَته في الضوء. كان الشيء داخِل البرطمان قد بدأ يَنفَرِد بتؤدة، وبدا طافيًا كأن البرطمان مليء بالماء، وتغيَّر لونه بمجرَّد أن سقطَ عليه الضوء، فتبدَّى أسودَ حينًا وفِضِّيًّا حينًا.

ثمَّة تجربة وجدتها في كتاب عن الأشياء التي يستطيع الأولاد فِعلها، تجربة أجرَيتُها طبعًا: إذا أخَذت بيضةً وسوَّدتها تمامًا بسُخام لهب شمعة، ثم وضَعتها في وعاءٍ شفَّافٍ مليءٍ بالماء المملَّح، فستَظَلُّ مُعَلَّقَةً في مُنتَصَف الماء وتبدو ذات لونٍ فِضِّي.. لونٍ فِضِّيٍّ صناعيٍّ غريبٍ لا يتعدَّى خدعةً من الضوء. حينئذٍ فكَّرتُ في تلك البيضة.

بدَت لِتي مبهورةً وهي تقول:

- «أنتِ مُحِقَّة. لقد تركَت سبيلها إلى دارها في داخِله. لا عجب أنها لم تُرِده أن يُغادِر».

فقلتُ: «آسِفٌ لأني تركتُ يدك يا لِتي».

قالت:

- «أوه، صَهِ! دائمًا ما يأتي الاعتذار متأخِّرًا، لكني أُقَدِّرُ عاطفتك. وفي المرَّة القادمة لن تتخلَّى عن يدي مهما ألقَت في وجهنا».

Twitter: @ketab_n

هزَزتُ رأسي موافقًا. بدا أن شظية الجليد في قلبي تَكتَسِب دِفئًا عندئذٍ، ثم تذوب، وبدأتُ أشعُرُ بالكمال والأمان من جديد.

قالت چيني:

- «حسنٌ، لقد حَصلنا على سبيل عودتها، والصَّبي في أمان. إذا لم يَكُن هذا عملًا لا بأس به لليلةٍ واحدة، فلا أدري ماذا يكون».

علَّقَت مسز هِمپستوك الكبيرة:

- «لكن والـديِّ الصَّبي تحت رحمتها، وأخته كذلك، ولا يُمكننا السماح لها بأن تَظَلَّ طليقةً هكذا. هل تَذكُرين ما حدثَ في أيام كرومِل؟ وقبل ذلك، عندما كان روفوس الأحمر[1] موجودًا؟ البراغيث تَجذِب الهَوام».

قالت العبارة الأخيرة كأنها قانون من قوانين الطبيعة.

قالت چيني:

- «يُمكن أن يَنتَظِر هذا حتى الغد. والآن يا لِتي، خُذي الصَّبي وجِدِي له غُرفةً ينام فيها. لقد قضى يومًا طويلًا».

كانت الهِرَّة السوداء متكوِّرةً على نفسها على الكرسي الهزَّاز إلى جوار المدفأة، فسألتُ:

- «هل يُمكنني أن آخُذ الهِرَّة معي؟».

قالت لِتي:

- «إذا لم تفعل، ستأتي هي وتَعثُر عليك».

أخرجَت چيني شمعدانين من النوع ذي المِقبَض المستدير الكبير، وكلُّ واحدٍ منهما فيه كُتلة بلا معالم من الشَّمع الأبيض. ثم إنها

(1) روفوس الأحمر: أحد الألقاب التي كانت تُطلَق على الملك ويليام الأول.

Twitter: @ketab_n

أشعلَت فتيلًا خشبيًّا من المدفأة ونقلَت اللَّهب من الفتيل إلى شمعدان ثم إلى الآخَر، وناولَتني أحدهما وناولت لِتي الآخَر.

- «أليس لديكم كهرباء؟». سألتُ.

كانت هناك أضواء كهربائيَّة في المطبخ، مصابيح كبيرة قديمة الطراز متدلية من السَّقف تتوهَّج شعيراتها بالضوء.

قالت لِتي:

- «ليس في ذلك الجزء من المنزل. المطبخ جديد نوعًا. ضَع يدك أمام شمعتك وأنت تمشي كي لا تنطفئ».

وضَمَّت يدها حول لهب شمعتها وهي تقول هذا ففعلتُ مثلها، وسِرْتُ وراءها. جاءَت الهِرَّة السوداء في أعقابنا من المطبخ ونحن نَعبُر بابًا خشبيًّا مدهونًا بالأبيض وننزل درجةً، ثم نَدخُل بيت المَزرعة.

كان المكان مُظلِمًا، وألقَت شمعتانا ظِلالًا ضخمةً كما بدَت لي ونحن نمشي، كأن كلَّ شيءٍ كان يتحرَّك وقد دفعَته وشكَّلَته الظِّلال، من الساعة الطويلة إلى الحيوانات والطيور المُحَنَّطَة، (وقد تساءَلتُ إن كانت مُحَنَّطَةً حقًّا. هل تحرَّكَت تلك البومة، أم أن لهب الشَّمعة المُتَذَبْذِب هو ما جعلَني أتخيَّل أنها أدارَت رأسها ونحن نَمُرُّ؟)، إلى مائدة الردهة والمقاعد. كلُّ شيءٍ تحرَّك في ضوء الشَّمعتين، وكلُّ شيءٍ ظَلَّ ساكنًا تمامًا. صعَدنا بضعة سلالم، ثم بضع درجات، ومرَرنا بنافذةٍ مفتوحة.

انصَبَّ نور القَمر على السلالم وضَّاءً أكثر من ضوء الشَّمعتين. ألقيتُ نظرةً من النافذة لأرى القَمر مُكتَمِلًا، وتناثرَت في السَّماء الصافية من أيِّ سَحابٍ نجومٌ لا تُحصَى.

Twitter: @ketab_n

- «إنه القَمر». قلتُ.

وقالت لِتي هِمبستوك:

- «جَدَّتي تُحِبُّه هكذا».

- «لكنه كان هلالًا بالأمس، والآن هو مُكتَمِل. والسَّماء كانت تُمطِر، بل هي تُمطِر، لكنها لا تفعل الآن».

- «جَدَّتي تُحِبُّ أن يرمي القَمر المُكتَمِل نوره على هذا الجانِب من المنزل. تقول إنه مُهَدِّئ هكذا، ويُذَكِّرها بأيام كانت فتاةً صغيرةً. كما أنه يعني أيضًا ألَّا تتعثَّر على السلالم».

تبعتنا الهِرَّة على السلالم بسلسلةٍ من الوثبات، وجعلَني هذا أبتَسِم.

كانت غُرفة لِتي تقع في قِمَّة المنزل، وإلى جوارها غُرفة أخرى دخَلناها. كانت هناك نار موقدة في المدفأة تضيء الغُرفة بدرجات الأصفر والبرتقالي، وكانت الغُرفة دافئةً مُرَحِّبَةً. كان الفِراش ذو عمودٍ عِند كلِّ رُكن، وكانت له ستائر الخاصَّة، وكنتُ قد رأيتُ شيئًا مُشابِهًا في الرسوم المتحرِّكة، لكن ليس في عالم الواقع قَطُّ.

قالت لِتي:

- «هناك ملابس مُعَدَّةٌ لك لترتديها في الصباح. سأكونُ نائمةً في الغُرفة المُجاوِرة لك إذا احتَجتَني. صِح أو اطرُق الباب إذا احتَجت شيئًا وسآتي إليك. جَدَّتي قالت أن تَستَخدِم الحمَّام الداخِلي، لكنه في مكانٍ بعيدٍ داخِل المنزل وقد تَضلُّ الطَّريق، لذا إذا أرَدت أن تقضي حاجتك فهناك وعاء للفضلات تحت الفِراش كما كان دائمًا».

Twitter: @ketab_n

نفَختُ شمعتي لتَظَلَّ الغُرفة مضاءةً بنار المدفأة، ودفَعتُ نفسي عَبر الستائر وصعدتُ على الفِراش.

كانت الغُرفة دافئةً، لكن الملاءات كانت باردةً عندما انسلَلتُ بينها. اهتزَّ الفِراش عندما هبطَ شيء عليه، ثم تحرَّكت أقدام صغيرة فوق الدُّثُر، ودفعَ حضورٌ دافئ مكسو بالفرو نفسه في وجهي، وبدأت الهِرَّة تُقَرقِر بنعومة.

كان هناك وحش لا يزال في بيتي، وفي وهلةٍ من الزَّمن قُصَّت -ربما- من عالم الواقِع دفعَني أبي تحت مياه حوض الاستحمام وحاوَل -ربما- أن يُغرِقني. لقد جريتُ أميالًا في الظَّلام، ورأيتُ أبي يَلثُم ويتحسَّس الشيء الذي أطلَق على نفسه اسم إرسولا مونكتن، ولم تُغادِر الرَّهبة روحي.

لكن الآن كانت هناك هِرَّة صغيرة نائمة على وسادتي، وكانت تُقَرقِر في وجهي وتتذَبذَب برِقَّةٍ مع كلِّ قرير؛ وسرعان ما غِبْتُ في النوم.

Twitter: @ketab_n

X

رأيتُ أحلامًا غريبةً في ذلك المنزل في تلك الليلة. أيقَظتُ نفسي في الظَّلام، ولم أعرِف إلَّا أن حُلمًا ما قد أخافَني حتى النُّخاع، فلم يَكُن أمامي إلَّا أن أستَيقِظ أو أموت، على أني -مهما حاولتُ- لم أستطِع أن أتذكَّر ما رأيته في منامي. كان الحُلم يُلازِمني، يَقِف ورائي حاضِرًا لكن خفيًّا، تمامًا كمؤخِّرة رأسي؛ موجودة وغير موجودةٍ في آنٍ واحد.

افتقَدتُ أبي وافتقَدتُ أمي، وافتقَدتُ سريري في منزلي الذي لا يَبعُد إلا ميلًا أو بعض ميل. افتقَدتُ الأمس، قبل إرسولا مونكتن، قبل غضبة أبي، قبل حوض الاستحمام، وبكلِّ جوارحي أرَدتُ أن يعود ذلك الأمس من جديد.

حاوَلتُ أن أجذب الحُلم الذي قَضَّ عليَّ مضجعي هكذا إلى مقدِّمة وعيي، لكنه رفضَ أن يأتي. كنتُ أُدرِكُ أن خيانةً ما كانت فيه، وخسارةً، والزَّمن. تركَني الحُلم خائفًا من الرجوع إلى النوم. كانت المِدفأة شِبه مُظلِمةٍ الآن، لم يَعُد فيها إلَّا وهج الجِمار الأحمر العميق ليَدُلَّ على أنها كانت مُتَّقِدَةً وتُلقي ضوءًا من قبل.

Twitter: @ketab_n

نزلتُ من الفِراش ذي الأعمدة الأربعة وتحسَّستُ أسفله إلى أن وجَدتُ وعاء الفضلات الثقيل المصنوع من الخزف الصِّيني، ورفَعتُ قُفطاني وقضيتُ حاجتي، ثم اتَّجهتُ إلى النافذة وتطلَّعتُ إلى الخارِج. كان القَمر لا يزال مُكتَمِلًا، لكنه كان منخفِضًا في السَّماء الآن وذا لونٍ برتقاليٍّ داكِن، ما كانت تُطلِق أمي عليه قمر الحصاد، وإن كنتُ أعرِفُ أن الحصاد يُجرى في الخريف وليس الرَّبيع.

في نور القَمر البرتقالي رأيتُ امرأةً عجوزًا (كنتُ شِبه متأكِّدٍ من أنها مسز هِمبستوك الكبيرة، وإن كانت رؤية وجهها جيِّدًا صعبةً)، تمشي هنا وهناك. كانت معها عصا طويلة كبيرة تتَّكئ عليها وهي تمشي كعُكَّاز، فذكَّرَتني بالجنود الذين رأيتهم في رحلةٍ إلى لندن خارِج قصر باكنجهام وهُم يسيرون ذهابًا وإيابًا في استعراضهم العسكري.

راقَبتها، وشعرتُ بالطُّمأنينة..

عُدْتُ إلى الفِراش في الظَّلام ووضَعتُ رأسي على الوسادة الخالية، وفكَّرتُ: *لن أعود إلى النوم أبدًا، ليس الآن*. ثم إنني فتَحتُ عينيَّ ورأيتُ أنه الصباح.

كانت هناك ثياب لم أرَها من قبل موضوعة على كرسيٍّ إلى جوار الفِراش، وإبريقان من الماء من الخزف الصِّيني -أحدهما ساخنٌ جدًّا والآخَر بارد- إلى جوار وعاءٍ أبيضَ مصنوعٍ بدوره من الخزف الصِّيني، أدرَكتُ أنه حوض يدوي مثبَّت في طاوَلةٍ خشبيَّةٍ صغيرة. كانت الهِرَّة السوداء ذات الشَّعر الزَّغِب قد عادَت إلى قدم الفِراش، وفتحَت عينيها عندما نهَضتُ، تلك العينان ذاتا اللون الأزرق المُخْضَر الغريب غير الطبيعي كالبحر في الصَّيف، وأطلقَت مواءً عاليًا مُتسائِلًا، فملَّستُ عليها ثم نزلتُ من الفِراش.

Twitter: @ketab_n

مزَجتُ الماء السَّاخن بالبارد في الحوض وغسلتُ وجهي ويديَّ، ونظَّفتُ أسناني بالماء البارد. لم يكن هناك معجون أسنان، لكن كانت هناك عُلبة مستديرة صغيرة من الصَّفيح كُتِبَ عليها «مسحوق أسنان ماكس ملتون شديد الفاعليَّة» بحروفٍ قديمة الطراز. وضَعتُ بعضًا من المسحوق الأبيض على فرشاة أسناني الخضراء ونظَّفتُ أسناني به، وكان له مذاق النَّعناع واللَّيمون في فمي.

فحَصتُ الثياب التي تُرِكَت لي، ولم تَكُن تُشبِه شيئًا ارتدَيته من قبل. لم يَكُن معها سروال تحتي، لكن كان هناك قميص تحتي أبيضَ بلا أزرار وإن كان به ذيل طويل، وسروال بُنِّي يَصِلُ إلى الرُّكبتين، وزوج من الجوارب البيض الطويلة، وسُترة بلون الكستناء بها قَصَّة على شكل حرف V من الخلف كذيل طائر السنونو، أمَّا زوج الجوارب الصغيرة ذو اللون البُنِّي الفاتِح فكان أقرب إلى الجوارب الطويلة. ارتدَيتُ الثياب بأفضل شكلٍ ممكن متمنيًا لو كانت ذات أزِمَّةٍ أو مشابك بدلًا من الخطاطيف والأزرار والعُرى الجامدة التي لا تتزَحزَح.

كان الحذاء ذو أبازيم فِضِّيَّةٍ من الأمام، لكنه كان كبيرًا جدًّا عليَّ ولم يُناسِب مقاسي، فخرَجتُ من الغُرفة ولا شيء يكسو قدمي إلا زوج الجوارب، وتبعَتني الهِرَّة.

لأَصِلَ إلى غُرفتي في الليلة السابقة صعدتُ إلى أعلى، ثم انعطَفتُ يسارًا عند قِمَّة السلالم، والآن انعطَفتُ يمينًا ومرَرتُ بغُرفة نوم لِتي، (وكان الباب موارَبًا والغُرفة خالية)، واتَّجَهتُ صوب السلالم.. لكنها لم تَكُن موجودة في المكان الذي أذكُره، وكان الرُّواق ينتهي بحائطٍ مُصمَت ونافذةٍ تُطِلُّ على الغابة والحقول.

Twitter: @ketab_n

ماءَت الهِرَّة السوداء ذات العينين الخضراوين المُزرَقَّتين بصوتٍ عالٍ كأنها تَبغي لَفت انتباهي، واستدارَت ناحية الرُّواق بمشيةٍ مختالةٍ وقد رفعَت ذيلها عاليًا، وقادَتني عَبر الردهة وحول رُكن وخلال مَمَرٍّ لم أرَه من قبل إلى سُلَّم، وتواثبَت بلُطفٍ نازلةً الدَّرجات فتَبِعتها.

كانت چيني هِمپستوك واقفةً أسفل السُّلَّم، وقالت:

- «نِمْتَ نومًا طويلًا هنيئًا. لقد حلبنا الأبقار بالفِعل، وإفطارك يَنتَظِرك على الطاولة، وثمَّة صحن من القِشدة عِند المدفأة من أجل صديقتك الصغيرة».

- «أين لِتي يا مسز هِمپستوك؟».

- «في الخارِج تقوم بمهمَّة، تُحضِر أشياءَ قد تحتاج إليها. ذلك الشيء في منزلك يجب أن يرحل، وإلا ستقع متاعب ويأتي ما هو أسوأ. لقد قيَّدَته لِتي مرَّةً بالفِعل وتحرَّرَ من قيوده، لذا عليها أن تُعيده إلى داره».

قلتُ:

- «لا أريدُ إلَّا أن ترحل إرسولا مونكتن. إنني أكرهها».

مَدَّت چيني هِمپستوك إصبعًا ومرَّرَته على سُترتي قائلةً:

- «لا أحد يرتدي مِثل هذه الملابس في هذه الأنحاء في أيامنا هذه، لكن أمي ألقَت عليها سِحرًا فلن تسترعي انتباه أحد. يُمكنك أن تتجوَّل بها كما تشاء، ولن يَلحَظ أحد إطلاقًا أنها تبدو غريبة. لا حذاء؟».

- «لم يَكُن على مقاس قدميَّ».

Twitter: @ketab_n

- «سأترُكُ شيئًا يُناسِبك عِند الباب الخلفي إذن».

- «شكرًا».

قالت:

- «إنني لا أكرهها. إنها تفعل ما تفعله طِبقًا لطبيعتها. لقد كانت نائمةً واستيقظَت، وتُحاوِل الآن أن تُعطي الجميع ما يرغبون فيه».

- «هي لم تُعطِني أيَّ شيءٍ أرغبُ فيه. تقول إنها تريد أن تضعني في العِلِّيَّة».

- «وإن يَكُن. لقد كنتَ طريقها إلى هنا، ومن الخطر أن يكون المرء بابًا».

ونقرَت بسبَّابتها على صدري فوق القلب مُرْدِفَةً:

- «ولقد كانت أحسن حالًا حيث كانت. كان بإمكاننا إرسالها إلى دارها آمنةً -وقد فعَلنا هذا من قبل مع دستةٍ من نوعها- لكنها عنيدة ولا سبيل لتعليمها. حسنٌ، إفطارك على الطاولة. سأكونُ في الحقل ذي الفدادين التِّسعة إذا احتاجَني أحد».

كان هناك وعاء من الثَّريد على طاولة المطبخ، وإلى جواره صحن عليه قِطعة من قُرص عسلٍ ذهبي، وإبريق من القِشدة الصفراء الدَّسِمَة.

غرفتُ بالملعقة قِطعةً من قُرص العسل ومزجتها مع الثَّريد، ثم صبَبتُ القِشدة على المزيج.

أيضًا كان هناك توست مطهو تحت المِشواة كما كان أبي يفعل، ومربى التوت الأسود المصنوعة في البيت، بالإضافة إلى أفضل قدح شايٍ شربته في حياتي على الإطلاق. عِند المدفأة أخذَت الهِرَّة تَلعَق

Twitter: @ketab_n

من صحنٍ من الحليب القِشدي، وكانت تُقَرقِر بصوتٍ عالٍ جدًّا وصلَني عبر الغُرفة.

تمنَّيتُ لو كنتُ أستطيع القرير بدوري، وكنتُ لأُقَرقِر ساعتها.

جاءَت لِتي حاملةً حقيبة تسوُّقٍ من النوع القديم الذي لم يَعُد أحد يراه وكانت النساء كبيرات السِّنِّ يحملنه إلى السوق في الماضي؛ تلك الحقائب الكبيرة المنسوجة الأقرب إلى السِّلال المصنوعة من ليف نخل الرَّافية من الخارِج ومبطَّنة بالقُماش من الداخِل وتُحمَل بيدين من الحبال. كانت تلك السَّلَّة شِبه ممتلئةٍ عن آخِرها، وكانت وجنتا لِتي مخدوشتين وبدا أنها نزفَت وإن كان الدَّم قد جَفَّ، وبدَت في حالةٍ بائسة.

ألقَيتُ عليها التحيَّة، فقالت:

- «دعني أقول لك، إذا كنت تحسب أن ذلك كان مُسَلِّيًا، فهو لم يَكُن مُسَلِّيًا على الإطلاق. نباتات اليَبْروح مُزعِجة جدًّا عندما تسحبها من التُّربة، ولم تَكُن معي سدادت أُذُن. وبمُجرَّد أن حصلتُ على نبتة اليَبْروح هذه بادَلتُها بزجاجة ظِلال، واحدةٍ من النوع القديم الذي يحوي ظِلالًا كثيرةً مُذَوَّبَةً في الخَل».

ودهنَت قِطعةً من التوست بالزبدة وهرسَت عليها قِطعةً من قُرص العسل الذَّهبي وبدأَت تَمضُغ مُتابِعةً:

- «وكلُّ هذا كي أَصِلَ إلى البازار فقط، والمَحال لم تفتح حتى بَعد، لكني حصلتُ على معظم ما أحتاجه من هناك».

- «هل يُمكنني أن أرى؟».

- «إذا أرَدت».

Twitter: @ketab_n

نظَرتُ داخِل السَّلَّة، فوجَدتُها ملأى باللُّعَب المكسورة: عيون ورؤوس وأيدي دُميً، سيَّارات بلا عجلات، بِلي زجاجي مكسَّر. مَدَّت لِتي يدها والتقطَت برطمان المربَّى من على إفريز النافذة، وفي داخِله تحرَّكَ الثُّقب الدودي الفِضِّي الشَّفَّاف والتوى والتَفَّ ودارَ. ألقَت لِتي البرطمان داخِل حقيبة التسوُّق مع اللُّعَب المكسورة، بينما نامَت الهِرَّة وتجاهلَتنا بالكامل.

قالت لِتي:

- «ليس من الضروري أن تأتي معي هذه المرَّة. يُمكنك البقاء هنا بينما أذهبُ وأتكلَّمُ معها».

فكَّرتُ قليلًا، ثم قلتُ:

- «سأشعُرُ بالأمان أكثر معكِ».

لم تَبْدُ مسرورةً بهذا، وقالت:

- «لنَذهَب إلى المُحيط».

فتحَت الهِرَّة عينيها شديدتيِّ الازرقاق المشوَّبتين بالأخضر، وحدَّقَت فينا بلا مبالاةٍ ونحن نمضي.

كان هناك حذاء أسوَد جِلدي طويل العُنُق كأحذية ركوب الخيل يَنتَظِرني عِند الباب الخلفي. بدا قديمًا لكن معتنًى به جيِّدًا، ويُناسِب مقاس قدميَّ بالضبط. انتعلته رغم أني كنتُ أشعُرُ بالرَّاحة أكثر وهناك صندل يُحيط بقدميَّ.

ثم إننا سِرنا معًا، لِتي وأنا، إلى مُحيطها، وبهذا أقصِدُ البِركة.

جلَسنا على المقعد الطويل القديم وتطلَّعنا إلى سَطح البِركة البُنِّي الخامِل والزنابق وغُثاء الطحالب عِند حافَّة الماء. فقلت:

Twitter: @ketab_n

- «أنتم يا عائلة هِمپستوك لستم بَشَرًا».

- «بل نحن كذلك طبعًا».

هزَزتُ رأسي قائلًا:

- «أُراهِنُ أن هذا ليس شكلكم الحقيقي حتى، ليس في الواقِع».

هَزَّت كتفيها وقالت:

- «لا أحد يبدو في الواقِع كما هو من الداخِل حقًّا، لا أنت ولا أنا. الناس أكثر تعقيدًا من ذلك بكثير، وهذا يَنطَبِق على الجميع».

- «هل أنتِ وحش؟ مِثل إرسولا مونكتن؟». سألت.

قذفَت لِتي حصاةً في الماء وأجابَت:

- «لا أَظُنُّ. الوحوش تأتي بجميع الأشكال والأحجام، بعضها أشياءَ يخافها الناس، بعضها أشياءَ تبدو كأشياء كان الناس يخافونها منذ زمنٍ طويل، وفي بعض الأحيان تكون الوحوش أشياءَ من الحَرِيِّ بالناس أن يخافوها، لكنهم لا يفعلون».

قلتُ:

- «من الحَرِيِّ بالناس أن يخافوا من إرسولا مونكتن».

- «ربما. وما الذي تخافه إرسولا مونكتن في رأيك؟».

- «لا أدري. لِمَ تَحسَبينها تخاف أيَّ شيءٍ أصلًا؟ إنها كبيرة، أليس كذلك؟ الكِبار والوحوش لا يخافون شيئًا».

- «أوه، الوحوش تخاف، ولهذا السَّبب هي وحوش. أمَّا بالنِّسبة للكِبار..»، وبترَت عبارتها وحكَّت أنفها المنمَّش بإصبعها، ثم

Twitter: @ketab_n

استطردَت: «سأُخبِرك بشيءٍ مهم. الكِبار لا يبدون كِبارًا من الداخِل كذلك. من الخارِج تَجِدهم ضِخامًا طائشين ويَعرِفون ماذا يفعلون دائمًا، ومن الداخِل يبدون كما كانوا طوال الوقت، عندما كانوا في سِنِّك. الحقيقة أنه ليس هناك أيُّ كِبارٍ أصلًا، ولا واحد فقط في هذا العالم الواسع بأَسرِه».

وفكَّرَت لحظةً ثم ابتسمَت مضيفةً:

- «باستثناء جَدَّتي طبعًا».

جلَسنا هناك جنبًا إلى جنبٍ على المقعد الخشبيِّ القديم من دون أن نقول شيئًا. دارَت أفكاري حول الكِبار، وتساءَلتُ إن كان هذا صحيحًا، إن كانوا بحقٍّ أطفالًا مُغلَّفين بأجساد كِبار ككُتُب الأطفال المخبَّأة بين كُتُب الكِبار الطويلة المُمِلَّة التي لا تحوي أيَّ صُوَرٍ أو حوارات.

- «أُحِبُّ مُحيطي». قالت لِتي.

وعَرِفتُ أن وقتنا عِند البِركة قد انتهى.

قلتُ شاعِرًا كأنني أخذُل الطفولة بإقراري بهذا:

- «لكنه مجرَّد ادِّعاء رغم ذلك. بِركتك هذه ليست مُحيطًا. ليس من الممكن أن تكون كذلك. المُحيطات أكبر من البحار، وبِركتك مجرَّد بِركة».

مُغتاظةً قالت لِتي هِمبستوك:

- «إنه كبير بقَدر الحاجة».

ثم إنها تنهَّدَت وقالت:

Twitter: @ketab_n

- «يَحسُن أن نَشرَع في إرسال إرسولا.. إرسولا لا أعرف تلك، إلى حيث جاءَت».

وأضافَت بَعد لحظة:

- «أعرِفُ ما تخافه هي.. أَوَتدري؟ أنا أيضًا أخافهم».

لم تَكُن الهِرَّة موجودةً في أيِّ مكانٍ عندما عُدنا إلى المطبخ، لكن القِطَّة ذات لون الضباب كانت جالسةً على عتبة النافذة تَرمُق العالم في الخارِج. كانت أغراض الإفطار قد رُتِّبَت كلها ووُضِعَت في أماكنها، بينما كانت منامتي الحمراء ومعطفي المنزلي يَنتَظِراننني وقد طُوِيا بعنايةً على الطاولة في كيسٍ ورقيٍّ بُنِّيٍّ كبير، ومعهما فرشاة أسناني الخضراء.

سألتُ لِتي:

- «إنك لن تسمحي لها بالنَّيل مني، أليس كذلك؟».

هَزَّت رأسها نفيًا، ومعًا سِرنا إلى أعلى الدَّرب الملتفِّ المُعَبَّد بأحجار الصوَّان الذي يقود إلى منزلي والشيء الذي يُسَمِّي نفسه إرسولا مونكتن. حملتُ معي الكيس الورقي وفيه ثياب النوم، بينما كانت لِتي تحمل حقيبة التسوُّق المصنوعة من ليف الرَّافية -الكبيرة جدًّا عليها- والتي امتلأَت باللُّعَب المكسورة التي حصلَت عليها مقابل نبتة يَبْروح تَصرُخ وظِلالٍ ذائبةٍ في الخَل.

الأطفال -كما قلتُ- يَسلُكون الطُّرُق الخلفيَّة والمجازات الخفيَّة، بينما يَسلُك الكبار الطُّرُق والسُّبُل الرَّسميَّة. هكذا انحرَفنا عن الدَّرب، وأخَذنا سِكَّةً مُختصَرةً تَعرِفها لِتي قادَتنا عَبر الحقول، ثم خلال الحدائق الواسعة المهجورة المحيطة بمنزلٍ متداعٍ يملكه رجلٌ

Twitter: @ketab_n

ثري، ثم عُدنا إلى الدَّرب مُجَدَّدًا، وخرَجنا أمام المكان الذي عبرتُ فيه السُّور المعدني.

تشمَّمَت لِتي الهواء وقالت:

- «لا هَوام بَعد. هذا جيِّد».

- «من الهَوام أصلًا؟».

اكتفَت بأن قالت:

- «ستَعرِفها عندما تراها، وأتمنَّى ألَّا تراها أبدًا».

- «هل سنتسَلَّل إلى الداخِل؟».

- «ولِمَ نفعل ذلك؟ سنَصعَد إلى ممرِّ السيَّارات ونَدخُل من الباب الأمامي كأبناء الطَّبقة العُليا».

بدأنا السَّير في ممرِّ السيَّارات، وقلتُ:

- «هل ستُلقين تعويذةً لتَصرِفها؟».

قالت بصوتٍ لاحَ فيه شيء من خيبة الأمل:

- «إننا لا نَستَخدِم التعاويذ. أحيانًا نَستَخدِم الوصفات، لكن لا تعاويذ أو طلاسم. جَدَّتي لا تُوافِق على هذه الأشياء، تقول إنها.. إنها مبتذَلة».

- «ما الأشياء التي في حقيبة التسوُّق إذن؟».

- «إنها لمَنْعِ الأشياء من التنقُّل عندما تريد مَنعها، نَرسُم بها الحدود».

في نور شمس الصباح بدا منزلي مُرَحِّبًا ودودًا بطوبه الأحمر

Twitter: @ketab_n

الدافئ وسَقفه القرميدي الأحمر. مَدَّت لِتي يدها داخِل حقيبة التسوُّق وأخرجَت بِليةً غرسَتها في التُّربة التي كانت لا تزال رَطْبَةً. ثم إنها، بدلًا من دخول المنزل، انعطفَت يسارًا وسارَت على حافَّة أرضنا، وتوقَّفنا عند الرُّقعة التي يَزرَع فيها مستر وولِري الخضروات، وأخرجَت لِتي شيئًا آخَر من الحقيبة: جِسم دُميةٍ بلا رأسٍ أو ساقين، وذات يدين مضغَهما أحدهم حتى شوَّههما، ودفنَتها لِتي تحت نباتات البازلاء.

قطَفنا بعض قرون البازلاء وفتحناها وأكلنا حبَّات البازلاء في داخِلها. كانت البازلاء تُثير حيرتي، إذ لم أكُن أستَوعِبُ لِمَ يَأخُذ الكبار شيئًا مذاقه شديد الحلاوة وهو لا يزال طازجًا بعد القطاف ونيِّئًا، ويضعونه في عُلَبٍ من الصفيح ويجعلونه مُقَزِّزًا.

وضعَت لِتي زرافةً صغيرةً -من النوع الذي تجده في لُعَبِ حديقة الحيوان أو سفينة نوح- في سقيفة الفحم تحت كُتلةٍ كبيرةٍ من الفحم. كان هواء السَّقيفة مُفعَمًا برائحة الرطوبة والسَّواد والغابات العتيقة المقهورة.

- «هل ستَجعَلها هذه الأشياء ترحل؟».

- «كلا».

- «فيمَ استخدامها إذن؟».

- «لمَنْعها من الرحيل».

- «لكننا نُريدها أن ترحل!».

- «كلا، بل نُريدها أن تعود إلى دارها».

تفَرَّستُ في ملامحها، في شَعرها الأحمر المائل إلى البُنِّي وأنفها

Twitter: @ketab_n

الأفطس والنَّمَش في وجهها. بدَت أكبر مني بثلاثة أو أربعة أعوام، ولربما كان عُمرها ثلاثة أو أربعة آلاف عام، أو أكبر من هذا بألف ضِعف. كنتُ لأَثِق بها لو اصطحبَتني حتى بوَّابات الجحيم ذهابًا وعودةً، ومع ذلك..

قلتُ:

- «ليتكِ تُفَسِّرين بوضوح. إن كلامكِ مُلَغَّزٌ طوال الوقت».

على أني لم أكن خائفًا، وإن لم أكن لأستطيع إخبارك بسبب عدم خوفي. كنتُ أَثِقُ بلِتي، تمامًا كما وثقتُ بها عندما ذهبنا بحثًا عن الشيء الخفَّاق تحت السَّماء البرتقاليَّة. كنتُ مؤمنًا بها، وكان هذا يعني أن لا أذىً سوف يُصيبني وأنا معها. كنتُ أعرِف هذا كمعرفتي بأن العُشب أخضرَ، وأن الورد له أشواك خشبيَّة حادَّة، وأن حبوب الإفطار حُلوة الطَّعم.

دخَلنا منزِلي من الباب الأمامي الذي لم يَكُن موصدًا، (ولا أذكُرُ أنه كان يوصَد أبدًا ما لم نكن قد سافَرنا في عُطلةٍ ما)، وتوجَّهنا إلى الداخِل.

كانت أختي تتمرَّن على البيانو في الغُرفة الأماميَّة. دخَلنا وسَمِعَتنا، فكَفَّت عن عَزْفِ مقطوعة *Chopsticks* والتفتَت إلينا، ورمقَتني بفضولٍ وسألَت:

- «ماذا حدثَ ليلة أمس؟ حَسِبتُ أنك في مشكلة، لكن ماما وبابا عادا بَعدها بينما قضيت أنت الليلة عِند أصدقائك. لماذا قالا إنك قضيت الليلة عِند أصدقائك؟ أنت بلا أيِّ أصدقاء!».

ثم إنها لاحظَت لِتي هِمبستوك، فقالت:

- «من هذه؟».

Twitter: @ketab_n

قلتُ لها:

- «صديقتي. أين الوحش الرهيب؟».

قالت أختي:

- «لا تَقُل هذا عنها، فهي لطيفة. إنها غافية الآن».

لاحَظتُ أن أختي لم تُعَلِّق إطلاقًا على ملابسي الغريبة.

أخرجَت لِتي هِمبستوك آلة إكسليفون مكسورةً من حقيبة التسوُّق، وألقَتها فوق كومة اللُّعَب التي تكدَّسَت بين البيانو وصندوق اللُّعَب الأزرق ذي الغطاء المفصول، ثم قالت:

- «حسنٌ، حان الوقت لنَذهَب ونُلقي التحيَّة».

شعرتُ بباكورة الخوف الخافتة تتحرَّك داخِل صدري وعقلي، وقلتُ:

- «تَقصِدين أن نَصعَد إلى غُرفتها؟».

- «أجل».

- «وما الذي تفعله هناك؟».

أجابَت لِتي:

- «تفعل أشياءَ بحياة الناس؛ السُّكَّان المحليِّين فقط حتى الآن. إنها تَعثُر على ما يَحسَبون أنهم يحتاجونه وتُحاوِل أن تَمنَحهم إياه، وتفعل هذا كي تُحَوِّل العالم إلى مكانٍ تكون أسعد فيه، مكانٍ أكثر راحةً لها، مكانٍ أكثر نظافةً. كما أنها لم تَعُد تُبالي كثيرًا بإعطائهم أموالًا. ما تَهتَمُّ به الآن هو إيذاء الناس».

Twitter: @ketab_n

مع صعودنا السلالم وضعَت لِتي شيئًا على كلِّ درجة: بِليةً زجاجيَّةً شفَّافةً ذات خطٍّ أخضرَ مائلٍ من الداخِل، واحدًا من تلك الأشياء المعدنيَّة التي كانت تُستَخدَم في لعبة الچاكس، خرزةً، زوجًا من أعين الدُّمى الزرقاء اللامعة مربوطًا من الخلف بالبلاستِك الأبيض لجَعلهما تَنفَتِحان وتَنغَلِقان، مغناطيسًا أحمرَ وأبيضَ صغيرًا على شكل حدوة الحصان، حصاةً سوداء، شارةً من النوع الذي يأتي مُلصَقًا ببطاقات أعياد الميلاد عليه عبارة "*أنا في السابعة*"، دفتر بِقاب، خنفساء مرقَّطةً من البلاستِك ذات مغناطيسٍ أسودَ في القاعدة، سيَّارةً لُعبةً نِصف مسحوقةٍ بلا إطارات، وأخيرًا جُنديًّا من الرَّصاص تَنقُصه ساق.

وصَلنا إلى قِمَّة السلالم وكان باب غُرفة النوم مُغلَقًا، وقالت لِتي:

- «إنها لن تضعك في العِلِّيَّة».

وفتحَت الباب من دون أن تَطرُقه، ودخلَت غُرفة النوم التي كانت لي سابقًا، وتَبِعتُها مُتَرَدِّدًا.

كانت إرسولا مونكتن مُسْتَلْقِيَةً على الفِراش مُغمَضة العينين. كانت أول امرأةٍ بالغةٍ -غير أمي- أراها عاريةً، وحدَّقتُ فيها بفضول، لكن الغُرفة كانت أكثر إثارةً لانتباهي منها.

كانت غُرفة نومي القديمة، لكنها لم تَكُن كذلك في الآن نفسه، أو أنها لم تَعُد كذلك. كان هناك الحوض الأصفر الصغير الذي يُناسِب حجمي تمامًا، والجدران لا تزال بلون أزرق بيضة طائر أبي الحِنَّاء كما كانت دومًا عندما كانت الغُرفة لا تزال غُرفتي، لكن الآن كانت هناك شرائط من القُماش تتدلَّى من السَّقف.. شرائط قُماش رماديَّة ممزَّقة

Twitter: @ketab_n

تبدو كالضَّمَّادات، بعضها يَبلُغ طوله قدمًا واحدًا والبعض الآخَر مُنسَدِل حتى الأرض تقريبًا.

كانت النافذة مفتوحةً وحفيف الرِّيح يَدفَع تلك الشرائط ليجعلها تتمايَل بلونها الرَّمادي، فبدَت الغُرفة كأنها تتحرَّك كخيمةٍ أو سفينةٍ في البحر.

قالت لِتي:

- «يجب أن ترحلي الآن».

اعتدلَت إرسولا مونكتن جالسةً على الفِراش، ثم فتحَت عينيها اللتين كانتا الآن بلون شرائط القُماش المُدَلَّاة ذاته، وقالت بصوتٍ لا يزال يحمل آثار النوم:

- «كنتُ أتساءَلُ عما ينبغي أن أفعله كي آتي بكما معًا إلى هنا، وها قد جِئتما».

قالت لِتي:

- «ليس أنتِ من أتى بنا إلى هنا. لقد جِئنا لأننا أرَدنا هذا، وقد جِئْتُ لأُعطيك فرصةً أخيرةً لتَرحَلي».

رَدَّت إرسولا مونكتن بعنادٍ فَظٍّ كأنها طِفلة صغيرة جدًّا تريد شيئًا:

- «لن أذهب إلى أيِّ مكان. لقد جِئْتُ لتَوِّي، ولديَّ منزل الآن، وحيوان أليف. أبوه شيء لطيف للغاية حقًّا. إنني أَهِبُ الناس السعادة. ما مِن شيء مِثلي في هذا العالم بأكمله. كنتُ أبحثُ الآن بالذَّات عندما دخلتما، وأنا الوحيدة من نوعي ها هنا. إنهم لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم، ولا يَعرِفون كيف، لذا فهذا أفضل مكانٍ لي في الكون كله».

Twitter: @ketab_n

ومنحَتنا ابتسامةً صافيةً. كانت جميلةً حقًّا بالنِّسبة لواحدةٍ من الكِبار، لكن وأنت في السابعة يكون الجمال مفهومًا مُجَرَّدًا وليس إلزاميًّا. أتساءَلُ عما كنتُ لأفعله إذا أعطَتني ابتسامةً كتلك الآن، وإن كنتُ لأضع عقلي أو قلبي أو هويَّتي رَهن إشارتها مِثل أبي.

قالت لِتي:

- «تَعتَقِدين أن هذا العالم هكذا، تَعتَقِدين أنه سهل، لكنه ليس كذلك».

- «بل هو كذلك طبعًا. ماذا تقولين؟ إنكِ وعائلتكِ ستُدافِعون عن هذا العالم ضِدِّي؟ إنكِ الوحيدة التي تُغادِر حدود مَزرعتكم، وقد حاولتِ تقييدي من دون أن تَعرِفي اسمي. ما كانت أُمُّكِ لتتصرَّف بتلك الحماقة. أنا لا أخشاكِ أيتها الصغيرة».

مَدَّت لِتي يدها في أعماق حقيبة التسوُّق، ثم أخرجَت برطمان المربَّى ذا الثُّقب الدودي الشفَّاف في داخِله ورفعَته قائلةً:

- «ها هو طريق العودة. إنني أتعاملُ بكَرَم ولُطْفٍ الآن، ثِقي بي. خُذيه. لا أظُنُّ أن هناك مكانًا أقرب لدارِكِ من المكان الذي التقينا بكِ فيه تحت السَّماء البرتقاليَّة، لكنه بعيد بما فيه الكفاية. لا أستطيعُ إعادتكِ من هناك إلى المكان الذي جِئْتِ منه في المقام الأول -وقد سألتُ جَدَّتي فقالت إنه لم يَعُد موجودًا أصلًا- لكن بمجرَّد عودتكِ نستطيع أن نَجِدَ مكانًا لكِ، مكانًا مُشابِهًا تكونين فيه سعيدةً، تكونين فيه آمنةً».

نهضَت إرسولا مونكتن من الفِراش ووقفَت تتطلَّع إلينا. لم يَكُن هناك بَرق يحيط بها الآن، لكنها بدَت مخيفةً أكثر وهي تَقِف عاريةً في

Twitter: @ketab_n

غُرفة النوم تلك مما كانت وهي طافية في الهواء في قلب العاصفة. كانت كبيرةً.. لا، بل كانت أكثر من هذا.. كانت عجوزًا.. ولم أشعر بأني طِفل إطلاقًا كما شعرتُ لحظتها.

- «أنا سعيدة هنا، سعيدة جدًّا وإلى أقصى حَد». قالت ثم إنها أضافَت بلهجةٍ تكاد تكون آسفةً:

- «أمَّا أنتم فلا».

وسمعتُ صوتًا، صوت رفرفةٍ خَشِنٍ خافِت، وبدأَت شرائط القُماش تَفصِل نفسها عن السَّقف واحدًا تِلو الآخَر، وسقطَت وإنما ليس في خَطٍّ مستقيم، بل سقطَت نحونا من جميع أركان الغُرفة كأننا كنا مغناطيسين يَجذِبانها نحو جسدينا. هبطَ أول شريطٍ من القُماش الرَّمادي على ظَهر يدي اليُسرى والتصَق بها، فمدَدتُ يدي اليُمنى وأطبَقتُ عليه وجذَبته فتشبَّث بيدي لحظةً، ثم إنه أصدرَ صوت امتصاصٍ وأنا أنتَزِعه. وجَدتُ على ظَهر يدي لَطْخَةً حيث كان شريط القُماش، وكانت ذات لونٍ أحمَر كأني ظلَلتُ أمُصُّها بقُوَّةٍ لوقتٍ طويلٍ جدًّا، أطول وأقوى مما فعلتُ من قبل على الإطلاق، وانتشرَت فيها قطرات الدَّم الدَّقيقة. كانت هناك ثُقيبات حمر مبتلَّة لوَّنَت إصبعي إذ لمستها.. ثم إن شريطًا من قُماش الضَّمَّادات الطويل بدأ يُلصِق نفسه بساقيَّ، وابتعَدتُ بينما هبطَ شريط آخَر على وجهي وجبيني، ولَفَّ ثالث نفسه حول عينيَّ ليُعميني فأخَذتُ أجذِبه، إلَّا أن واحدًا آخَر طَوَّقَ مِعصَميَّ مُقَيِّدًا إياهما معًا، فصارت ذراعاي مُطَوَّقَتَيْن مُقَيَّدَتَيْن بجسدي، وتعثَّرتُ وسقَطتُ على الأرض.

كانت شرائط القُماش تُؤلِمني إذا حاولتُ انتزاعها..

Twitter: @ketab_n

وأضحى عالمي رماديًّا، واستسلَمتُ عندئذٍ. تمدَّدتُ في مكاني ولم أتحرَّك، وركَّزتُ فحسب على التنفُّس من خلال الفراغ الذي تركَته شرائط القُماش لأنفي. كانت مُتَمَسِّكَةً بي، وأحسَستُ بأنها حيَّة.

تمدَّدتُ على البساط وأصغَيتُ، ولم يكن ثمَّة شيء آخَر يُمكنني أن أفعله..

سمعتُ إرسولا تقول:

- «أحتاجُ الولد آمنًا. لقد وعدتُ بأن أضعه في العِلِّيَّة، وسأفعلُ. لكن أنتِ يا فتاة المَزرعة الصغيرة، ماذا أفعلُ بكِ؟ شيئًا مُلائِمًا بالتأكيد. ربما يَجدُر بي أن أقلِب داخِلك إلى الخارِج، فيغدو كلٌّ من قلبكِ ومُخِّكِ ولحمكِ عاريًا مكشوفًا، ويصير جِلدك إلى الداخِل، ثم أحتفظ بكِ مُطَوَّقَةً ها هنا في غُرفتي وعيناك لا تُبصِران شيئًا غير الظَّلام في داخِلك، إلى الأبد. بإمكاني أن أفعل هذا».

قالت لِتي بنبرةٍ خطرَ لي أنها مشوبة بالحزن:

- «كلا، في الحقيقة ليس هذا بإمكانكِ. ولقد أعطيتكِ الفُرصة».

- «لقد هدَّدتِني، وما هي إلَّا تهديدات فارغة».

- «أنا لا أُهَدِّد. لقد أردتُ أن أعطيكِ الفُرصة حقًّا». قالت لِتي.

ثم إنها أردفَت:

- «عندما بحثتِ في العالم عن أشياءَ مِثلك، ألم تتساءَلي عن سبب عدم وجود أشياء أخرى قديمة؟ كلا، لم تتساءَلي ولو مرَّة، بل شعرتِ بسعادةٍ بالغةٍ لوجودكِ أنتِ فقط ولم تُفَكِّري. دائمًا ما تُطلِق جَدَّتي على أشباهكِ اسم البراغيث يا سكارثاخ ابنة القلعة. أعني أنها تستطيع أن تُطلِق عليكم أيَّ اسم، لكني أحسبُ أنها تحسبُ البراغيث

Twitter: @ketab_n

طريفةً. إنها لا تَهتَمُّ بنوعكِ، وتقول إنكم غير ضارِّين لكنكم أغبياء نوعًا، لأن هناك أشياءَ تَأكُل البراغيث في هذه البُقعة من الكون: الهَوام كما تُسَمِّيهم جَدَّتي. إنها لا تُحِبُّهم على الإطلاق، وتقول إنهم لِئام ومن الصَّعب التخلُّص منهم، وإنهم جائعون دائمًا».

- «لستُ خائفةً»، قالتها إرسولا مونكتن بصوتٍ خائف، ثم أضافَت: «كيف عرفتِ اسمي؟».

- «ذهبتُ لأبحث عنه هذا الصباح، وذهبتُ لأبحث عن أشياءَ أخرى كذلك، بعض مؤشِّرات الحدود تمنعكِ من الفرار بعيدًا والوقوع في المزيد من المتاعب، بالإضافة إلى أثرٍ من فُتات الخُبز يقود إلى هذه الغُرفة مباشرةً. والآن افتحي برطمان المربَّى هذا وأخرِجي المدخل ودعينا نُعيدك إلى دارك».

انتظَرتُ أن تستجيب إرسولا مونكتن، لكنها لم تَقُل شيئًا. لم أسمع إجابةً، بل صوت بابٍ يُصفَق ووَقع قدمين تَعدُوان على السلالم بسرعةٍ وقُوَّة.

كان صوت لِتي قريبًا مني وهي تقول:

- «كان من الخير لها أن تَظَلَّ هنا وتَقبَل عرضي».

شعرتُ بيديها تَجذِبان القُماش عن وجهي، فانخلَع بصوت الامتصاص والبلل لكنه لم يَعُد حيًّا، ثم سقطَ أرضًا وظَلَّ هناك بلا حراك. لم تَكُن هناك قطرات دماء على جِلدي هذه المرَّة، وأسوأ ما حدثَ أن ذراعيَّ وساقيَّ أصيبَت بالتَّنميل.

ساعدَتني لِتي على النهوض، ولم تَبدُ راضيةً.. فسألتها:

Twitter: @ketab_n

- «أين ذهبَت؟».

- «اقتفَت الأثر إلى خارِج المنزل. إنها خائفة. المسكينة خائفة للغاية».

- «أنتِ أيضًا خائفة».

- «قليلًا، نعم. أتوقَّعُ أنها ستكتَشِف الآن أنها حبيسة داخِل الحدود التي وضَعتُها».

خرَجنا من غُرفة النوم، وحيث كان الجُندي اللُّعبة عِند أعلى السلالم، كان هناك مَزْق الآن. هذا أفضل ما أستطيع أن أصِفه به: كأن أحدًا قد التقطَ صورةً للسلالم ثم اقتلَعَ منها الجُندي، ولم يَعُد في المكان الذي احتلَّه الجُندي من قبل شيء سوى لونٍ رماديٍّ مُعتِم كان يُؤلِم عينيَّ إذا تطلَّعتُ إليه طويلًا.

- «وما الذي تخافه؟».

- «كما سَمِعت، الهَوام».

- «هل تخافين الهَوام يا لِتي؟».

تردَّدَت لوهلةٍ أطول من اللازم، ثم أجابَت ببساطة:

- «أجل».

- «لكنكِ لا تخافينها هي، إرسولا».

- «لا يُمكنني أن أخافها أصلًا. كما قالت جَدَّتي، إنها كالبرغوث، مُنتَفِخة بالغرور والسُّلطة والشَّهوة كما يَنتَفِخ البرغوث بالدَّم، لكنها لا تَقدِر على أذيَّتي. لقد طردتُ عشراتٍ من نوعها في حياتي. واحد مثلها جاء في أيام كرومِل، واحد يَستَحِقُّ الكلام عنه فِعلًا. كان

Twitter: @ketab_n

يُصيب الناس بالوحدة، فيُؤلِمون أنفسهم فقط كي تتوقَّف الوحدة. كانوا يَقلَعون أعينهم أو يَقفِزون في الآبار، بينما يجلس الوغد الخبيث القرفصاء طوال الوقت في قبو خان الدوكس هِد باديًا كضُفدعٍ كبير ككلب البولدوج».

كنا الآن أسفل السلالم نمشي في الرُّواق، وسألتها:

- «كيف تَعرِفين المكان الذي ذهبَت إليه؟».

- «أوه، إنها لا تستطيع تجاوُز الحدود التي رسَمتُها لها».

كانت أختي لا تزال في الغُرفة الأماميَّة تَعزِف مقطوعة *Chopsticks* على البيانو.

دا دا دم دا دا

دا دا دم دا دا

دا دا دم دا دم دا دم دا دا

خرَجنا من الباب الأمامي، وتابعَت لِتي:

- «كان مؤذيًا حقًّا ذلك البرغوث في أيام كرومِل، لكننا أخرَجناه من هناك قبل مجيء طيور الجوع مباشرةً».

- «طيور الجوع؟».

- «من تُسَمِّيهم جَدَّتي الهَوام. إنهم المُنَظِّفون».

لم يَبْدُ لي أنهم سيِّئون. كنتُ أعرِف أن إرسولا مونكتن تخافهم، لكني لم أشعُر بالخوف منهم، فلِمَ عساي أن أخاف المُنَظِّفين؟

Twitter: @ketab_n

XI

أدرَكنا إرسولا مونكتن في الحديقة عِند شُجيرات الورد. كانت تَحمِل برطمان المربَّى والثُّقب الدُّودي الطَّافي في داخِله، وبدا شكلها غريبًا. كانت تَشُدُّ الغطاء بقُوَّة، ثم توقَّفَت ورفعَت عينيها إلى السَّماء، ثم عادَت تَنظُر إلى البرطمان من جديد.

جرَت إلى شجرة الزَّان ذات السُّلَّم المصنوع من الحبال، وألقَت البرطمان بكلِّ ما لديها من قُوَّةٍ على الجِذع كأنها تُحاوِل كسره، لكنها لم تَنجَح، وارتدَّ البرطمان ببساطةٍ وحَطَّ على الطُّحلُب الذي يُغَطِّي الجذور المُتشابِكة جزئيًّا، وظَلَّ هناك من دون أن يُصيبه أيُّ أذى.

حملقَت إرسولا مونكتن في وجه لِتي وقالت:

- «لماذا؟».

أجابَتها:

- «أظُنُّكِ تَعرِفين لماذا».

- «لماذا سمحتِ لهم بالدخول؟».

Twitter: @ketab_n

وبدأت تَبكي، فشعرتُ بالانزعاج. لم أكن أعرِفُ ماذا أفعلُ عندما يَبكي الكِبار. كان هذا شيئًا سبقَت لي رؤيته مرَّتين فحسب قبلها في حياتي، فقد رأيتُ جَدَّيَّ يَبكيان عندما ماتت عمَّتي في المستشفى، ورأيتُ أمي تَبكي. كنتُ أعرِفُ أنه لا يَجدُر بالكِبار أن يَبكوا، فليس لديهم أُمَّهات تُواسِيهم.

تساءَلتُ إن كان لإرسولا مونكتن أُم. كان الوحل يُغَطِّي وجهها ورُكبتيها، وكانت تَنتَحِب.

سمعتُ صوتًا على مسافةٍ منا، غريبًا وغير مألوف، صوتًا وتريًّا واطئًا كأن أحدهم داعَب وترًا مشدودًا.

قالت لِتي هِمبستوك:

- «لن تكون أنا من تسمح لهم بالدخول. إنهم يَذهَبون حيثما شاءوا. في المعتاد لا يأتون إلى هنا أصلًا لأنه لا يوجد شيء يَأكُلونه، لكن هناك الآن».

- «أعيديني»، قالتها إرسولا مونكتن، والآن لم أعُد أحسب أنها تبدو بشريَّةً ولو قليلًا. كان وجهها غير سليم بشكلٍ ما، كأنه عبارة عن تركيبةٍ عَرَضِيَّةٍ من الملامح جعلَتني أتصوَّر أنني أرى وجهًا بشريًّا، كالثنيات الحلزونيَّة والكُتَل الرَّمادية المكسوَّة بالعُقَد على جانِب شجرة الزَّان، أو النُّقوش الموجودة في اللوح الرأسي الخشبي الخاص بالفِراش في منزل جَدَّيَّ، التي إذا نظَرتُ إليها من زاويةٍ خطأ في نور القَمر كانت تُريني رجلًا هَرِمًا فغرَ فاه عن آخِره كأنه يَصرُخ.

التقطَت لِتي برطمان المربَّى من الطُّحلُب الأخضر وأدارَت الغطاء قائلةً:

Twitter: @ketab_n

- «جعلتيه يَعلَق تمامًا».

واتَّجهَت إلى الممرِّ الصَّخري، وقلبَت البرطمان بحيث صارت تمسِكه من قاعدته، وبِثِقَةٍ طرقَت به مرَّةً والغطاء إلى أسفل على الأرض، ثم عدلَته وأدارَت الغطاء من جديد، وهذه المرَّة انخلَعَ الغطاء في يدها.

ثم إنها ناولَت البرطمان لإرسولا مونكتن، التي مَدَّت يدها داخِله وأخرجَت الشيء الشَّفَّاف الذي كان ثُقبًا في قدمي ذات مرَّة، والتفَّ الشيء وتلوَّى وانثَنى مسرورًا -على ما يبدو- بلمستها، وألقَته هي أرضًا وسقطَ على العُشب، وبدأ الشيء يتضخَّم.. إلَّا أنه لم يتضخَّم حقًّا، بل تغيَّر كأنه كان على مقربةٍ مني أكثر مما حَسِبتُ. كان باستطاعتي أن أرى من خلاله من أقصاه إلى أقصاه، وكان بإمكاني أن أجري عَبره لو لم يَكُن طرف النَّفَق الآخَر ينتهي بسماءٍ برتقاليَّةٍ قاسية.

شعرتُ بالوَخْزِ في صدري مرَّةً أخرى وأنا أرمُقه. كان إحساسًا باردًا كالثَّلج، كأني التهَمتُ كميَّةً ضخمةً من الآيس كريم جمَّدَت أحشائي من الداخِل.

ثم عمدَت إرسولا مونكتن إلى فم النَّفق.. (لكن أنَّى لهذا الثُّقب الدُّودي الضَّئيل أن يكون نفقًا؟ لم أفهم حقًّا. كان لا يزال مجرَّد ثُقبٍ دوديٍّ أسودَ وفِضِّيٍّ شفَّافٍ يَلتَمِع على العُشب، لا يزيد طوله على قدمٍ أو بعض قدم. أعتَقِدُ أن المشهد كان يبدو كأني كنتُ أنظُرُ من خلال عدسة «تزويم» إلى شيءٍ صغير الحجم، لكنه في الآن نفسه كان نفقًا كبيرًا يُمكنك أن تَدخُله حاملًا معك منزلًا كاملًا).

ثم إنها توقَّفَت وانتحبَت..

Twitter: @ketab_n

لم تَقُل إلَّا: «طريق العودة..»، ثم أضافَت: «.. غير مُكتَمِل.. إنه مكسور.. بقيَّة البوَّابة ليست هنا..»، وتطلَّعَت حولها بحِيرةٍ وارتباكٍ قبل أن تُرَكِّز نظراتها عليَّ؛ ليس على وجهي بل على صدري.. وابتسمَت.

ثم بدأَت تَرتَجُّ. في لحظةٍ كانت امرأةً بالغةً، عاريةً ملوَّثةً بالوحل، وفي التالية -كأنها مظلَّة بلون اللحم- انبسطَت.

وإذ انبسطَت، مَدَّت يدها وأمسكَتني وجذبَتني إلى أعلى بعيدًا عن الأرض، ومدَدتُ يدي خوفًا وأمسَكتُ بها بدوري.

كنتُ أتمسَّكُ بلحمٍ بَشَريٍّ على ارتفاع خمس عشرة قدمًا أو أكثر من الأرض، بارتفاع شجرة.

لكن ما أتمسَّكُ به لم يَكُن لحمًا..

كان قُماشا قديمًا، شراعًا مُتَهَرِّئًا عَفِنًا، ومن تحته شعرتُ بملمس الخشب. لم يكن خشبًا سليمًا صُلبًا، لكن الخشب النَّخِر القديم الذي كنتُ أجِده حيثما كانت هناك أشجار مُحطَّمَة، ذلك النوع مبتلُّ الملمس دائمًا الذي كان يُمكنني تفتيته بأصابعي، الخشب الطري المليء بالخنافس وقَمل الخشب وانتشرَ فيه الفِطر الشبيه بالخيوط.

أخذَ الشيء يَصِرُّ ويترنَّح وهو يَحمِلني، وقال لِتي هِمبستوك: **لقد سددتِ الطُّرُق.**

قالت لِتي:

- «لم أَسُدَّ أيَّ شيء. إن صديقي معكِ، فضعيه أرضًا».

كانت تَبعُد عني كثيرًا في وقفتها بالأسفل، وكنتُ خائفًا من المرتفَعات ومن المخلوق الذي يَحمِلني.

Twitter: @ketab_n

- **الممرُّ غير مُكتَمِل. الطُّرُق مسدودة.**

- «ضعيه أرضًا.. الآن.. بأمان».

- **إنه يُكَمِّل الممرَّ. الممرُّ في داخِله.**

كنتُ واثقًا حينئذٍ من حتميَّة هلاكي..

لم أكن أريدُ أن أموت. كان أبواي قد قالا لي إنني لن أموت حقًّا، ليس أنا الحقيقي، إن لا أحد يموت حقًّا حينما يحين أجَله، إن كلًّا من هِرِّي ومُعَدِّن الأوپال قد اتَّخَذ جسدًا جديدًا وسيعود من جديد عمَّا قريب. لم أكُن أعرِفُ إن كان ذلك صحيحًا أم لا، وكلُّ ما كنتُ أعرِفه أني اعتَدتُ على كوني أنا، وأني أُحِبُّ كُتُبي وأجدادي ولِتي هِمپستوك، وأن الموت سوف يَسلُب كلَّ هذه الأشياء مني.

- **سأفتَحه. الطَّريق مكسور، وما زالت بقيَّته في داخِله.**

كنتُ لأَركُل، لكن لم يَكُن هناك ما أَركُل قُبالته. بأصابعي جذَبتُ الطرف الذي كان يُمسِكني، لكن أظفاري انغرسَت في قُماش عَفِنٍ وخشبٍ طريٍّ، ومن تحتهما شيء صُلب كالعظام، وتمسَّكَ بي المخلوق بإحكام.

صرَختُ:

- «دعيني! دعيني!».

- لا.

صرَختُ: «ماما!»، وصرَختُ: «بابا!»، ثم صرَختُ: «لِتي، اجعليها تَترُكني!».

لم يَكُن أبواي هناك، لكن لِتي كانت كذلك، وقالت:

Twitter: @ketab_n

- «سكارثاخ، ضعيه على الأرض. لقد أعطيتكِ الخيار من قبل. إعادتكِ إلى داركِ ستكون أصعب مع وجود نهاية النَّفق في داخِله، لكننا نستطيع أن نفعلها، وجَدَّتي تستطيع إذا عجزتُ أنا وأمي عن فِعلها، فضعيه على الأرض إذن».

- الطَّرف الآخَر في داخِله. إنه ليس نفقًا، لم يَعُد كذلك. إنه بلا نهاية. لقد ربَطتُ الممرَّ في داخِله جيِّدًا جدًّا عندما صنعته، وبقيَّته لا تزال في داخِله. لا يهم. كلُّ ما عليَّ فِعله كي أرحل من هنا أن أمُدَّ يدي داخِل صدره وأنتزِع قلبه النَّابض وأنهي الممرَّ وأفتح الباب.

كان الشيء الخفَّاق الذي بلا وجه يتكلَّم بلا كلمات، يتكلَّم داخِل رأسي مباشرةً، ومع ذلك كان ثمَّة شيء في كلماته ذكَّرَني بصوت إرسولا مونكتن الموسيقيِّ الجميل، وأدرَكتُ أن الشيء كان يعني ما يقوله.

قالت لِتي كأنها تقول للسماء أنها زرقاء:

- «لقد استنفدتِ كلَّ فُرَصِكِ».

ورفعَت إصبعين إلى شفتيها، وبصوتٍ عذبٍ صاخبٍ ثاقبٍ من فرط الحِدَّة أطلقَت صفيرًا.

وجاءوا كأنهم كانوا يَنتَظِرون نداءها..

في عنان السَّماء كانوا، وسُودًا.. سودًا كالقار.. سودًا حالِكين حتى إنهم بدوا كأنهم بُقَعٌ على عينيَّ أنا، وليسوا أشياءَ حقيقيَّة على الإطلاق. كانت لديهم أجنحة، لكنهم لم يكونوا طيورًا. كانوا كائناتٍ أعتق من الطيور، وكانوا يطيرون في دوائر وحلقات وأناشيط، عشرات منهم، أو مئات ربما، وببطءٍ شديدٍ جدًّا انحدَر كلُّ واحدٍ من هؤلاء الذين ليسوا بطيور.

Twitter: @ketab_n

وجَدتُ نفسي أتخيَّل واديًا مليئًا بالديناصورات قبل ملايين السنين، ديناصوراتٍ ماتت في المعركة أو بسبب المرض.

تخيَّلتُ أولًا جيف سحالي الرَّعد[1] المُتَحَلِّلَة الأكبر من الحافلات حجمًا، ثم كواسِر ذلك العَصر؛ سوداء مائلةً إلى الرَّمادي، عاريةً، مُجَنَّحَةً لكن بلا ريش، وجوهها آتية من عالم الكوابيس، لها خُطوم كالمناقير ملأى بأسنانٍ حادَّةٍ كالإِبَر خُلِقَت للانتزاع والتمزيق والالتهام، وعيون حمر جائعة. كانت تلك المخلوقات لتَنقَضُّ على جيف سحالي الرَّعد العظيمة ولا تَترُك منها شيئًا إلَّا العظام.

ضخامًا كانوا، وصقيلي الأجساد، وعتيقين، وآلَمَتني عيناي من النَّظر إليهم.

قالت لِتي هِمبستوك لإرسولا مونكتن:

- «الآن.. ضعيه أرضًا الآن».

لم تَصدُر حركة من الشيء الذي كان يَحمِلني توحي بأنه سيُسقِطني، ولم يَقُل شيئًا، وإنما تحرَّكَ بسرعةٍ كسفينةٍ طويلةٍ مُتَهَتِّكَة الأشرعة عَبر العُشب صوب النَّفَق. كنتُ أرى الغضب في ملامح لِتي هِمبستوك وقد ضَمَّت قبضتيها بقُوَّةٍ شديدةٍ جعلت مفاصلها تبيَض، وبالأعلى كنتُ أرى طيور الجوع تدور وتدور..

ثم إن أحدها انقضَّ من السَّماء، انقضَّ بسرعةٍ تفوق الخيال. شعرتُ بدفقةٍ من الهواء إلى جواري، ورأيتُ فَكًّا أسودَ أسودَ مليئًا بالإِبَر وعينين تَحتَرِقان كشُعلة الغاز، وسمعتُ صوت تمزيق كأن هناك

(1) سحالي الرَّعد: فصيلة من الديناصورات الكبيرة عاشت في العصر الجوراسي المتأخِّر قبل مئةٍ وخمسين مليون سنة.

Twitter: @ketab_n

ستارًا يُقَطَّع إِرَبًا، قبل أن يَندَفِع الشيء المُحَلِّق عائدًا إلى السَّماء مرَّة أخرى بقِطعةٍ طويلةٍ من القُماش الرَّمادي بين فَكَّيه.

سمعتُ صوت نحيبٍ داخِل رأسي وخارِجه، وكان صوت إرسولا مونكتن.

ثم انحدَروا عندئذٍ كأنهم كانوا يَنتَظِرون تحرُّك أول فردٍ من جماعتهم. سقطوا من السَّماء على الشيء الذي يَحمِلني، كوابيس تُمَزِّق كابوسًا، يَنتَزِعون شرائط من القُماش.. ووسط كلِّ هذا سمعتُ صراخ إرسولا مونكتن.

بخشونةٍ وخوفٍ كانت تقول: **لم أفعل شيئًا إلَّا إعطاءهم ما يحتاجونه. لقد منحتهم السعادة.**

- «لقد جعلتِ أبي يؤذيني»، قلتها والشيء الذي يَحمِلني يُلَوِّح مُحاوِلًا صَدَّ انقضاضات الكوابيس التي تُقَطِّع نسيجه. أخذَت طيور الجوع تُمَزِّقه تمزيقًا، كلٌّ منها يَنتَزِع بضعة شرائطٍ من القُماش بصمتٍ ثم يُحَلِّق بثِقَلٍ مرَّة أخرى إلى السَّماء ليدور ويُعاوِد الانقضاض من جديد.

قال لي الشيء: **لم أجعل أيهم يفعل شيئًا أبدًا**، وللحظةٍ خطرَ لي أنه يَضحَك مني، لكن الضَّحك استحال إلى صرخةٍ عاليةٍ جدًّا آلمَت أُذُنيَّ وعقلي.

وكأن الرِّيح تخلَّت عن الأشرعة البالية الممزَّقة عندها، وببطءٍ تداعَى الشيء الذي يَحمِلني نحو الأرض.

ارتطَمتُ بالأرض بقُوَّةٍ خادِشًا رُكبتيَّ وراحتيّ يديَّ، وشَدَّتني لِتي وأبعدَتني عن البقايا السَّاقطة المجعَّدة التي تخلَّفَت عن الشيء الذي كان يُطلِق على نفسه اسم إرسولا مونكتن.

Twitter: @ketab_n

كان لا يزال هناك بعض القُماش الرَّمادي، لكنه لم يكن مُجرَّد قُماش، فقد أخذَ يلتفُّ ويتلوَّى على الأرض حولي، لا تُطَيِّره أيُّ رياحٍ أشعُرُ بها إطلاقًا. كانت فوضى ملأى بالدِّيدان تتلوَّى.

حَطَّت طيور الجوع على البقايا كنوارسٍ على شاطئٍ ممتلئ بالأسماك الجانحة، وأخذَت تُمَزِّقها كأنها لم تَأكُل منذ ألف عامٍ وتحتاج لأن تُتخِم مَعِداتها بالطعام الآن لأن ألف عام أخرى أو يزيد قد تَمُرُّ قبل أن تذوق لُقمةً أخرى. أخذَت طيور الجوع تُمَزِّق الأشياء الرَّمادية، وفي عقلي سمعتُ صرخات المخلوق تتردَّد طوال الوقت والكائنات تحشو أفواهها الحادَّة بلحمه القُماشي النَّتِن.

كانت لِتي مُطْبِقَةً على ذراعي ولا تَنبِس ببنت شفة..

وانتظَرنا..

وعندما توقَّف الصُّراخ عَرِفتُ أن إرسولا مونكتن قد رحلَت إلى الأبد.

بمجرَّد أن فرغَت المخلوقات السود من التهام الشيء الواقع على العُشب، ولم يتبقَّ منه أيُّ شيءٍ ولو حتى قُصاصة واحدة ضئيلة من القُماش الرَّمادي، وجَّهَت اهتمامها نحو النَّفق الشفَّاف الذي أخذَ يتلوَّى ويتمعَّج ويَرتَعِش ككائنٍ حي. قبضَ عدد كبير منهم عليه بمخالبه وحَلَّقَ به رافعًا إياه إلى السَّماء، بينما أخذ بقيَّتهم يُمَزِّقونه ويَلتَهِمونه بشراهةٍ بأفواههم الجوعى.

حَسِبتُ أنهم سيُغادِرون عندما يَفرُغون منه ويعودون إلى المكان الذي أتوا منه، لكنهم لمْ يفعلوا، بل انحدَروا مرَّةً أخرى. حاوَلتُ أن أُحصيهم وهُم يَهبطون وفَشِلتُ. خطرَ لي أن هناك مئاتٍ منهم، لكن

Twitter: @ketab_n

لعلِّي كنتُ مُخطِئًا. لربما كان هناك عشرون منهم، ولربما كان هناك ألف. عجزتُ عن تفسير هذا. لعلَّهم جاءوا من مكانٍ لا تَنطَبِق فيه أشياء كالعَدِّ، مكانٍ خارِج الزَّمن والحساب.

وهبَطوا، وحدَّقتُ فيهم، لكني لم أرَ غير ظِلال..

ظِلال كثيرة للغاية..

وكانوا يُحَدِّقون فينا..

قالت لِتي:

- «لقد قُمتم بما جِئتم من أجله، حصلتم على فريستكم ونظَّفتم، فعودوا إلى دياركم الآن».

ولم تتحرَّك الظِّلال..

صاحَت لِتي:

- «اذهبوا!».

وظَلَّت الظِّلال على الأرض في مكانها من دون أن تتزَحزَح قيد أُنمُلة، والحقيقة أنها بدَت أكثر قُتْمًا الآن، وحقيقيَّةً أكثر من قبل.

- *ليست لديكِ سُلطة علينا.*

قالت لِتي:

- «قد يكون هذا صحيحًا، لكني استَدعَيتُكم إلى هنا، والآن أقولُ لكم أن تعودوا إلى دياركم. لقد التهَمتم سكارثاخ ابنة القلعة وأدَّيتم عملكم، فارحلوا».

- *نحن مُنَظِّفون، وقد جِئنا لنُنَظِّف.*

Twitter: @ketab_n

- «نعم، وقد نَظَّفتم الشيء الذي جِئتم من أجله، فعودوا إلى دياركم».

جاءَت الإجابة كتنَهُّد الرِّيح في خمائل زهور الورديَّة وحفيف العُشب: *ليس كلَّ شيء*.

التفتَت لِتي إليَّ وطوَّقَتني بذراعيها قائلةً:

- «هَلُمَّ، بسرعة».

قطَعنا الحديقة سريعًا، وقالت لِتي:

- «سآخُذك إلى حلقة الجِنِّيَّات. عليك أن تَنتَظِر هناك إلى أن آتي إليك. لا تُغادِر لأيِّ سبب».

- «ولِمَ لا؟».

- «لأن شيئًا سيِّئًا قد يَحدُث لك. لا أعتَقِدُ أني أقدِرُ على إعادتك إلى بيت المَزرعة آمنًا، كما أني أستطيعُ تولِّي هذا الأمر بمُفرَدي. لكنك ستكون في أمان في الحلقة. مهما رأيت ومهما سمعت، فلا تُغادِرها. ابقَ حيث أنت وستكون بخير».

قلتُ لها:

- «إنها ليست حلقة جِنِّيَّاتٍ حقيقيَّة. إنها لألعابنا لا أكثر، مُجرَّد دائرةٍ من العُشب الأخضر».

قالت:

- «إنها ما هي عليه. لا شيء يريد أذيَّتك يُمكنه أن يَعبُرها. والآن ابقَ داخِلها».

واعتصرَت يدي ومشَت بي إلى داخِل دائرة العُشب الأخضر، ثم إنها انطلقَت تعدو بين خمائل زهور الورديَّة، وغابَت عن نظري.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

XII

بدأت الظِّلال تَحتَشِد حول حوافِّ الدَّائرة، بُقَعٌ عديمة الشَّكل لا تُبصِرها -تُبصِرها حقًّا- إلَّا عندما تَلمَحها من رُكن عينك، وعندها كانت تبدو كالطيور، وعندها كانت تبدو جائعةً.

لم يُخامِرني رُعْبٌ في حياتي قَطُّ كالرُّعب مُنقَطِع النَّظير الذي أفعمَني يومها وقت الأصيل وأنا جالسٌ في دائرة العُشب ذات الشَّجرة الميِّتة في مُنتَصَفها. لم يُغَنِّ أيُّ طائرٍ أو تَبِز أو تَطِن أيُّ حشرة، ولم يتبدَّل شيء. سمعتُ حفيف أوراق الشَّجر وتنهُّد العُشب والرِّيح تَمُرُّ من فوقه، لكن لِتي هِمبستوك لم تَكُن هناك، ولم أسمع أيَّ أصواتٍ في النَّسيم. لم يَكُن هناك ما يُثير خوفي غير الظِّلال، وحتى الظِّلال لم تكن مرئيَّةً جيِّدًا أصلًا عندما أنظُرُ إليها.

انخفضَت الشَّمس في السَّماء، وتشوَّشَت الظِّلال مع أوائل الغَسَق فصارت أقلَّ وضوحًا، فبتُّ غير واثقٍ الآن من وجودها أصلًا، لكني لم أُبارِح دائرة العُشب.

- «مرحبًا! يا ولد!».

Twitter: @ketab_n

التفَتُّ. كان يمشي في الحديقة نحوي، يرتدي الملابس نفسها كآخِر مرَّةٍ رأيته فيها: سُترةً سوداء وقميصًا أبيضَ مجعَّدًا وربطة عُنُقٍ سوداء على شكل فراشة، وكان وجهه لا يزال مُضَرَّجًا بالحُمرة كحبَّة كرزٍ على نحوٍ مُزعِج، كأنه قضى وقتًا أطول من اللازم على الشاطئ، لكن يديه كانتا بيضاوين. بدا كتمثالٍ شمعيٍّ لا كإنسان، كشيءٍ تتوقَّع أن تراه في قاعة الرُّعب. احتلَّت وجهه ابتسامةٌ عريضة عندما رآني أنظُرُ إليه، فبدا كتمثالٍ شمعيٍّ يَبتَسِم، وازدرَدتُ لُعابي، وتمنَّيتُ لو تَطلُع الشَّمس من جديد.

قال مُعَدِّن الأوپال:

- «هَلُمَّ يا ولد، إنك تُرجئ المحتوم لا أكثر».

لم أُجِبه واكتفَيتُ بمُراقَبته. خطا حذاؤه الأسود اللامع حتى حافَّة دائرة العُشب، لكنه لم يَعبُرها.

كان قلبي يَدُقُّ بعُنفٍ شديد في صدري، حتى إني كنتُ واثقًا من أن الرجل سمعَ صوت دقَّاته، وشعرتُ بوخزٍ في عُنُقي وفروة رأسي.

قال بلكنته الجنوب أفريقيَّة الحادَّة:

- «يا ولد، إنهم يَرغَبون في إنهاء هذا الأمر. هذا ما يفعلونه. إنهم أكَلة الجيف، كواسر العَدَم، وهذا عملهم. إنهم يُنَظِّفون البقيَّة الباقية من الفوضى، بدِقَّةٍ وإتقان، يَنزَعونك من العالم وإذا بك كأنك لم توجد قَطُّ. استَسلِم للأمر الواقع. لن تَشعُر بأيِّ ألم».

حدَّقتُ فيه. كان الكِبار يقولون هذا فقط عندما يكون الأمر -أيًّا كان- ينطوي على ألمٍ بالِغ.

أدارَ الرجل الميِّت ذو السُّترة الرسميَّة رأسه على مهلٍ حتى أصبح

Twitter: @ketab_n

وجهه في وجهي مباشرةً. كانت عيناه مُتراجِعتين داخِل رأسه، وبدا كأنه يَرمُق السَّماء فوقنا بلا بَصَرٍ كمن يمشي نائمًا، وقال:

- «صديقتك الصغيرة لا تستطيع إنقاذك. لقد تحدَّدَ مصيرك وتقرَّرَ منذ أيام، عندما استخدمَتك فريستهم كبابٍ للعبور من مكانها إلى هنا، ولقد ربطَت ممرَّها في قلبك».

قلتُ للرجل الميِّت:

- «ليس أنا من بدأ هذا! هذا ليس عدلًا! أنت من تسبَّبَ في كلِّ هذا!».

قال الرجل الميِّت:

- «نعم. هل ستأتي إذن؟».

جلستُ مُرتَكِنًا بظَهري إلى الشَّجرة الميِّتة في مركز حلقة الجِنِّيَّات، وأغلَقتُ عينيَّ ولم أتحرَّك من مكاني. أخَذتُ أتذكَّر قصائد وأغاني أُلهي نفسي بها، وردَّدتها لنفسي ساكِتًا، ألفظها من بين شفتيَّ من دون صوت.

«الكلب شيطان قال للفار اللي قابله جوَّه الدار: يالَّا بينا ع المحكمة، حارفع عليك قضيَّة ومش مقبول الإنكار..»

كنتُ قد حَفِظتُ تلك القصيدة عن ظَهر قلبٍ في مدرستي. كان صاحِبها هو الفأر في «آليس في بلاد العجائب»[1]، الفأر الذي التقَته آليس وهي تَسبَح في البِركة التي تكوَّنَت من دموعها. في نُسخَتي من الرواية كانت كلمات القصيدة تلتفُّ وتَنكَمِش كذيل فأر. كنتُ أستطيعُ

(1) جميع الفقرات الواردة من "آليس في بلاد العجائب" مأخوذة من ترجمة الرواية الصَّادرة عن دار التنوير، ترجمة سهام عبد السلام وإعداد سارة عناني.

Twitter: @ketab_n

ترديد كلمات القصيدة كلها بنَفَسٍ طويلٍ واحد، وقد فعلتُ هذا حتى النهاية المحتومة.

«قال الكلب العجوز المكّار اللي اسمه شيطان: أنا القاضي وأنا الوكيل، حانظُر القضيّة كلها بنفسي وأدّيك إعدام، آهو ده اللي في نفسي».

عندما فتحتُ عينيَّ ونظرتُ كان مُعَدِّن الأوپال قد اختفى.

كانت السَّماء قد بـدأَت تَكتَسي باللون الرَّمادي، وبدأَت الموجودات تَفقد عُمقها وتتسطَّح مع مجيء الشَّفَق. إذا كانت الظِّلال لا تزال موجودةً، فلم يَعُد بصري يُدرِكها، أو أن العالم كله قد استحالَ ظِلالًا بالأحرى.

جاءَت أختي الصغيرة تجري من المنزل وتُنادي على اسمي، وتوقَّفَت قبل أن تَبلُغني قائلةً:

- «ماذا تفعل؟».

- «لا شيء».

- «بابا على الهاتف. يقول إنك يجب أن تأتي وتُكَلِّمه».

- «كلا، لا يقول هذا».

- «ماذا؟».

- «إنه لا يقول هذا».

- «ستَجِد نفسك في ورطةٍ إذا لم تأتِ الآن».

كنتُ أجهَلُ إن كانت هذه أختي حقًّا أم لا، لكني كنتُ داخِل دائرة العُشب وكانت هي خارِجها.

Twitter: @ketab_n

تمنَّيتُ لو أني جلَبتُ كتابًا معي، على الرغم من أن الجَوَّ كان أكثر إظلامًا من أن أستطيع القراءة. هكذا ردَّدتُ قصيدة «بِركة الدموع» لفأر «آليس في بلاد العجائب» مرَّةً أخرى في عقلي.

«يالَّا بينا ع المحكمة، حرفع عليك قضيَّة ومش مقبول الإنكار، في المحكمة قول ما بدا لك، ما أنا النهار ده فاضيلك».

سألَت أختي:

- «أين إرسولا؟ لقد صعدَت إلى غُرفتها، لكنها ليست هناك، ولا في المطبخ ولا الحمَّام. أنا أريدُ شايي، وأشعُرُ بالجوع».

قلتُ لها:

- «يُمكنكِ أن تُعِدِّي لنفسكِ شيئًا تَأكُلينه. أنتِ لستِ طِفلةً رضيعةً».

- «أين إرسولا؟».

- مَزَّقَتها إِرَبًا وحوش فضائيَّة كاسِرة، وأصدقكِ القول إنني أعتَقِدُ أنكِ واحدة منهم أو يتحكَّم فيكِ واحد منهم أو ما شابه.

- «لا أدري أين هي».

- «سأُخبِر ماما وبابا عندما يعودان أنك كنت شنيعًا معي اليوم، وستقع في ورطة».

تساءلتُ إن كانت هذه أختي فِعلًا أم لا. كان هذا صوتها وأسلوبها بالتأكيد، لكنها لم تَخْطُ خطوةً واحدةً إلى دائرة العُشب الأكثر اخضرارًا، داخِل الحلقة. أخرجَت لسانها لي، ثم جرَت إلى المنزل مرَّةً أخرى.

Twitter: @ketab_n

«الفار قال للكلب المكّار: محكمة من غير قاضي ولا وكيل قطع نَفَس وهَدّة حيل».

غَسَقٌ عميقٌ ضعيف الإضاءة، حافلٌ بالتوتُّر بلا ألوان. طَنَّ البعوض حول أُذُنيَّ، وأخذ يَحُطُّ بعوضة تلو الأخرى على وجنتيَّ ويديَّ. كنتُ مسرورًا لارتدائي ملابس ابن عم لِتي هِمبستوك الغريبة عتيقة الطراز، لأن جزءًا أقلّ من بَشرتي كان مكشوفًا. هوَيتُ بكَفَّيَّ على الحشرات التي حَطَّت عليَّ، وطارَ بعضها مُبتَعِدًا. واحدةٌ منها لم تَطر كانت تُتخِم نفسها من باطِن مِعصَمي، وانفجرَت عندما ضرَبتها تاركةً لَطْخَةً من دمي كقطرة دمعٍ جرَت إلى باطِن ذراعي.

كانت هناك وطاويط تُحَلِّق أعلاي. لطالما أحبَبتُ الوطاويط، لكن تلك الليلة كان هناك عدد كبير منها، وجعلَتني أُفكِّر في طيور الجوع، وارتجَفتُ.

شيئًا فشيئًا استحال الغَسَق إلى ليل، والآن كنتُ جالسًا في أقصى الحديقة وسط دائرةٍ لم أعُد أستطيع رؤيتها، بينما اشتعلَت الأضواء -الأضواء الكهربيَّة الحميمة- في المنزل. لم أكُن أريدُ أن أشعُر بالخوف من الظَّلام. لم أكن خائفًا من أيِّ شيءٍ حقيقي، لكني لم أعُد راغِبًا في المكوث هناك لفترةٍ أطول، مُنتَظِرًا في الظَّلام عودة صديقتي التي فَرَّت بعيدًا عني ولم يَبْدُ أنها ستَرجِع.

«قال الكلب العجوز المكّار اللي اسمه شيطان: أنا القاضي وأنا الوكيل، حانظُر القضيَّة كلها بنفسي وأدّيك إعدام..».

ظلَلتُ في مكاني بلا حراك. لقد رأيتُ إرسولا مونكتن تُمَزِّق إِرَبًا، والإِرَب التهمَتها كائنات آكلة للجيف آتية من خارِج كون الأشياء

Twitter: @ketab_n

التي أستَوعِبها، وكنتُ على يقينٍ من أني سأنالُ المصير نفسه إذا خطَوتُ خارِج الدَّائرة.

ثم إنني انتقلتُ من لويس كارول إلى جيلبرت وسوليڤان.

«لمَّا تَظَلُّ صاحيًا في السرير تُعاني من صداع مرير والقلق يُحَرِّم عليك النوم، فرأيي أنك تقدر على الانغماس في أيِّ لُغةٍ تختارها من غير لوم..».

أحببتُ وَقْعَ الكلمات، مع أني لم أكن متأكِّدًا تمامًا من معانيها كلها.

شعرتُ بالحاجة لقضاء حاجتي، فأدَرتُ ظَهري للمنزل وأخَذتُ بضع خطواتٍ بعيدًا عن الشَّجرة شاعِرًا بالخوف من أن أخطو خطوةً واحدةً أبعد من اللازم فأجِد نفسي خارِج الدَّائرة، وتبوَّلتُ في الظَّلام. كنتُ قد فرغتُ لتَوِّي عندما أعماني ضوء كشَّافٍ سقطَ على وجهي، وقال صوت أبي:

- «ما الذي تفعله هنا بحقِّ السَّماء؟».

- «أنا.. أنا جالِس هنا فقط».

- «نعم، هذا ما قالته أختك. حسنٌ، حان وقت العودة إلى المنزل. عشاؤك على المائدة».

ظلَلتُ في مكاني، وهزَزتُ رأسي نفيًا وقلتُ:

- «لا».

- «لا تتساخَف».

- «لستُ أتساخَف. سأبقى هنا».

Twitter: @ketab_n

قال: «هَلُمَّ»، ثم بلهجةٍ أكثر مرحًا: «هَلُمَّ أيها الوسيم چورچ». كان هذا هو اسم التدليل السخيف الذي أطلَقه عليَّ عندما كنتُ طِفلًا صغيرًا، حتى إنه كانت لديه أغنية تُرافِقه كان يُغَنِّيها وهو يُهَدهِدني على حِجره. كانت أفضل أغنيَّةٍ في العالم.

لم أرُد، فقال أبي وقد بدأ شيء من الحِدَّة في التسلُّل إلى نبرته:

- «أنا لن أحمِلك إلى المنزل، فقد أصبحت كبيرًا على هذا».

- *نعم، وعليك أن تَعبُر إلى داخِل حلقة الجِنِّيات كي تَحمِلني.*

لكن حلقة الجِنِّيات بدَت تافهةً الآن. كان هذا أبي، وليس مجرَّد تمثالٍ شمعيٍّ ما اختلقَته طيور الجوع كي تَستَدرِجني إلى الخارِج. كان الوقت ليلًا، وقد جاء موعد عودة أبي من العمل بالفِعل.

قلتُ:

- «إرسولا مونكتن رحلَت، ولن تعود أبدًا».

بدا مُغضَبًا عندها وهو يقول:

- «ماذا فعلت؟ هل وجَّهت لها كلامًا كريهًا؟ هل كنت وَقِحًا؟».

- «لا».

سَلَّطَ شعاع الكشَّاف على وجهي فكاد الضوء يُعميني. بدا أن أبي يُحارِب ليتحكَّم في أعصابه، وقال:

- «أخبِرني ما قلته لها».

- «لم أقُل لها شيئًا. لقد رحلَت فحسب».

كان ما أقوله صحيحًا، إلى حدٍّ ما..

Twitter: @ketab_n

- «عُد إلى المنزل، الآن».

- «أرجوك يا أبي، يجب أن أبقى هنا».

- «ستعود إلى المنزل في هذه اللحظة!»، صرخ بها أبي بأعلى صوته، ولم أستطِع مَنْعَ نفسي.. ارتجفَت شفتي السُّفلى، وبدأَ أنفي يسيل، واغرورقَت عيناي بالدُّموع التي شوَّشَت بصري ولسعَتني، لكنها لم تَسقُط، وأخَذتُ أطرف بعينيَّ لأطرُدها.

كنتُ أجهلُ إن كان من أتحدَّث معه هو أبي الحقيقي أم لا.

قلتُ:

- «لا أُحِبُّ أن تَصرُخ في وجهي».

- «وأنا لا أُحِبُّ أن تتصرَّف كحيوان!»، قالها صارِخًا، والآن كنتُ أبكي فِعلًا وانهمرَت العبرات على وجهي، وتمنَّيتُ لو أني كنتُ في أيِّ مكانٍ آخَر غير هنا الليلة.

لقد جابَهتُ أشياء أسوأ منه خلال الساعات القليلة المُنصَرِمة، وإذا بي فجأةً لا أُبالي. رفَعتُ عينيَّ إلى الشَّبح المُظلِم الواقف وراء وفوق شعاع الكشَّاف، وقلتُ:

- «أتَشعُر أنك قويٌّ كبير عندما تجعل ولدًا صغيرًا يبكي؟».

وأدرَكتُ وأنا أنطقها أن هذا آخِر شيءٍ كان يَجدُر بي أن أقوله.

انقلبَت سِحنته -أو ما استطعتُ رؤيته منها في ضوء الكشَّاف المُنعَكِس- وبدا مصدومًا. فتحَ فمه ليتكلَّم ثم أغلَقه من جديد. لا أذكُرُ أن أبي قد عجزَ عن الكلام قَطُّ، قبلها أو بعدها، بل لحظتها فقط. راودَني شعورٌ مريع، وفكَّرتُ: *سأموتُ هنا عمَّا قريب، ولا أريدُ أن أموت وهذه الكلمات على شفتَيَّ.*

Twitter: @ketab_n

لكن شعاع الكشَّاف ابتعدَ عني، واكتفى أبي بأن قال:

- «نحن في المنزل. سأضعُ طعامك في الفُرن».

شاهَدتُ ضوء الكشَّاف وهو يَبتَعِد عبر الحديقة مرورًا بشُجيرات الورد وفي اتِّجاه المنزل، إلى أن انطفأَ وغابَ عن بصري، وسمعتُ الباب الخلفي يُفتَح ثم يُغلَق.

«ثم تنال بعض السَّكينة في شكل غفوة ومُقلتاك ساخنتان ورأسك يؤلمك، لكن هجوعك يَعُجُّ بأحلامٍ شنيعة تجعل اليقظة أفضل كثيرًا».

أطلقَ أحدهم ضحكةً، فبتَرتُ غنائي وتطلَّعتُ حولي، لكني لم أرَ أحدًا.

ثم سمعتُ صوتًا يقول:

- «أغنيَّة الكوابيس»، كم هذا مُلائِم!».

ودنَت مني حتى رأيتُ وجهها. كانت إرسولا مونكتن لا تزال عاريةً تمامًا، وكانت تَبتَسِم. لقد رأيتُها تُمَزَّق إِرَبًا منذ ساعاتٍ قليلة، والآن كانت سليمةً، ومع ذلك بدَت أقلَّ صلابةً من الآخَرين الذين رأيتهم الليلة. كنتُ أرى أنوار المنزل تتلألأ من ورائها، بل ومن خلالها، ولم تتبدَّل بسمتها.

قلتُ لها:

- «أنتِ ميِّتة».

قالت إرسولا مونكتن:

- «نعم، لقد التُهِمتُ».

- «أنتِ ميِّتة، غير حقيقيَّة».

Twitter: @ketab_n

- «لقد التُهِمتُ»، كرَّرَتها ثم أضافَت: «أنا لا شيء، ولقد سمَحوا لي بالخروج -لفترةٍ قصيرةٍ فحسب- من المكان الذي في داخِلهم. مكانٌ باردٌ هو، وخاوٍ تمامًا. غير أنهم وعدوني بك كي يكون لديَّ شيء ألعبُ به، شيء يكون رفيقي في الظُّلمات. أنت أيضًا ستغدو لا شيء بدورك بمُجرَّد أن تُؤكَل، لكن أيًّا كان ما سيتبقَّى من هذا اللاشيء سيصير من نصيبي. سنكون مأكولين معًا يا لُعبتي وتسليتي حتى نهاية الزَّمن، وسوف نمرح كثيرًا!».

وارتفعَت يد شبحيَّة ومَسَّت الابتسامة، ثم نفخَت صوبي شبح ابتسامة إرسولا مونكتن التي قالت:

- «سأكونُ في انتظارك».

ثم حفيفٌ في شُجيرات الورديَّة من ورائي، وصوتٌ أنثويٌّ صغيرٌ مَرِحٌ يقول:

- «لا بأس. جَدَّتي عالجَت الأمر. كلُّ شيءٍ على ما يرام الآن. هيا بنا».

كان القَمر مُرتَفِعًا الآن فوق شُجيرة الأزاليا، هلالًا وضَّاءً كقُلامة أظفارٍ سميكة.

جلستُ عِند الشَّجرة الميِّتة ولم أتحرَّك، فقالت لِتي هِمپستوك:

- «هَلُمَّ أيها السخيف. قلتُ لك إنهم رحَلوا».

قلتُ لها:

- «إذا كنتِ لِتي هِمپستوك حقًّا، فتعالي إلى هنا».

ظَلَّت البنت المحفوفة بالظِّلال في مكانها، ثم إنها ضحكَت وتمدَّدَت واهتزَّت، قبل أن تتحوَّل إلى مُجرَّد ظِلٍّ آخَر، ظِلٍّ يملأ الليل.

Twitter: @ketab_n

- «أنت جائع»، قالها الصوت الآتي من الليل، الصوت الذي لم يَعُد صوت لِتي هِمبستوك. لعلَّه كان الصوت في داخِل رأسي، لكنه كان يتكلَّم بصوتٍ مسموعٍ كذلك. «أنت مُتعَب. عائلتك تَكرَهك. ليس لديك أصدقاء. ويُؤسِفني أن أقول لك إن لِتي هِمبستوك لن تعود أبدًا».

تمنَّيتُ لو أني أستطيع رؤية المتكلِّم. من الأسهل أن يكون لديك شيء واضح مُحَدَّد تخشاه، بدلًا من شيءٍ من الممكن أن يكون أيَّ شيء.

قال الصوت باستسلامٍ شديد وعمليَّةٍ تامَّة:

- «لا أحد يَكتَرِث لك. والآن اخرُج من الدَّائرة وتعالَ إلينا. خطوة واحدة هي كلُّ ما هنالك. ضع قدمًا واحدةً خارِج التَّخم وسنَجعَل الألم يتلاشى تمامًا وإلى الأبد، الألم الذي تَشعُر به الآن والألم الذي ستَشعُر به لاحِقًا. إنه لن يَحدُث أبدًا».

لم يَعُد صوت واحد يتكلَّم، بل صوت شخصين يتكلَّمان بتساوُقٍ في آنٍ واحد، أو مئة شخص. لم أستطِع التمييز. الأصوات كانت كثيرة جدًّا.

- «كيف يُمكنك أن تَشعُر بالسعادة في هذا العالم؟ إن لديك ثُقبًا في قلبك، لديك بوَّابة في داخِلك تُفضي إلى أراضٍ تقع وراء العالم الذي تَعرِفه. سوف تُناديك تلك الأراضي وأنت تَكبُر، ولن يأتي وقت تنساها فيه أبدًا وأنت في قلبك لا تسعى بحثًا عن شيءٍ لا يُمكنك الحصول عليه، شيء لا تستطيع حتى تخيُّله كما ينبغي، سيُفسِد افتقارك إليه منامك ونهارك وحياتك، إلى أن تَنغَلِق عيناك للمرَّة الأخيرة، إلى

Twitter: @ketab_n

أن يُسَمِّمك أحبَّاؤك ويبيعون جثمانك للتَّشريح، وحتى حينها ستموت بثُقبٍ في داخِلك، وستبكي وتلعن حياةً ملأى بالمساوئ عِشتها. لكنك لن تَكبُر. يُمكنك أن تَخرُج الآن وسنُنهي كلَّ شيءٍ بنظافةٍ، أو يُمكنك أن تموت في مكانك جوعًا وخوفًا. وعندما تموت لن تعني دائرتك شيئًا، وسنَقتَلِع قلبك ونَحتَفِظ بروحك كتَذكار».

قلتُ للظَّلام والظِّلال:

- «ربما يَحدُث هذا وربما لا، وإذا حدثَ فربما كان هذا ما سيَحدُث في جميع الأحوال. لستُ أُبالي. سأظَلُّ في مكاني مُنتَظِرًا لِتي هِمبستوك، وستعود هي من أجلي. وإذا متُّ هنا سأموتُ في انتظارها، وتلك ميتة أفضل من أن تُمَزِّقني أنت وكلُّ هذه الأشياء الحمقاء الشَّنيعة إلى قِطَعٍ صغيرةٍ لأن في داخِلي شيئًا لا أرغبُ فيه أصلًا!».

خَيَّمَ الصَّمت، وبدا أن الظِّلال صارت جزءًا من الليل من جديد. فكَّرتُ في ما قلته وعَلِمتُ أنه صحيح. في تلك اللحظة، لمرَّةٍ في طفولتي، لم أكُن خائفًا من الظَّلام، وكنتُ مُستَعِدًّا تمامًا للموت (كاستعداد أيِّ طِفلٍ في السابعة من عُمره موقن من الخلود على كلِّ حال) إذا متُّ في انتظار لِتي، لأنها كانت صديقتي.

مَرَّ الوقت، وانتظَرتُ أن يُخاطِبني الليل من جديد، أن يأتي شخص ما، أن تَقِفَ جميع أشباح ووحوش خيالي وراء حدود الدَّائرة تدعوني للخروج، لكن شيئًا آخَر لم يَحدُث، وببساطةٍ انتظَرتُ.

ارتفعَ القَمر أكثر في السَّماء، وتكيَّفَت عيناي على الظَّلام، وبدأتُ أُغَنِّي بصوتٍ هامِسٍ مُرَدِّدًا الكلمات مرَّةً أخرى وأخرى.

Twitter: @ketab_n

أنت شخصٌ عاديٌّ عليل، تُعاني من ألمٍ في عُنُقك

ولا عجب أنك تَغُطُّ، فقد سقطَ على الأرض رأسك

وتَشعُر بالوَخْزِ من باطِن قدميك وحتى قصبتي ساقيك

وفي لحمك بالتَّنميل وبالخَدَر في ساقك

ولديك تشنُّج في أصابع قدميك، وذبابة على أنفك

وزَغَبٌ في رئتيك، وحُمَّى في لسانك

وتُعاني عَطَشًا قويًّا وإحساسًا شامِلًا بأنك لم تَكُن نائمًا مرتاحًا..

غَنَّيتُ الأغنيَّة كاملةً لنفسي مرَّتين أو ثلاثًا، وأحسستُ بالرَّاحة لأني تذكَّرتُ الكلمات، حتى وإن لم أكُن أفهَمها دائمًا.

Twitter: @ketab_n

XIII

عندما جاءَت لِتي -لِتي الحقيقيَّة هذه المرَّة- كان معها دلو من الماء توحي الطَّريقة التي كانت تَحمِله بها بأنه ثقيل الوزن، وتجاوزَت البُقعة التي لا بُدَّ أن حافَّة حلقة العُشب كانت تقع فيها، واتَّجهَت نحوي مباشرةً قائلةً:

- «آسفة، لقد استغرقَ هذا وقتًا أكثر مما توقَّعتُ، كما أنه رفضَ أن يتعاوَن كذلك، وفي النهاية تطلَّبَ الأمر مني وجَدَّتي أن نقوم به معًا، وقامَت هي بمُعظم العمل الشَّاق. لم يَكُن سيُجادِلها، لكنه لم يُساعِد، وليس من السَّهل أن..».

قاطَعتها سائِلًا:

- «ماذا؟ عمَّ تتكلَّمين؟».

وضعَت الدَّلو المعدني على العُشب إلى جواري من دون أن تَسكُب منه قطرةً واحدةً، وقالت:

- «المُحيط. إنه لم يَرغَب في الذِّهاب، وقاومَ جَدَّتي كثيرًا حتى

Twitter: @ketab_n

إنها قالت إن عليها أن تَذهَب وتَضطَجِع بعدها، لكننا وضعناه في الدَّلو في آخِر الأمر على كلِّ حال».

كان الماء في الدَّلو يتوهَّج، يُصدِر ضوءًا أزرقَ مائلًا إلى الخضرة، وفيه كنتُ أرى وجه لِتي، وأرى الأمواج والتموُّجات على سطح الماء وأُشاهِدها تَبلُغ قِمَّتها وتتناثَر على جانِب الدَّلو.

- «لا أفهمُ».

- «لم أستطِع أن آخُذك إلى المُحيط، لكن لم يَكُن هناك ما يَمنَعني من الإتيان بالمُحيط إليك».

- «أنا جائع يا لِتي، وهذا الموقف لا يروق لي».

- «لقد أعدَّت أمي العشاء، لكن عليك أن تبقى جائعًا لفترةٍ أطول قليلًا. هل كنت خائفًا وأنت وحدك هنا؟».

- «نعم».

- «هل حاولوا أن يُخرِجوك من الدَّائرة؟».

- «نعم».

أطبقَت عندها على يديَّ بيديها واعتصرَتهما وقالت:

- «لكنك مكثت في المكان الذي يَجدُر بك المكوث فيه ولم تُصْغِ لهم. أحسَنت. هذه مزيَّة حقيقيَّة».

كانت هناك رَنَّة فخرٍ في كلماتها، وفي تلك اللحظة نسيتُ جوعي ونسيتُ خوفي.

سألتها:

- «ماذا أفعل الآن؟».

Twitter: @ketab_n

أجابَت:

- «الآن تَقِف في الدَّلو. ليس من الضروري أن تَخلَع حذاءك أو أيَّ شيء. قِف في الدَّلو فقط».

لم يَبْدُ الطَّلب غريبًا حتى. تركَت لِتي واحدةً من يديَّ وظَلَّت مُمسِكَةً بالأخرى، وفكَّرتُ: *لن أترُك يدكِ أبدًا ما لم تَطلُبي مني ذلك*. ووضَعتُ قدمًا في ماء الدَّلو الوهَّاج رافِعًا مستواه حتى الحافَّة تقريبًا، واستقرَّت قدمي في القاع الصفيحي، وشعرتُ به فاترًا وليس باردًا. ثم إنني وضَعتُ القدم الأخرى في الماء ونزلتُ معها، نزلتُ كتمثالٍ من الرُّخام، وانغلقَت أمواج مُحيط لِتي هِمبستوك فوق رأسي.

شعرتُ بالصَّدمة نفسها التي ستَشعُر بها لو خطَوت إلى الخلف من دون أن ترى وسقَطت في حوض سباحة. أغلَقتُ عينيَّ مع لَسْعة الماء، وأحكَمتُ إغلاقهما بشِدَّة.

لم أكُن أجيدُ السِّباحة. لم أكُن أعرِفُ أين أنا أو ما الذي يَحدُث، لكن حتى تحت الماء شعرتُ بيد لِتي لا تزال قابِضَةً على يدي.

كنتُ أحبسُ أنفاسي..

حبَستها حتى لم أعُد أستطيع أن أحبِسها أكثر، فأخرَجتُ ما في صدري من هواءٍ بدَفقةٍ من الفقاقيع وتجرَّعتُ نَفَسًا عميقًا مُتَوَقِّعًا أن أختَنِق، أن أُبقبِق، أن أموت.

لكني لم أختَنِق. شعرتُ ببرودة الماء -إذا كان ماءً- يتدفَّق داخِل أنفي وحَلقي، وشعرتُ به يملأ رئتيَّ، لكنه لم يفعل شيئًا غير هذا، ولم يُؤذِني.

Twitter: @ketab_n

فكَّرتُ: هذا هو نوع الماء الذي تستطيع أن تتنفَّسه، وفكَّرتُ: لعلَّ هناك سِرًّا لتنفُّس الماء، شيئًا بسيطًا يستطيع الجميع فِعله إذا عَلِموا به فقط.

كان هذا ما فكَّرتُ فيه، أو أنه كان أول شيءٍ فكَّرتُ فيه.

أمَّا ثاني شيءٍ فكَّرتُ فيه هو أني أعرِفُ كلَّ شيء. سرَى مُحيط لِتي هِمبستوك في داخِلي، وملأَ الكون بأكمله من البيضة إلى الوردة. عَرِفتُ هذا.. عَرِفتُ ماذا تكون البيضة: حيث بدأَ الكون على وَقْعِ أصواتٍ لم تُخلَق تُغَنِّي في العَدَم، وعَرِفتُ ماذا تكون الوردة: الانثناء العجيب لفضاءٍ على فضاءٍ في أبعادٍ تنطوي كأوراق الأوريجامي وتتفتَّح كزهور أوركيديا غريبة، الذي يُعَيِّن آخِر زمنٍ جميلٍ قبل الخاتمة النهائيَّة لكلِّ شيءٍ والانفجار الكبير التالي، الذي عَرِفتُ أنه لن يُشبه السَّابق في شيءٍ على الإطلاق.

وعَرِفتُ أن مسز هِمبستوك الكبيرة ستكون موجودةً لتَشهَده كما شَهِدَت سابِقه.

رأيتُ العالم الذي حييتُ فيه منذ مولدي وفَهِمتُ كم هو هَشٌّ، كم أن الواقِع الذي عَرِفته ليس إلَّا طبقةً رقيقةً من السُّكَّر والكريمة على وجه كعكة عيد ميلادٍ داكِنةٍ عظيمةٍ تكتظُّ بالدُّود والكوابيس والجوع. رأيتُ العالم من أعلى ومن أسفل، ورأيتُ أن هناك أنماطًا وبوَّاباتٍ ومساراتٍ تَقبَع وراء كلِّ ما هو حقيقي. رأيتُ كلَّ هذه الأشياء واستوعَبتها وملأَتني، تمامًا كما ملأَتني مياه المُحيط.

همسَت الأشياء كلها في داخِلي، وتحدَّث كلُّ شيءٍ لكلِّ شيءٍ وعَلِمتُ كلَّ ما هنالك.

Twitter: @ketab_n

فتحتُ عينيَّ شاعِرًا بالفضول لمعرفة ما قد أراه في العالم خارِج نفسي، وما إن كان شبيهًا بالعالم الذي في داخِلي.

كنتُ مُعَلَّقًا في الأعماق تحت الماء..

نظرتُ إلى أسفل، ورأيتُ العالم الأزرق من تحتي يَنسَحِب إلى ظلام. نظرتُ إلى أعلى، ورأيتُ العالم فوقي يفعل المِثل. لم يَكُن شيء يَجذِبني إلى أسفل، ولا شيء يَدفَعني نحو السَّطح.

أدَرتُ رأسي بعض الشيء لأنظُر إليها لأنها كانت لا تزال تُمسِك بيدي ولم تتخلَّ عنها لحظةً، ورأيتُ لِتي هِمبستوك.

في البدء لم أحسبني أعرِفُ ما أتطلَّعُ إليه بالتحديد، لم أستَوعِبه. لئن كانت إرسولا مونكتن مصنوعةً من القُماش الرَّمادي، تُرَفرِف وتُطَقطِق وتتمايَل في الرِّيح العاصفة، فقد كانت لِتي هِمبستوك مصنوعةً من أشرعةٍ حريريَّة بلون الجليد امتلأَت بلهبٍ وامِضٍ لشمعاتٍ صغيرةٍ جدًّا، مئة مئة شمعة.

هل يُمكن أن يَحتَرِق لهب الشُّموع تحت الماء؟ نعم، يُمكن. عَرِفتُ هذا وأنا في المُحيط، بل وعَرِفتُ كيف كذلك. فَهِمتُ هذا كما فَهِمتُ المادَّة السوداء، مادَّة الكون التي تَصنَع كلَّ شيءٍ لا بُدَّ أنه موجود لكن لا يُمكننا العثور عليها. وجدتُ نفسي أفكِّر في مُحيطٍ يجري تحت الكون كله كمياه البحر الداكِنة التي تتلاطَم تحت ألواح لسانٍ خشبيٍّ قديم، مُحيطٍ يَمتَدُّ من الأبد إلى الأبد ولا يزال صغيرًا بما يكفي لأن يوضَع في دلوٍ إذا كانت مسز هِمبستوك الكبيرة موجودةً لتُساعِدك على دخوله، وإذا طلبتَ بأدب.

بدَت لِتي هِمبستوك كالحرير الشَّاحب ولهب الشُّموع. تساءَلتُ

Twitter: @ketab_n

كيف أبدو لها في هذا المكان، وعَرِفتُ أن حتى في مكانٍ ليس إلَّا معرفةً خالصةً، فهذا هو الشيء الوحيد الذي ليس بإمكاني أن أعرِفه، أني إذا نظَرتُ في داخِلي فلن أرى غير مرايا لا تُحصى، فأظَلُّ أُحَدِّق في نفسي طوال الأبديَّة.

ثم إن الحرير المليء بلهب الشُّموع تحرَّكَ، وكانت حركته متوانيةً رشيقةً كحركة الأشياء تحت الماء. سحبَه التيَّار، والآن رأيتُ أن له ذراعين واليد التي لم تتخلَّ عن يدي قَطُّ، وجسدًا ووجهًا مُنَمَّشًا مألوفًا، وفتحَ فمه وبصوت لِتي هِمبستوك قال:

- «أنا آسِفةٌ حقًّا».

- «علامَ؟».

لم تُجِب. سحبَت تيَّارات المُحيط شَعري وثيابي كنسيم الصَّيف. لم أعُد أشعُر بالبرد ولا الجوع، وكنتُ أعرِفُ كلَّ شيء، والعالم الكبير المعقَّد بأَسره كان بسيطًا سَهل الاستيعاب ولا أيسر من أن يبوح لي بأسراره. أرَدتُ أن أبقى هنا طوال ما تبقَّى من الزَّمن، هنا في المُحيط الذي هو الكون الذي هو الرُّوح التي هي كلُّ ما يَهُمُّ. أرَدتُ أن أبقى هنا إلى الأبد.

قالت لِتي:

- «لا يُمكنك هذا. سوف يُدَمِّرك».

فتَحتُ فمي لأقول إن لا شيء يستطيع قتلي الآن، لكنها قالت:

- «لن يَقتُلك، بل يُدَمِّرك، يُذيبك. لن تموت هنا، فلا شيء يموت هنا أبدًا، لكن لو بقيت هنا طويلًا، فبَعد فترةٍ سيتواجَد القليل منك في

Twitter: @ketab_n

كلِّ مكان، ستغدو مُنتَشِرًا في كلِّ الأنحاء، وهذا ليس بالشيء الجيِّد. لن يكون هناك ما يكفي منك أبدًا في آنٍ واحدٍ في مكانٍ واحد، أي أن شيئًا لن يتبقَّى ليُفكِّر في نفسه باعتباره (أنا)، لا وجهة نظرٍ واحدة، لأنك ستكون عبارةً عن متتاليةٍ لا نهائيَّةٍ من وجهات النَّظر».

كنتُ سأُجادِلها. لقد كانت مُخطِئَةً.. لا بُدَّ أنها كانت كذلك. لقد أحبَبتُ هذا المكان، هذه الحالة، هذا الإحساس، ولم أكُن أنوي المُغادَرة أبدًا.

ثم انبثَقَ رأسي من تحت الماء، وطرَفتُ وسعلتُ، ووجدتُ نفسي واقفًا والماء يَصِلُ إلى فخذيَّ في البِركة الواقعة في مؤخِّرة مَزرعة هِمبستوك، وكانت لِتي هِمبستوك واقفةً إلى جواري ماسِكةً يدي.

سعلتُ مرَّة أخرى، وشعرتُ بالماء يَفرُّ من أنفي وحَلقي ورئتيَّ. سحَبتُ الهواء النظيف إلى صَدري في نور قمر الحصاد الضَّخم المُكتَمِل الذي سطعَ على سَقف بيت مَزرعة هِمبستوك المغطَّى بالقرميد الأحمر، وللحظةٍ مثاليَّةٍ أخيرةٍ ظلَلتُ أعرِفُ كلَّ شيء.. أذكُرُ أني عَرِفتُ كيف أجعلُ القَمر مُكتَمِلًا عندما أُريده أن يكون هكذا، وأن يَسطَع على مؤخِّرة المنزل في كلِّ ليلة.

كنتُ أعرِفُ كلَّ شيء، لكن لِتي هِمبستوك كانت تَسحَبني الآن خارِج البِركة.

كنتُ لم أزل أرتدي الملابس الغريبة عتيقة الطراز التي أُعطِيتُ إياها ذلك الصباح، وإذ خطَوتُ خارِجًا من البِركة إلى العُشب الذي يَحُدُّها، اكتشَفتُ أن ثيابي وبَشرتي جافَّة تمامًا. عاد المُحيط إلى

Twitter: @ketab_n

البِركة، والمعرفة الوحيدة التي بقيَت معي، كأني أفَقتُ من حُلمٍ ذات يومٍ صيفي، كانت أن فترةً طويلةً لم تَمْضِ منذ كنتُ أعرِفُ كلَّ شيء.

رمَقتُ لِتي في نور القَمر وسألتها:

- «أهكذا الأمر بالنِّسبة لكِ؟».

- «أهكذا ماذا بالنِّسبة لي؟».

- «أما زلتِ تعرفين كلَّ شيءٍ كلَّ الوقت؟».

هَزَّت رأسها نفيًا ولم تَبتَسِم وهي تُجيب:

- «من المملِّ أن يَعرِف المرء كلَّ شيء. عليك أن تتخلَّى عن كلِّ تلك الأشياء إذا أرَدت أن تتسكَّع هنا».

- «كنتِ تَعرِفين كلَّ شيءٍ في ما مضى إذن؟».

كَوَّرَت أنفها وقالت:

- «الجميع كانوا كذلك. كما قلتُ لك، معرفة كيف تعمل الأشياء ليست بالشيء المميَّز، وعليك حقًّا أن تتخلَّى عنها كلها إذا أردت أن تَلعَب».

- «ألعبُ ماذا؟».

- «هذا»، قالتها ولوَّحَت بيدها نحو المنزل والسَّماء والقَمر المُكتَمل المستحيل ولفائف الخيوط والشّالات التي كوَّنتها المجموعات النجميَّة اللَّامعة.

تمنَّيتُ أن أُدرِك ما تعنيه. كأني بها كانت تتكلَّم عن حُلمٍ تشارَكناه معًا، وللحظةٍ كان دانيًا جدًّا في عقلي حتى أني كِدْتُ أستطيع أن ألمسه.

Twitter: @ketab_n

قالت لِتي:

- «لا بُدَّ أنك جائع».

وانقطعَت اللحظة.. ونعم، كنتُ جائعًا، واستولى الجوع على رأسي وابتلعَ بقايا أحلامي.

كان هناك طبق يَنتَظِرني في مكاني على الطاولة في مطبخ بيت المَزرعة الضَّخم، وعليه كانت قِطعة من فطيرة الرَّاعي، البطاطس المهروسة قِشرة بُنِّيَّة على الوجه واللحم المفروم والخضروات وصلصة المرق من تحتها. كنتُ أخافُ أكل أيِّ طعام خارِج بيتي، أخافُ أن أرغَب في تَرْكِ أيِّ طعامٍ لا يروق لي فأنال التأنيب، أو أُرغَم على أن أجلِس وألوكه على دفعاتٍ ضئيلةٍ للغاية إلى أن ينتهي، كما اعتَدتُ أن أفعل في المدرسة، لكن الطعام في مَزرعة هِمبستوك كان مثاليًّا دائمًا، ولم يُشعِرني بأيِّ خوف.

كانت چيني هِمبستوك موجودةً، تتحرَّك مُكتَنِزَةً مُرَحِّبَةً بهِمَّةٍ ونشاطٍ في مريلتها. أكَلتُ من دون كلام ورأسي مُطرَق، أغرفُ الطعام السَّارَّ في فمي، بينما تكلَّمَت المرأة والفتاة بنبرةٍ خفيضةٍ مُلِحَّة.

قالت لِتي:

- «سرعان ما سيأتون. إنهم ليسوا بأغبياء، ولن يُغادِروا حتى يَأخُذوا آخِر قِطعةٍ صغيرةٍ مما جاءوا من أجله».

تنشَّقَت أمُّها ووجنتاها الحمراوان متورِّدتان من حرارة نار المطبخ، وقالت:

- «هراء. إنهم فم لا أكثر».

Twitter: @ketab_n

لم أكُن قد سَمِعتُ هذا التعبير من قبل، وحَسِبتُ أنها تقول لنا إن تلك المخلوقات عبارة عن أفواهٍ لا غير، ولم يَبدُ لي من غير المُحتَمَل أن الظِّلال عبارة عن أفواهٍ فقط بالفِعل، فقد رأيتها تَلتَهِم الشيء الرَّمادي الذي سَمَّى نفسه إرسولا مونكتن.

كانت جَدَّتي تُوَبِّخني على الأكل كحيوانٍ بَرِّي، وكانت تقول لي: «يجب أن تَأكُل -essen- كشخصٍ وليس كخنزير، *chazzer*. عندما تَأكُل الحيوانات يُقال إنها *fressen*، أمَّا الناس فيُقال إنهم *essen*. كُل كشخص». نعم، *Fressen*[1] هو التعبير الصحيح. هذا ما فعلته طيور الجوع بإرسولا مونكتن، ولم يَكُن لديَّ شكٌّ في أنها ستأتي عليَّ بالأسلوب ذاته.

قالت لِتي:

- «لم أرَهم بهذا العدد الكبير من قبل قَطُّ. كانت هناك حَفنة منهم فقط عندما جاءوا في الأيام القديمة».

صَبَّت لي چيني كوبًا من الماء وهي تقول لِلِتي:

- «هذا خطأكِ أنتِ. لقد وضعتِ إشاراتٍ ودعوتهم للمجيء، كأنكِ تَدُقِّين جرس العشاء، فلا عجب أنهم جاءوا جميعًا».

قالت لِتي:

- «أرَدتُ فقط أن أتأكَّد من رحيلها هي».

قالت چيني وهي تَهُزُّ رأسها:

- «براغيث. إنها كالدجاجات التي تَخرُج من القُنِّ وتَشعُر بفخرٍ

(1) وردَت هذه التعبيرات في النَّص الأصلي باللُّغة الألمانيَّة.

Twitter: @ketab_n

شديدٍ بنفسها وتنتابها الغطرسة لاستطاعتها أن تَأكُل كلَّ ما تريد من دودٍ وخنافس ويرقاتٍ فلا تُفكِّر في الثعالب أبدًا».

وقلَّبَت الكاسترد الذي تطهوه على البابور بحركاتٍ عصبيَّةٍ ضخمةٍ مُستَخدِمَةً ملعقةً خشبيَّةً، وأضافَت:

- «على كلِّ حالٍ لدينا ثعالب الآن، وسنُعيدها جميعًا من حيث جاءَت كما فعَلنا عندما كانت هنا تتشمَّم بحثًا عن فريسةٍ آخِر مرَّة. لقد فعلناها من قبل، أليس كذلك؟».

قالت لِتي:

- «ليس بالضبط. إمَّا أننا أعَدنا البرغوث من حيث جاء ولم يَجِد الهَوام شيئًا يبقون من أجله، كالبرغوث الذي كان في القبو في عهد كرومِول، أو أن الهَوام جاءت وأخَذت ما جاءت من أجله ثم رحَلت، كالبرغوث السَّمين الذي كان يُحَقِّق أحلام الناس في زمن روفوس الأحمر. لقد أخذته وحلَّقت به وغادَرت، لكن لم يَسبِق لنا أن اضطُرِرنا للتخلُّص منها».

هَزَّت أمُّها كتفيها قائلةً:

- «لا فارِق. سوف نُعيدها من حيث جاءت».

سألَتها لِتي:

- «ومن أين يجيئون أصلًا؟».

كنتُ أتلكَّأُ الآن في الأكل، جاعلًا آخِر فتافيت فطيرة الرَّاعي تبقى لأطول وقتٍ ممكن وأنا أدفعها هنا وهناك في الطَّبق بالشَّوكة ببطء.

قالت چيني:

Twitter: @ketab_n

- «هذا غير مهم. كلهم يعودون في النهاية، يَشعُرون بالملل من الانتظار غالِبًا».

قالت لِتي هِمبستوك بلهجةٍ عمليَّة:

- «حاوَلتُ أن أدفَعهم، لكن لم يكن هناك أيُّ سَحْب. ثم صدَدتُهم بقُبَّة وقاية، لكنها لم تَكُن لتبقى لفترةٍ أطول. نحن آمِنون هنا -هذا واضِح- فلا شيء يَدخُل هذه المَزرعة من دون إذننا».

قالت چيني:

- «يَدخُل أو يَخرُج».

وأزاحَت طبقي الخالي ووضعَت مكانه وعاءً يحوي شريحةً ساخنةً من حلوى السپوتِد ديك رَشَّت عليها طبقةً من الكاسترد الأصفر الثَّخين.

وأكَلتُ باستمتاع.

لا أفتَقِدُ أيام الطُّفولة، لكني أفتَقِدُ الطَّريقة التي كنتُ أستَمتِعُ بها بالأشياء الصغيرة، حتى والأشياء الأكبر تنهار. لم أكُن أستطيع التحكُّم في عالمي، أو الابتعاد عن كلِّ ما هو مؤلم من الأشخاص أو الأشياء أو الأوقات، لكني وجَدتُ بهجةً في الأشياء التي تُسعِدني. كان الكاسترد حُلوًا دَسِمًا في فمي، والزَّبيب الداكِن المُنتَفِخ في السپوتِد ديك كان ذو نكهةٍ مميَّزةٍ في البودنج المضَّاغ الخفيف الثَّخين ككعكة، ولعلِّي كنتُ سأهلكُ تلك الليلة، ولعلِّي لم أكُن سأعود إلى بيتي من جديد، لكن العشاء كان رائعًا، وكنتُ أثِقُ بلِتي هِمبستوك.

Twitter: @ketab_n

كان العالم خارِج المطبخ ما زال قابِعًا يَنتَظِر، وأخذَت قِطَّة عائلة هِمبستوك ذات لون الضباب -التي لا أظُنُّ أني عَرِفتُ اسمها أبدًا- تتمشَّى في المطبخ، الأمر الذي ذكَّرَني..

- «مسز هِمبستوك ، أما زالت الهِرَّة هنا؟ الهِرَّة السوداء ذات الأُذُن البيضاء؟».

قالت چيني هِمبستوك:

- «ليس الليلة. إنها تَلِفٌ وتدور في مكانٍ ما في الجوار. كانت نائمةً على الكرسي في الردهة طوال بَعد الظُّهر».

تمنَّيتُ لو أني أستطيع التمليس على شَعرها الناعم، وأدرَكتُ أني أرَدتُ أن أُوَدِّعها.

- «إممم.. أظُنُّ.. لو أني يجب أن.. أموت.. الليلة..»، بدأتُ أتكلَّمُ بتردُّدٍ غير واثِقٍ إلامَ أرمي. أعتَقِدُ أني كنتُ سأطلُبُ شيئًا، أن يُبلِّغنَ وداعي لأمي وأبي، أو أن يَقُلنَ لأختي إنه من غير العدل أن لا شيء حدثَ لها أبدًا، إن حياتها كانت جميلةً آمِنةً محميَّةً، بينما كنتُ أتعثَّرُ أنا في الكوارث طوال الوقت. لكن لا قول بدا مُناسِبًا، وشعرتُ بالرَّاحة عندما قاطعَتني چيني هِمبستوك قائلةً بحزم:

- «لا أحد سيموت الليلة».

وأخذَت وعائي الفارِغ وغسلَته في الحوض، ثم جفَّفَت يديها على مريلتها. ثم إنها خلعَت المريلة وخرجَت إلى الردهة، ثم عادَت بَعد لحظاتٍ وهي ترتدي معطفًا بُنِّيًا بلا أيِّ زخارف وحذاءً كبيرًا طويل العُنُق ذا لونٍ أخضرَ داكِن.

Twitter: @ketab_n

بدَت لِتي أقلَّ ثِقَةً من چيني، لكن لِتي -بكلِّ سنوات عُمرها وحِكمتها- كانت مُجرَّد فتاةٍ صغيرة، بينما كانت چيني كبيرةً، وقد بَثَّت ثِقتها فيَّ الطُّمأنينة. كنتُ أثِقُ في كلتيهما.

سألتُ:

- «أين مسز هِمپستوك الكبيرة؟».

قالت چيني:

- «نائمة. إنها لم تَعُد شابَّةً كما كانت».

سألتُ غير متوقِّعٍ إجابةً:

- «كم عُمرها؟».

وابتسمَت چيني، وهَزَّت لِتي كتفيها..

أمسَكتُ يد لِتي ونحن نُغادِر بيت المَزرعة، ووعَدتُ نفسي أني لن أترُكها هذه المرَّة أبدًا.

Twitter: @ketab_n

XIV

كان القَمر مُكتَمِلًا عندما دخَلتُ بيت المَزرعة من الباب الخلفي وكانت ليلة صيفٍ مثاليَّةً، وعندما غادَرتُ مع لِتي هِمبستوك وأُمِّها خرَجتُ من الباب الأمامي، وكان القَمر بسمةً بيضاء رفيعةً في أعالي السَّماء الغائِمة، والليل عاصِفًا بنسائم ربيعيَّةٍ مجهولة المصدر هَبَّت فجأةً من اتِّجاهٍ واحدٍ أولًا ثم من اتِّجاهٍ مُختَلِف، وبين الحين والآخَر تأتي عصفة ريحٍ مُحَمَّلَةً بنِثارٍ خفيفٍ من المطر لم يتجاوَز أكثر من هذا.

مشينا عَبر فِناء المَزرعة الذي فاحَت فيه رائحة السَّماد الكريهة وخرَجنا منه إلى الدَّرب، ثم مرَرنا بعطفةٍ في الطَّريق وتوقَّفنا. كنتُ أعرِفُ أين أنا بالضبط على الرغم من أن المكان كان مُظلِمًا. إنه المكان الذي بدأ فيه كلُّ شيء، الزَّاوية التي ركنَ فيها مُعَدِّن الأوبال سيَّارة أُسرتي الميني البيضاء، المكان الذي مات فيه وحده تمامًا بوجهٍ بلون عصير الرُّمَّان، شاعِرًا بالألم لماله الضَّائع، هناك على حافَّة أرض هِمبستوك حيث الحدود بين الحياة والموت شديدة الرِّقَّة.

Twitter: @ketab_n

قلتُ:

- «ربما يَجدُر بنا أن نوقِظ مسز هِمپستوك الكبيرة».

قالت لِتي:

- «ليس هكذا تجري الأمور. إنها تنام عندما تَشعُر بالتَّعب إلى أن تَستَيقِظ من تلقاء نفسها. لا سبيل لإيقاظها سواء نامت لدقائق قليلةٍ أو مئة عام، كأنك تُحاوِل إيقاظ قنبلةٍ ذَرِّيَّة».

وقفَت چيني هِمپستوك راسِخةً في مُنتَصَف الدَّرب، مديرةً ظَهرها لبيت المَزرعة، وصاحَت مُخاطِبةً الليل:

- «حسنٌ! حانَ الوقت!».

لا شيء.. رياحٌ مطيرةٌ تَهُبُّ ثم تَنقَضي..

تساءلَت لِتي:

- «لعلَّهم عادوا إلى ديارهم؟».

قالت چيني:

- «سيكون من اللَّطيف لو فعلوا. كلُّ هذا اللَّغو والهراء!».

شعرتُ بالذَّنب. كنتُ أعرِف أنها غلطتي أنا في المقام الأول. لو ظلَلتُ مُمسِكًا بيد لِتي لما حدثَ شيء من هذا. إرسولا مونكتن.. طيور الجوع.. لا ريبَ أن هذه الأشياء كانت مسؤوليَّتي أنا، بما في ذلك ما حدثَ -أو الذي يُعَدُّ أنه لم يَحدُث الآن- في مياه حوض الاستحمام الباردة في الليلة السَّابقة.

ثم خطرَت لي فكرة..

Twitter: @ketab_n

- «ألا يُمكنكِ أن تَقُصِّيه؟ ذلك الشيء في قلبي الذي يريدونه؟ ربما بإمكانكِ أن تَقُصِّيه كما فعلت جَدَّتكِ ليلة أمس».

اعتصرَت لِتي يدي في الظَّلام وقالت:

- «ربما بإمكان جَدَّتي أن تفعلها لو كانت هنا، لكني لا أستطيع، ولا أحسبُ أن أمي تستطيع كذلك. من الصَّعب جدًّا قَصُّ الأشياء من الزَّمن، فعليك أن تتأكَّد أن الحواف مُتناسِقة تمامًا، وحتى جَدَّتي لا تفعل هذا بشكلٍ سليم في كلِّ مرَّة، وهذا سيكون أصعب من ذاك. إنه شيء حقيقي، ولا أظُنُّ حتى أن جَدَّتي تستطيع أن تُخرِجه منك من دون أن تؤذي قلبك، وأنت تحتاج قلبك».

ثم أردفَت:

- «إنهم قادمون».

لكني أدرَكتُ أن شيئًا ما يَحدُث، أدرَكته قبل أن تقول هي أيَّ شيء.

للمرَّة الثانية رأيتُ الأرض تتوهَّج باللون الذَّهبي، وشاهَدتُ الأشجار والعُشب والشُّجيرات ومجموعات الصَّفصاف وحتى آخِر زهور النَّرجس البرِّي المُتناثِرة هنا وهناك تبدأ في التألُّق بضوءٍ خافتٍ صقيل. تطلَّعتُ حولي نِصف خائفٍ ونِصف مُتَعَجِّب، ولاحَظتُ أن الضوء كان أكثر لمعانًا من أيِّ مكانٍ آخَر وراء المنزل وإلى الغَرب حيث كانت البِركة.

سمعتُ خفقان أجنحةٍ عظيمةٍ وسلسلةً من الضربات المكتومة، والتفَتُّ ورأيتهم: كواسِر العدم، أكلَة الجيف، طيور الجوع.

Twitter: @ketab_n

لم يعودوا ظِلالًا الآن، ليس هنا، ليس في هذا المكان. كانوا حقيقيِّين جدًّا، وقد حَطُّوا في الظَّلام وراء وهج الأرض الذَّهبي مباشرةً. حَطُّوا في الهواء وفي الأشجار، وتقدَّموا إلى الأمام قدر استطاعة اقترابهم من أرض مَزرعة هِمبستوك الذَّهبيَّة. كانوا ضخام الحجم، كلٌّ منهم أكبر مني بمراحل.

على أنك كنت لتَستَخرِج مني وصفًا لهم بكثيرٍ من المشقَّة. كنتُ أراهم وأنظُرُ إليهم وأستَوعِبُ كلَّ ملمحٍ من ملامحهم، لكن بمجرَّد أن أشيح ببصري عنهم كانوا يتلاشون، ولا يتبقَّى شيء في وجداني حيث كانت طيور الجوع غير أنيابٍ ومخالب تُمَزِّق، أو مجسَّاتٍ تتلوَّى، أو فكوكٍ سُفليَّةٍ كيتينيَّة مكسوَّةٍ بالشَّعر. لم أستطِع الاحتفاظ بأوجُههم الحقيقيَّة في ذِهني، وعندما كنتُ ألتَفِتُ بعيدًا كانت المعرفة الوحيدة التي تتبقَّى معي هي أنهم كانوا يَنظُرون تجاهي مباشرةً، وأنهم نَهِمون شديدو الضَّراوة.

قالت چيني هِمبستوك بصوتٍ عالٍ ويداها على وَرْكَيٍّ معطفها البُنِّي:

- «حسنٌ يا ذوي الجمال الفخور، لا يُمكنكم البقاء هنا، وأنتم تَعرِفون هذا. حان وقت الرحيل».

ثم أضافَت ببساطة:

- «اذهبوا!».

غيَّرت طيور الجوع ذات العدد الذي يفوق الحُسبان أوضاعها، لكنها لم تُبارِح أماكنها، وبدأَت تُصدِر ضَجَّةً. ظننتُ أنهم يتهامَسون في ما بينهم، ثم بدا لي أن الضَّجَّة الصَّادِرة منهم كانت قهقهة استهزاء.

Twitter: @ketab_n

سمعتُ أصواتها بارزةً لكن مجدولةً معًا، فلم أُمَيِّز أيَّ كائنٍ فيها كان المُتكَلِّم.

- إنَّا طيور الجوع. لقد التَهمنا قصورًا وعوالم وملوكًا ونجومًا، ويُمكننا البقاء حيثما شِئنا.

- نحن نؤدِّي وظيفتنا.

- إننا ضروريُّون.

وانفجَرت ضاحكةً بصوتٍ صاخبٍ للغاية كأن قطارًا يدنو، واعتصَرتُ يد لِتي واعتصرَت يدي.

- سلِّمينا الصَّبي.

قالت چيني:

- «إنكم تُضَيِّعون وقتكم وتُضَيِّعون وقتي. عودوا إلى دياركم».

- لقد استُدعينا إلى هنا، ولا حاجة بنا للمُغادَرة إلى أن نفعل ما جِئنا من أجله. إننا نعيد الأمور إلى نِصابها الصحيح، فهل ستَحرِمِيننا من أداء عملنا؟

أجابَت چيني:

- «طبعًا سأفعلُ. لقد تناوَلتم عشاءكم، والآن لستم إلَّا مصدر إزعاج. ارحلوا أيها الهَوام المُتعامية. إنكم جميعًا بلا أدنى قيمةٍ عندي. فلتعودوا إلى دياركم!».

وهَزَّت رأسها بإيماءةٍ كأنها تَنفُضهم، وأطلقَ واحد من المخلوقات صرخة شهوةٍ وإحباطٍ طويلةٍ مُدَوِّيَةً.

Twitter: @ketab_n

كانت يد لِتي تَقبض على يدي بقُوَّةٍ، وقالت:

- «إنه تحت حمايتنا، وعلى أرضنا، وخطوة واحدة منكم على أرضنا ستعني نهايتكم، فارحلوا إذن».

بدا أن المخلوقات تتشاوَر معًا. رانَ الصَّمت على ليل ساسِكس، لا شيء إلَّا حفيف أوراق الشجر في الرِّيح، إلَّا صيحة بومةٍ بعيدة، إلَّا تنهُّد النَّسيم وهو يَمُرُّ، لكن في ذلك الصَّمت كان بإمكاني سماع طيور الجوع وهي تتجادَل، تَزِن خياراتها، تُخَطِّط للمسار الذي ستتَّخِذه.. وفي ذلك الصَّمت كنتُ أشعُرُ بعيونها المُسَلَّطَة عليَّ. ثم إن شيئًا ما في واحدةٍ من الأشجار خفقَ بجناحيه العظيمين وأطلقَ صرخةً امتزجَ فيها الظَّفر بالابتهاج، صيحة جوعٍ وسرورٍ مؤكَّدَة، وشعرتُ بشيءٍ في قلبي يتفاعَل مع الصَّرخة، كشظية جليد بالغة الدِّقَّة داخِل صدري.

- *لا يُمكننا اجتياز الحدود، هذا صحيح.. ولا يُمكننا أن نَأخُذ الضَّبي من أرضكم، وهذا صحيح أيضًا.. ولا يُمكننا إلحاق الضَّرر بمَزرعتكم أو مخلوقاتكم..*

- «هذا صحيح، لا يُمكنكم، فارحلوا إذن! عودوا إلى دياركم. أليست لديكم حرب تَرجِعون إليها؟».

- *لا يُمكننا إلحاق الضَّرر بعالمكم، هذا صحيح.*

- *لكن يُمكننا إلحاقه بهذا العالم.*

ومَدَّ واحد من طيور الجوع منقاره الحاد إلى الأرض عِند قدميه وبدأ يُمَزِّقها.. ليس كمخلوقٍ يتغذَّى على التُّربة والعُشب، بل كأنه كان يَأكُل حِجابًا أو قِطعة ديكور رُسِمَ عليها العالم. حيث التهمَ العُشب لم يتبقَّ شيء.. لا شيء حرفيًّا، بل مجرَّد لونٍ ذكَّرَني بالرَّمادي، وإن

Twitter: @ketab_n

كان رماديًّا نابِضًا بلا شكلٍ كالتشويش المتقلِّب على شاشة التليفزيون عندما تَفصِل سِلك الهوائي وتختفي الصورة كُلِّيَّةً.

كان هذا هو العَدَم.. ليس السواد، وليس الفراغ، بل ما يَكمُن تحت أديم الواقِع الرَّقيق.

وبدأت طيور الجوع تُرَفرِف وتَندَفِع أفواجًا..

حَطَّ الهَوام على شجرة سنديان ضخمةٍ وجعَلت تمزّقها وتبتلعها، وفي لحظاتٍ اختفَت الشَّجرة مع كلِّ شيءٍ كان وراءها.

خرجَ ثعلب من بين سياج أشجار وانسلَّ خلسةً على الدَّرب وقد أضيئَت عيناه ووجهه وذيله بنور المَزرعة الذَّهبي، وقبل أن يَبلُغ مُنتَصَف الطَّريق انتُزِعَ من العالم ولم يبقَ مكانه سوى العَدَم.

قالت لِتي:

- «كما قال من قبل، يجب أن نوقِظ جَدَّتي».

قالت چيني:

- «لن يروق لها هذا، كأننا نُحاوِل إيقاظ قنـ..».

- «لا يهم. إذا لم نوقِظها فسوف تُدَمِّر هذا الكون كله».

اكتفَت چيني بأن قالت:

- «لكني لا أدري كيف».

حلَّقَت مجموعة من طيور الجوع إلى رُقعةٍ من سماء الليل حيث يُمكن رؤية النجوم من بين السُّحُب، وبدأَت تمزِّقُ مجموعةً نجميَّةً تُشبه الطائرة الورقيَّة لم أكن لأَعرِف اسمها أبدًا، وخدَشت وشَقَّت

Twitter: @ketab_n

وازدرَدت وابتلَعت. خلال بضع نبضات قلب، حيث كانت المجموعة النجميَّة والسَّماء من قبل، لم يَعُد هناك الآن إلَّا اللاشيء النَّابِض الذي آلَمَ عينيَّ إذا نظَرتُ إليه مباشرةً.

كنتُ طِفلًا تقليديًّا، ما يعني أني كنتُ أنانيًّا وغير مُقتَنِع بالكامل بكينونة الأشياء التي ليست أنا، وكنتُ واثِقًا -واثِقًا تمامًا من دون أيِّ مجالٍ للرَّيبة- أني أهمُّ شيءٍ في الكون بأكمله، ولا شيء هنالك أكثر أهميَّةً مني على الإطلاق.

ومع ذلك كنتُ أُدرِكُ ما أراه: إن طيور الجوع سوف تُمَزِّق (لا، بل هي بالفِعل تُمَزِّق) هذا العالم تمامًا، تُحيله إلى لا شيء، وسرعان ما لن يتبقَّى أيُّ عالم. أمي، أبي، أختي، منزلي، أصدقاء المدرسة، بلدتي، جدودي، لندن، مُتحف التاريخ الطبيعي، فرنسا، التليفزيون، الكُتُب، مِصر القديمة—بسببي ستزول هذه الأشياء جميعها، ولن يعود هناك شيء في مكانها.

لم أكُن أريدُ أن أموت، والأهمُّ أني لم أكُن أريدُ أن أموت كما ماتت إرسولا مونكتن، تحت مخالب وأنياب كائناتٍ قد تكون بلا أرجُلٍ أو أوجُهٍ حتى..

لم أكُن أريدُ أن أموت على الإطلاق.. عليك أن تفهم هذا..

لكني لم أستطِع أن أسمح بدمار كلِّ شيء بينما لديَّ القُدرة على مَنْعِ هذا الدَّمار..

وتَرَكتُ يد لِتي هِمبستوك، وجريتُ بأقصى ما لديَّ من سرعةٍ عالِمًا أني إذا تردَّدتُ، بل إذا أبطَأتُ سرعتي حتى، فمعنى هذا أني سأُغَيِّر رأيي، وهذا أسوأ شيءٍ يُمكنني أن أفعله على الإطلاق، أن أُنقِذ حياتي.

Twitter: @ketab_n

كم ابتعَدتُ بالضبط؟ ليس كثيرًا على ما أعتَقِدُ مقارَنةً بسرعة تلك الأشياء.

كانت لِتي هِمبستوك تَصرُخ فيَّ أن أتوقَّف، لكني ظللتُ أجري عابِرًا أرض المَزرعة، حيث كان كلُّ عود عُشبٍ وكلُّ حصاةٍ في الدَّرب وكلُّ شجرة صَفصافٍ وسياجٍ من شجر البندق يتألَّق باللون الذَّهبي، وجريتُ نحو الظُّلمة وراء أرض هِمبستوك. جريتُ وكرهتُ نفسي لأني جريتُ، تمامًا كما فعلتُ في المرَّة التي وثبتُ فيها من فوق اللوح العالي في حوض السِّباحة. كنتُ أعرِفُ أن لا مجال هنالك للتراجُع، أن من المُحال أن ينتهي هذا بشيءٍ غير الألم، وكنتُ أعرِف أني مُستَعِدٌّ لافتداء العالم بحياتي.

ارتفعَت طيور الجوع في الهواء وأنا أنطَلِقُ صوبها كما تَرتَفِع الحمائم عندما تجري نحوها، ولَفَّت ودارت الظِّلال العميقة في الظَّلام.

وقفتُ هناك في العتمة وانتظَرتُها أن تَنحَدِر، انتظَرتُ أن تُمَزِّق مناقيرها صدري وأن تَلتَهِم قلبي.

وقفتُ هناك لمُدَّة نبضتَي قلبٍ تقريبًا، وشعرتُ كأن دهرًا قد انقضى.

ثم حدثَ ما حدثَ..

شيءٌ ما ارتطَم بي من الخلف وأسقطَني على وجهي في الوحل على جانِب الدَّرب، ورأيتُ شراراتٍ من الضوء لم تَكُن موجودةً حقًّا. صدمَت الأرض مَعِدَتي وشعرتُ بتفريغ الهواء الخارِج مني.

Twitter: @ketab_n

(ثمَّة ذكرى شبحيَّة تطفو إلى السَّطح هنا والآن، لحظة كالسَّراب كانعكاسٍ مُنتَزَعٍ في بِركة الذَّاكرة. أعرِفُ كيف كنتُ لأشعُر عندما أخذَ آكلو الجيف قلبي، كيف كنتُ لأشعُر عندما مزَّقت طيور الجوع -التي ليست غير أفواهٍ فقط- صدري وانتزعَت منه قلبي الذي لا يزال يَنبِض، والتهمَته كي تَصِلَ إلى الشيء المخفي في داخِله. أعرِفُ هذا الإحساس كأنه فِعلًا جزء من حياتي، أو من موتي.. ثم إن الذِّكرى تُقَصُّ وتُشَقُّ بإتقانٍ، و..).

وسمعتُ صوتًا يقول:

- «أيها الأحمق! ابقَ في مكانك، لا تتحرَّك».

كان صوت لِتي هِمبستوك، ولم يَكُن بإمكاني أن أتحرَّك حتى لو أرَدتُ. كانت جاثِمةً فوقي، وكانت أثقل وزنًا مني، وكانت تَدفَعني ووجهي إلى أسفل في العُشب والتُّربة المبتلَّة، ولم أستطِع أن أرى شيئًا.

لكني شعرتُ بهم..

شعرتُ بهم يرتطمون بها..

كانت تُثَبِّتني في مكاني، جاعِلةً من نفسها حاجِزًا بيني وبين العالم..

وسمعتُ صوت لِتي يَصرُخ ألمًا..

وشعرتُ بها تَرتَعِد وتَرتَعِش..

في الهواء كانت صيحات نصرٍ وجوعٍ قبيحة، وسمعتُ صوتي عاليًا في أُذُنيَّ يَئِنُّ ويَنشِج..

Twitter: @ketab_n

ثم قال صوت:

- «هذا غير مقبول».

كان صوتًا مألوفًا، لكني لم أستطِع تمييزه، ولا استطَعتُ التحرُّك لأرى من يتكلَّم.

كانت لِتي لا تزال فوقي تَرتَجِف، لكنها كَفَّت عن الحركة مع تردُّد الصوت الذي واصَل:

- «بأيِّ سُلطةٍ تُؤذون طِفلتي؟».

صَمْتٌ، ثم..

- *كانت تحول بيننا وبين فريستنا الشَّرعيَّة.*

- «أنتم زبَّالون، أكلة نفايات، قمامة، زبالة. أنتم مُنَظِّفون. أتحسَبون أنكم تَقدِرون على إيذاء عائلتي؟».

عَرِفتُ صاحِبة الصوت. كان له وَقْعُ صوت جَدَّة لِتي، صوت مسز هِمبستوك الكبيرة. عَرِفتُ أنه وَقْعُ صوتها، غير أنه كان مُختَلِفًا للغاية. كانت مسز هِمبستوك الكبيرة لتتكلَّم بهذا الأسلوب لو كانت إمبراطورةً، صوتها مُتَكَلِّفٌ رَسْمِيٌّ رَنَّانٌ، لكنه موسيقيٌّ أكثر من صوت العجوز الذي عَرِفته.

شيءٌ ما مبتلٌّ ودافئٌ كان يُغرِق ظَهري..

- *لا.. لا يا سيِّدتي.*

كانت هذه أول مرَّةٍ أسمعُ فيها الرَّهبة أو الشَّكَّ في صوت واحدٍ من طيور الجوع.

Twitter: @ketab_n

- «هناك مواثيق، وهناك قوانين ومُعاهَدات، ولقد انتهَكتموها جميعًا».

صَمْتٌ.. صَمْتٌ أصخَب من أيِّ كلمات يُمكن أن تُنطَق. لم يَكُن لديها ما تقوله.

شعرتُ بجسد لِتي يُدَحرَج من فوقي، ورفعتُ عينيَّ لأرى وجه چيني هِمپستوك الحسَّاس. جلسَت على الأرض على حافَّة الطَّريق، ودفَنتُ رأسي في صدرها، وطوَّقَتني بذراعٍ وطوَّقَت ابنتها بالأخرى.

من قلب الظَّلام تكلَّم أحد طيور الجوع بصوتٍ لم يَكُن بصوت، ولم يَقُل إلَّا: *نحن آسِفون لخَسارتك*.

- «آسِفون؟»، بُصِقَت الكلمة ولم تُلفَظ.

تمايلَت چيني هِمپستوك من جانِبٍ إلى آخَر وهي تُدَندِن لي ولابنتها بصوتٍ واطئٍ بلا كلمات. كانت ذراعاها حولي، ورفَعتُ عينيَّ لأنظُر إلى المُتكَلِّمَة وقد شوَّشَت الدُّموع رؤيتي.

وحدَّقتُ فيها..

كانت مسز هِمپستوك الكبيرة على ما أعتَقِدُ، لكنها لم تَكُن كذلك. كانت جَدَّة لِتي بالطَّريقة نفسها التي..

أعني..

كانت تتألَّق بلونٍ فِضِّي. شَعرها كان لا يزال أبيضَ طويلًا، لكنها الآن كانت تَقِفُ طويلةً مُعتَدِلَة القامة كفتاةٍ مُراهِقة. كانت عيناي قد اعتادَتا تمامًا على الظَّلام، ولم أستطِع التطلُّع إلى وجهها لأرى إن كان الوجه المألوف لي ذاته. كان لامِعًا للغاية، لامِعًا كضوء المغنيسيوم،

Twitter: @ketab_n

لامِعًا كليلة الألعاب الناريَّة، لامِعًا كنور شمس الظُّهر المُنعَكِس على عُملةٍ فِضِّيَّة.

إليها نظَرتُ لأطول فترةٍ في احتمالي، ثم أشَحتُ بوجهي مُغلِقًا عينيَّ بإحكامٍ شديد، غير قادِرٍ على رؤية أيِّ شيءٍ غير صورةٍ أثيريَّةٍ نابِضةً.

قال الصوت الشبيه بصوت مسز هِمبستوك الكبيرة:

- «هل أُقَيِّدكم أيها المخلوقات بقلب نجمٍ مُظلِمٍ كي تَشعُروا بألمكم في مكانٍ يدوم فيه كلُّ جزءٍ من كلِّ لحظةٍ ألف عام؟ هل أُنَفِّذ مواثيق الخَلق وأحذِفكم جميعًا من قائمة الأشياء المخلوقة فلا يكون قد وُجِدَ شيء اسمه طيور الجوع أبدًا، فيستطيع كلُّ شيءٍ يروم التسكُّع من عالمٍ إلى عالمٍ أن يفعل هذا من دون عقوبة؟».

أصغَيتُ مُنتَظِرًا رَدًّا، لكن لم أسمع شيئًا إلَّا أنينًا، تأوُّهًا مصدره الألم أو الإحباط.

- «لقد انتهَيتُ منكم. سوف أتعامَل معكم بطريقتي الخاصَّة في الوقت الذي أختاره، أمَّا الآن فيجب أن أنصَرِف إلى الطِّفلين».

- نعم يا سيِّدتي.

- شكرًا يا سيِّدتي.

- «ليس بهذه السرعة. لن يَذهَب أحدكم إلى أيِّ مكانٍ قبل أن تضعوا كلَّ شيءٍ كما كان في مكانه. كوكبة العَوَّاء مفقودة من السَّماء، وشجرة سنديان، وثعلب. ضعوها كلها في مكانها كما كانت تمامًا».

ثم أضافَت الإمبراطورة الفِضِّيَّة بصوتٍ كان الآن جليًّا أنه صوت مسز هِمبستوك الكبيرة كذلك:

Twitter: @ketab_n

- «هَوام!».

كان أحدهم يُدَندِن بلَحْنٍ ما، ثم إنني أدرَكتُ -كأن الصوت كان يأتي من بعيدٍ جدًّا- أنه صوتي أنا، في اللحظة نفسها التي تذكَّرتُ فيها أنه لحن أغنيَّة *Girls and Boys Come Out to Play*.

.. القَمر مضيءٌ كنور النَّهار السَّاطع

فاتْركوا اللحم واتْركوا العشاء

وانضمُّوا لرفاق اللَّعب في الشارع

تعالوا هاتِفين، تعالوا مُرَدِّدين النِّداء

تعالوا بقلبٍ كامل أو لا تأتوا أبدًا..

ظللتُ مُتَمَسِّكًا بچيني هِمپستوك. كانت رائحتها كمَزرعةٍ ومطبخ، كالحيوانات والطعام. كانت رائحتها حقيقيَّةً جدًّا، والحقيقي هو ما كنتُ بحاجةٍ إليه في تلك اللحظة.

مدَدتُ يدًا ومسَستُ كتف لِتي بتردُّد، لكنها لم تتحرَّك أو تَستَجِب.

ثم بدأَت چيني تتكلَّم، لكني لم أدرِ إن كانت تُخاطِب نفسها أم لِتي أم تُخاطِبني:

- «لقد تجاوَزوا حدودهم. كان يُمكنهم أن يؤذوك يا بني من دون أن يعني هذا شيئًا لهم. كان يُمكنهم أن يؤذوا هذا العالم من دون كلمةٍ تُذكَر، فهو مُجرَّد عالمٍ في النهاية، والعوالم عديدة كحبَّات الرَّمل في الصحراء. لكن لِتي هِمپستوك صغيرتي خارِج نطاق سُلطانهم، ولقد آذوها».

نظَرتُ إلى لِتي. كان رأسها مائِلًا إلى أسفل مواريًا وجهها، وعيناها كانتا مُغلَقتين.

Twitter: @ketab_n

سألتُ:

- «هل ستكون بخير؟».

لم تُجِب چيني، فقط ضمَّتنا أكثر إلى صدرها وأخذَت تتأرجَح وتُدَندِن بأغنيَّةٍ بلا كلمات.

لم يَعُد الضوء الذَّهبي يَنبَعِث من المَزرعة وأرضها، ولم أعُد أشعُرُ بأيِّ شيءٍ يُراقِبني من بين الظِّلال.

قال صوتٌ عجوزٌ عاد مألوفًا من جديد:

- «لا تَقلَق. أنت آمِنٌ كالبيوت، بل أكثر أمنًا من مُعظَم البيوت التي رأيتها. لقد رحَلوا».

- «لكنهم سيعودون من جديد. إنهم يُريدون قلبي».

قالت مسز هِمپستوك الكبيرة:

- «إنهم لن يعودوا إلى هذا العالم مرَّةً أخرى ولو من أجل كلِّ الشاي الذي في الصِّين، فلا حاجة بهم للشاي -أو للصِّين- أكثر من حاجة غرابٍ يَأكُل الجيفة».

لماذا حَسِبتُ أنها كانت تَرتَدي الفِضِّي؟ لقد كانت تَرتَدي معطفًا منزليًّا كثير الرُّقَع فوق شيءٍ لا بُدَّ أنه كان ثوب نومٍ نسائيًا، لكنه ثوب لم يَعُد صالِحًا للعَصر منذ مئات الأعوام.

وضعَت العجوز يدًا على جبين حفيدتها الشَّاحِب ورفعَته ثم تركَته، وهَزَّت أُمُّ لِتي رأسها قائلةً:

- «انتهى الأمر».

Twitter: @ketab_n

وفَهِمتُ أخيرًا، وشعرتُ بالحماقة لأني لم أفهَم قبل ذلك. الفتاة المُجاوِرة لي في حِجر أُمِّها وصدر أُمِّها ضَحَّت بحياتها لتُنقِذ حياتي.

قلتُ:

- «كان من المُفترَض أن يُؤذوني أنا وليس هي».

قالت العجوز مُتَنَشِّقَةً:

- «لم يَكُن هناك ما يدعو لأن يَأخُذوا أيكما».

وشعرتُ بالذَّنب يَغمُرني، ذنب لا يُضاهيه شيء شعرتُ به في حياتي من قبل.

قلتُ بأمل:

- «يجب أن نَأخُذها إلى المستشفى. يُمكننا أن نتَّصل بطبيب. لعلَّهم يستطيعون شفاءها».

هَزَّت چيني رأسها نفيًا، فسألتُ:

- «أهي ميِّتة؟».

- «ميِّتة؟»، ردَّدَتها العجوز ذات المعطف المنزلي بلهجة من أُهين، وأردفَت ضاغِطةً على مخارِج ألفاظها بمِلء النَّفَس كأن هذه هي الوسيلة الوحيدة لإيصال جِدِّيَّة كلماتها لي: «كأن أيَّ هِمبستوك قد يفعل شيئًا تقليديًّا كهذا!»

قالت چيني هِمبستوك ضامَّةً إياي إليها أكثر:

- «إنها جريحة، جريحة لأقصى مدى يُمكنه أن يُصيبها. إنها دانية جدًّا من الموت حتى أن لا فارِق إذا لم نفعل شيئًا وبسرعة».

Twitter: @ketab_n

وحُضْنٌ أخيرٌ، ثم:

- «حسنٌ، قُم الآن».

وابتعَدتُ عن حُضنها على مضضٍ ونهَضتُ، ونهضَت چيني هِمپستوك وجسد ابنتها رَخْوٌ بين ذراعيها. تدلَّى جسد لِتي واهتَزَّ كدُميةٍ قُماشيَّةٍ إذ نهضَت أُمُّها، وحدَّقتُ فيها مصدومًا بما لا يُقاس.

قلتُ:

- «إنها غلطتي. أنا آسِف. أنا آسِف جدًّا».

قالت مسز هِمپستوك الكبيرة:

- «كنت تَقصِد خيرًا».

إلَّا أن چيني هِمپستوك لم تَقُل شيئًا على الإطلاق، فقط مشَت على الدَّرب صوب المَزرعة، ثم انعطفَت وراء سقيفة الحَلْب. خطرَ لي أن لِتي أكبر حجمًا من أن تُحمَل، لكن چيني حملَتها كأنها لا تزيد وزنًا عن هريرةٍ صغيرة، ورأسها والجزء العلوي من جسدها مستريحان على كتف چيني كطِفلةٍ نائمةٍ محمولةٍ إلى فِراشها. حملَتها چيني على ذلك الطَّريق وإلى جوار سياج الشُّجيرات، وإلى مؤخِّرة المَزرعة أكثر فأكثر، حتى وصَلنا إلى البِركة.

لم تَكُن هناك نسمة هواءٍ واحدةٍ في المكان، والليل كان ساكِنًا تمامًا، وأضاءَ طريقنا نور القَمر وحده. عندما بلَغناها، كانت البِركة مجرَّد بِركة، لا ضوء ذهبيًّا وهَّاجًا، ولا قمر سِحريًّا مُكتَمِلًا. كانت البِركة مُظلِمةً فاتِرةً، والقَمر -القَمر الحقيقي، المُحاق- يَنعَكِس على سَطحها.

Twitter: @ketab_n

وقَفتُ عِند حافَّة البِركة، ووقفَت مسز هِمبستوك الكبيرة إلى جانِبي.

لكن چيني هِمبستوك واصلَت السَّير.

خاضَت مُتمايِلةً داخِل البِركة إلى أن وصلَ الماء حتى فخذيها، ومعطفها وتنُّورتها طافيان على الماء وهي تخوض مُكَسِّرَةً القَمر المُنعَكِس إلى عشراتٍ من الأقمار الصغيرة التي تناثرَت وتجمَّعَت من جديد حولها.

في مركز البِركة، والمياه السوداء تَرتَفِع فوق وَرْكيها، توقَّفَت وأنزلَت لِتي عن كتفها، فصار جسد الفتاة مدعومًا عِند الرأس والرُّكبتين بيديِّ چيني هِمبستوك العمليَّتين. ثم إنها ببطء، ببطءٍ شديدٍ جدًّا، مدَّدَت لِتي في الماء.

وطفا جسد الفتاة على سَطح البِركة..

تراجعَت چيني خطوةً إلى الوراء، ثم خطوةً أخرى، من دون أن تَحيد عيناها عن ابنتها.

سمعتُ شيئًا يَندَفِع بصوتٍ صاخِب، كأن رياحًا عاصفةً كانت تتَّجه نحونا.

وارتجفَ جسد لِتي..

لم يَكُن هناك نسيم في الجو، لكن الآن كانت هناك تموُّجات مُزبِدة على سَطح البِركة. رأيتُ أمواجًا، أمواجًا خفيفةً تتلاطَم ببعضها بعضًا برِقَّةٍ في البداية، ثم أمواجًا أكبر انكسرَت وتقلَّبَت عِند حافَّة البِركة. موجةٌ منها بلغَت ذُروتها وسقطَت بالقُرب مني ليتناثَر ماؤها

Twitter: @ketab_n

على ملابسي ووجهي، واستطعتُ تذوُّق بلل الماء على شفتيَّ، وكان ماءً مالِحًا.

همستُ:

- «أنا آسِف يا لِتي».

كان من المُفترَض أن أتمكَّن من رؤية الضَّفَّة الأخرى من البِركة، فقد رأيتها قبل لحظاتٍ قليلةٍ لا أكثر، لكن الأمواج المُتلاطِمة حجبَتها، ولم أعُد أرى شيئًا وراء جسد لِتي الطَّافي غير المُحيط الوحيد الشَّاسِع والظَّلام.

تنامَت الأمواج أكثر، وبدأ الماء يتوهَّج في نور القَمر كما توهَّجَ وهو في الدَّلو، توهَّجَ بلونٍ أزرقَ شاحِبٍ مثالي. الشَّكل الأسود على سَطح الماء كان جسد البنت التي أنقذَت حياتي.

استراحَت أصابع نحيلة على كتفي، وقالت صاحِبتها:

- «علامَ تَعتَذِر أيها الصَّبي؟ على قَتلها؟».

هزَزتُ رأسي إيجابًا غير مُؤْتَمِنٍ نفسي على الكلام.

- «إنها ليست ميِّتةً. أنت لم تَقتُلها، ولا قتلَتها طيور الجوع، على الرغم من أنهم بذلوا قصارى جهدهم كي يَصِلوا إليك من خلالها. لقد أُعطِيَت إلى مُحيطها، وذات يومٍ، في الوقت الذي يُناسِبه، سيُعيدها المُحيط».

فكَّرتُ في الجُثَث والهياكل العظميَّة ذات اللآلئ مكان العيون، وفكَّرتُ في عرائس البحر ذات الذيول التي تَضرِب الماء عندما

Twitter: @ketab_n

يتحرَّكنَ، كذيل سمكتي الذهبيَّة قبل أن تَكُفَّ عن الحركة وتطفو وبطنها إلى أعلى -مِثل لِتي- على سَطح الماء.

قلتُ:

- «هل ستبقى كما كانت؟».

أطلقَت العجوز قهقهةً عاليةً كأني قلتُ أطرف شيءٍ في العالم، وقالت:

- «لا شيء يبقى كما كان أبدًا. سواء بعد ثانيةٍ واحدةٍ أو مئة عام، كلُّ شيءٍ يتحرَّك ويتبدَّل، والناس يتغيَّرون تمامًا كالمُحيطات».

خرجَت چيني من الماء ووقفَت على حافَّة البِركة إلى جواري وقد حنَت رأسها. تلاطمَت الأمواج وتكسَّرَت ونثرَت الماء وتراجعَت، وتردَّدَ هزيمٌ بعيد سرعان ما صارَ أدنى وأصخَب. شيءٌ ما كان قادِمًا نحونا عَبر المُحيط، ومن على بُعد أميال، مئاتٍ ومئاتٍ من الأميال، جاءَ الخَطُّ الأبيض الرَّفيع المحفور في قلب الأزرق المضيء، ومع دُنُوِّه نما أكثر فأكثر.

جاءَت الموجة العارِمة وهدرَ العالم، ورفَعتُ عينيَّ إلى أعلى إذ بلغَتنا. كانت أعلى من الأشجار، من البيوت، أعلى من استيعاب العقول والعيون والقلوب.

غير أن الموجة العارِمة انكسرَت عندما بلغَت جسد لِتي هِمپستوك الطَّافي. توقَّعتُ أن أغرق، أو أسوأ من هذا، أن تَكنُسني مياه المُحيط الغاضبة، ورفَعتُ ذراعيَّ لأُغَطِّي وجهي.

Twitter: @ketab_n

لكن لم يَكُن هناك ماء تناثَر من جرَّاء تكسُّر الموجة على الضَّفَّة، ولا صدمة تَصُمُّ الآذان، وعندما خفَضتُ ذراعيَّ لم أرَ إلَّا مياه بِركةٍ سوداء ساكِنةٍ في الليل، ولم يَكُن على سَطح البِركة سوى الزنابق المُتناثِرة وانعكاس المُحاق العميق.

كانت مسز هِمبستوك الكبيرة قد اختفَت أيضًا. حَسِبتُ أنها كانت واقفةً إلى جواري، لكن لم يَكُن هناك إلَّا چيني إلى جانِبي، تَرمُق مرآة البِركة الصغيرة المُظلِمة في صَمت.

قالت:

- «حسنٌ، سأصحَبك إلى بيتك الآن».

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

XV

كانت اللاند روڤر مركونةً وراء زريبة الأبقار، أبوابها مفتوحة والمفتاح في المشغِّل. جلَستُ على المقعد الأمامي المُغطَّى بأوراق الصُّحُف، وراقَبتُ چيني هِمپستوك وهي تدير المفتاح، وفرقعَ المُحَرِّك بضع مرَّاتٍ قبل أن يدور. لم أتصوَّر أن واحدةً من عائلة هِمپستوك كانت تُمارِس القيادة، وقلتُ:

- «لم أعرِف أن لديكنَّ سيَّارة».

قالت مسز هِمپستوك بحِدَّة:

- «أشياءَ كثيرة لا تَعرِفها».

ثم رمقَتني بنظرةٍ أكثر دماثةً وأضافَت:

- «لا أحد يَعرِف كلَّ شيء».

تراجعَت باللاند روڤر، وشَقَّت السيَّارة طريقها الوَعِر عَبر الأخاديد والبِرَك الموحلة في مؤخِّرة فِناء المَزرعة.

شيءٌ ما كان يدور في بالي، وأفصَحتُ عنه قائلًا:

Twitter: @ketab_n

- «مسز هِمبستوك الكبيرة تقول إنها ليست ميِّتةً حقًّا، لكنها بدَت ميِّتةً. أعتَقِدُ أنها ماتت فِعلًا، ولا أحسبُ أنه صحيح أنها لم تَمُت».

بدَت چيني كأنها على وشك أن تقول شيئًا عن طبائع الحقائق، لكنها اكتفَت بأن قالت:

- «لِتي جريحة، وجُروحها بالِغة جدًّا. لقد أخذَها المُحيط، ولا أعرِفُ صِدقًا إن كان سيُعيدها مرَّةً أخرى. لكن يُمكننا أن نأمل خيرًا، أليس كذلك؟».

- بلى

وكوَّرتُ يديَّ صانِعًا قبضتين وأمَلتُ بقَدر ما لديَّ من كَدٍّ.

كنا نقطَع الدَّرب مُتَخَبِّطَيْن مُتَرَجْرِجَيْن بسرعة خمسة عشر ميلًا في الساعة.

- «هل كانت.. هل هي ابنتكِ حقًّا؟».

لم أدرِ -وما زلتُ لا أدري- لِمَ ألقيتُ عليها هذا السؤال. لعلِّي أرَدتُ أن أعرِف أكثر عن الفتاة التي أنقذَت حياتي، التي نجدَتني أكثر من مرَّة. الحقيقة أني لم أكُن أعرِفُ شيئًا عنها.

قالت چيني:

- «بشكلٍ أو بآخَر. رجال هِمبستوك، إخوتي، خرَجوا إلى العالم وأنجَبوا أطفالًا أنجَبوا أطفالًا بدورهم. ثمَّة نساء من عائلة هِمبستوك موجودات في عالمك، وأُراهِن أن كلَّ واحدةٍ منهنَّ أعجوبةٌ على طريقتها الخاصَّة، لكن الجَدَّة وأنا ولِتي فقط الشيء الحقيقي الخالِص».

Twitter: @ketab_n

- «لم يَكُن لديها أب؟».

- «نعم».

- «هل كان لديك أب؟».

- «إنك مُفعَم بالأسئلة، أليس كذلك؟ لا يا صغيري، نحن لم نُمارِس تلك الأشياء قَطُّ، ولا نحتاج الرجال إلَّا إذا رغبنا في إنجاب المزيد من الرجال».

- «لستِ مُلزَمةً بأن تُعيديني إلى منزلي. يُمكنني البقاء معكما والانتظار حتى تَرجِع لِتي من المُحيط. يُمكنني أن أعمل في المَزرعة، أحمل الأشياء وأتعلَّم كيف أقودُ الجرَّار».

قالت: «لا»، لكنها قالتها بلُطف. «يجب أن تُواصِل حياتك. لِتي منحَتك إياها، وعليك أن تَكبُر وتُحاوِل أن تكون جديرًا بها».

لمحةٌ من الاستياء في نبرتها. من الصَّعب كفايةً أن تكون حيًّا، أن تُحاوِل البقاء في العالم وتَجِد مكانك فيه، وتفعل ما ينبغي عليك أن تَفعله كي تتدبَّر أمورك دون أن تتساءَل إن كان ما فعلته -أيًّا كان- يَستَحِق أن تكون إنسانة ما قد.. إن لم يَكُن قد ماتت، فقد ضَحَّت بحياتها. هذا ليس عدلًا.

قالت چيني كأني تلفَّظتُ بأفكاري:

- «الحياة ليست عادلة».

وانعطفَت إلى ممرِّ السيَّارات الخاص بنا وأوقفَت السيَّارة أمام الباب الأمامي، وخرَجتُ وكذلك هي، وقالت:

- «من الأفضل أن أُسَهِّل عليك عودتك».

Twitter: @ketab_n

رَنَّت مسز هِمبستوك الجرس، على الرغم من أن الباب لم يَكُن يوصَد أبدًا، ونظَّفَت نعليّ حذاءها المطَّاطي جيِّدًا على الممسحة قبل أن تَفتَح أمي الباب. كانت تَستَعِد لدخول الفِراش، وارتدَت معطفها المنزلي الوردي المبطَّن.

قالت چيني:

- «ها هو ذا، سَليم وآمِن. الجُندي الصغير عاد من الحرب. لقد قضى وقتًا رائعًا في حفل وداع صغيرتنا لِتي، لكن حان الوقت الآن لأن يَخلُد هذا الشَّاب إلى الرَّاحة».

بدَت أمي غير قادِرةٍ على الاستيعاب، تكاد تكون مُرتَبِكةً، ثم حَلَّت بسمةٌ محلَّ الارتباك كأن العالم أعاد صياغة نفسه في قالِبٍ مفهوم، وقالت:

- «أوه، لم يَكُن من الضروري أن تُعيديه. كان من الممكن أن يأتي أحدنا ويَأخُذه». ثم نظرَت إليَّ قائلةً:

- «ماذا تقول لمسز هِمبستوك يا حبيبي؟».

بآليَّةٍ أجَبتُ:

- «شكرًا على استضافتكم لي».

قالت أمي: «أحسَنت يا صغيري»، ثم: «لِتي راحِلة؟».

قالت چيني:

- «إلى أستراليا، لتُقيم مع والدها. سنَفتَقِد وجود هذا الصغير ليَلعَب عندنا، لكن سنُخبِركم عندما تعود لِتي، ويُمكنه أن يأتي ويَلعَب ساعتها».

كنتُ قد بدَأتُ أصاب بالتَّعب. كان الحفل مُمتِعًا وإن كنتُ لا

Twitter: @ketab_n

أذكُرُ الكثير عنه. إلَّا أني كنتُ أعرِفُ أني لا أستطيعُ زيارة مَزرعة هِمبستوك ثانيةً، ليس ولِتي غير موجودةٍ هناك.

أستراليا بعيدة جدًّا جدًّا عن هنا، وتساءَلتُ كم من الوقت سيمضي قبل أن تعود لِتي من هناك مع أبيها. سنين على ما أظُنُّ. أستراليا على الجانِب الآخَر من العالم، عَبر المُحيط.

جزءٌ صغيرٌ من عقلي تذكَّر مسارًا بديلًا للأحداث ثم أفلتَ منه، كأني صحوتُ من نومةٍ مريحةٍ وتطلَّعتُ حولي، ثم جذَبتُ الأغطية فوقي وعُدت إلى حُلمي.

عادَت مسز هِمبستوك إلى سيَّارتها اللاند روڤر العتيقة المُلَطَّخَة بالأوحال (كما استطَعتُ أن أرى الآن في ضوء المصباح الذي يعلو الباب الأمامي)، ولم يَكُن هناك أيُّ أثرٍ ظاهِرٍ تقريبًا لطلائها الأصلي، وقد تراجعَت بها على الممرِّ نحو الدَّرب.

لم تَبْدُ أمي متضايقةً من عودتي إلى المنزل مرتديًا ملابس رسميَّةً أنيقةً في حوالى الحادية عشرة مساءً، وقالت:

- «لديَّ خبر سيِّئ يا صغيري».

- «ماذا؟».

- «إرسولا اضطرَّت لأن تُغادِر. ظروف عائليَّة. ظروف عائليَّة مُلِحَّة. لقد رحلَت بالفِعل. أعلمُ كم كنت وأختك تُحِبَّانها».

كنتُ أعرِف أني لم أكُن أُكِنُّ لها أيَّ حُب، لكني لم أُعَلِّق.

لم يَكُن هناك أحد نائم في غُرفة نومي عِند قِمَّة السلالم. سألَتني

Twitter: @ketab_n

أمي إن كنتُ أرغَبُ في استعادة غُرفتي لفترة، لكني رفضتُ وأنا غير متأكِّدٍ من سبب رفضي. لم أستطِع أن أتذكَّر لِمَ كنتُ أمقُت إرسولا مونكتن كثيرًا هكذا -والحق يُقال إني أحسستُ بشيءٍ من الذَّنب لأني شعرتُ بكلِّ هذا البُغض نحوها بهذا الشكل المُطلَق غير العقلاني- لكن لم تَكُن لديَّ رغبة في العودة إلى تلك الغُرفة، على الرغم من الحوض الأصفر الصغير الذي يُناسِب حجمي تمامًا، وبقيتُ في غُرفة النوم المشترَكة إلى أن تركَت عائلتي هذا المنزل بعد نِصف عَقدٍ من الزَّمن (مع اعتراضٍ مني وأختي، بينما كان الكبار يتنفَّسون الصُّعداء في ظَنِّي لانتهاء متاعبهم الماليَّة أخيرًا).

هُدِمَ المنزل بَعد تركنا له، ولم أذهب لأراه وهو يَقِفُ خاليًا، ورفَضتُ أن أشهَد الهَدم. أشياء كثيرة من حياتي كانت جزءًا من هذا الطُّوب والقرميد، هذه الأنابيب والجدران.

بعد سنواتٍ أسَرَّت لي أختي -البالِغة الآن- باعتقادها أنَّ أُمَّنا قد طردَت إرسولا مونكتن (التي تذكَّرَتها بولعٍ شديد باعتبارها اللَّطيفة الوحيدة في سلسلةٍ من جليسات الأطفال النَّكِدات)، لأن أبي كان يُقيم علاقةً غراميَّةً معها. اتَّفَقتُ معها على أن هذا جائِز. كان أبوانا ما زالا على قيد الحياة وقتها، وكان من الممكن أن أسألهما، غير أني لم أفعل.

ولم يأتِ أبي على ذِكر أحداث تلك الليالي، لا وقتها ولا بَعدها.

أصبَحتُ وأبي صديقين أخيرًا وأنا في العشرينات من عُمري. كان هناك القليل من الأشياء المُشترَكة بيننا وأنا صبي، وأنا على يقينٍ من أني كنتُ بمثابة خيبة أملٍ له. إنه لم يَطلُب أن يكون له ابن لا هَمَّ له إلَّا الكُتُب، يغيب في عالمه الخاص، بل أرادَ ابنًا يفعل ما كان يفعله

Twitter: @ketab_n

هو؛ يَسبَح ويَلعَب المُلاكَمة والرَّجبي ويَنغَمِس في قيادة السيَّارات السريعة بمرح، لكن لم يَكُن ذلك هو الابن الذي رُزِقَ به.

لم أقطَع الدَّرب حتى نهايته قَطُّ، ولم أُفكِّر في الميني البيضاء، وكنتُ أُفكِّرُ في مُعَدِّن الأوپال فقط في سياق حَجَرَيّ الأوپال الخَشِنَيْنِ الخام اللذين استقرَّا على رَفِّ المدفأة، وفي ذاكرتي كان دائمًا يرتدي قميصًا ذا نقوشٍ مربَّعة وسروال چينز. وجهه وذراعاه كانوا مُسْمَرِّين، لكن ليسوا باللون الأحمر الكرزي النَّاتِج عن التَّسمُّم بأول أوكسيد الكربون، ولم يَكُن يرتدي ربطة عُنُقٍ معقودةً كالفراشة.

ظَلَّ مونستر -القِطُّ البُنِّي المخطَّط الذي تركه لنا مُعَدِّن الأوپال- هائمًا هنا وهناك لتُطعِمه عائلات أخرى، وعلى الرغم من أننا كنا نراه بين الحين والآخَر يطوف خِلسةً بين المصارِف والأشجار على جانِب الدَّرب، فإنه لم يَكُن يأتي أبدًا عندما نُنادي عليه. أعتَقِدُ أني استرَحتُ لهذا، فهو لم يَكُن قِطَّنا من البداية، وكنا نَعرِف هذا وكذلك هو.

لا تكون لأيِّ قِصَّة أهميَّة على ما أظُنُّ إلَّا من خلال مدى التغيُّر الذي يَطرَأ على الأشخاص في هذه القِصَّة. لكني كنتُ في السابعة عندما وقعَت كلُّ هذه الأحداث، وكنتُ الشخص نفسه في ختامها الذي كنته في مُستهَلِّها، أليس كذلك؟ والجميع أيضًا.. لا بُدَّ أنهم ظَلُّوا كما هُم.. الناس لا يتغيَّرون.

لكن بعض الأشياء تغيَّر..

بَعد مرور ما يَقرُب من شهرٍ على الأحداث التي دارَت هنا، وقبل خمسة أعوامٍ من هَدم العالم الآيِل للسُّقوط الذي عِشْتُ فيه، لتَحِلَّ مَحَلَّهُ منازل عاديَّة صغيرة وأنيقة يَقطُن فيها شبابٌ ذَكِيٌّ يعمل

Twitter: @ketab_n

في المدينة لكن يعيش في بلدتي، ويَكسِب رزقه من نَقْلِ الأموال من مكانٍ إلى آخَر، لكن لا يَبني أو يَحفُر أو يَزرَع أو يَنسج، وقبل تسع سنواتٍ من القُبلة الأولى التي طَبَعتها على شفتيَّ كالي آندرز الباسِمتَين..

عُدْتُ من المدرسة. كان شهر مايو ربما، أو أوائل يونيو، وكانت تَنتَظِرني هناك عِند باب المنزل الخلفي وكأنها كانت تَعرِف أين هي بالضَّبط وعمَّن تَبحَث: قِطَّة سوداء شابَّة، أكبر حجمًا من هِرَّةٍ صغيرةٍ الآن، ذات بُقعةٍ بيضاء فوق إحدى أُذُنيها، وعينين من لونٍ أزرقَ مائل إلى الأخضر، قوي وغير طبيعي.

وتَبِعَتني القِطَّة إلى داخِل المنزل..

أطعَمتها من عُلبةٍ لم تُفتَح من طعام مونستر، وغرَفتُ منها في وعائه المُترِب.

لم يُلاحِظ أبواي -اللذان لم يُلاحِظا اختفاء القِطِّ البُنِّي إطلاقًا كذلك- وصول القِطَّة الصغيرة الجديدة، ولمَّا عَلَّقَ أبي على وجودها كانت تعيش معنا منذ عِدَّة أسابيع بالفِعل، تَستكشِف الحديقة حتى عودتي من المدرسة، ثم تبقى بالقُرب مني وأنا أقرأُ أو ألعبُ. في الليل كانت تَنتَظِر تحت الفِراش إلى أن تُطفَأ الأنوار، ثم تأوي إلى الوسادة إلى جواري، تُمَشِّط شَعري وتُقَرقِر بهدوءٍ شديدٍ كي لا تُزعِج أختي أبدًا.

كنتُ أغيبُ في النوم وقد دفَنتُ رأسي في شَعرها، بينما أشعُرُ بذبذباتِ قريرها المُكَهْرَب الرَّقيق على وجنتي.

عيناها كانتا غير تقليديَّتين حقًّا، وجعلَتاني أُفكِّر في ساحِل البحر، وهكذا سَمَّيتها أوشَن، ولَم أكُن لأملك إجابةً إذا سألتَني لِمَ.

Twitter: @ketab_n

خاتمة

جلَستُ على المقعد الطويل المتداعي على حافَّة بِركة البَط، وراء بيت المَزرعة المبني من الطُّوب الأحمر، وفكَّرتُ في هِرَّتي.

لم أتذكَّر إلَّا أن أوشَن قد كَبِرَت، وأني عِشتُ سنينًا مُغرَمًا بها. تساءَلتُ عمَّا حدثَ لها، ثم فكَّرتُ: *لا يَهُمُّ أني لم أُعد أذكُر التفاصيل. الموت حدثَ لها. الموت يَحدُث لنا جميعًا.*

فُتِحَ باب في بيت المَزرعة، وسمعتُ خطوات أقدامٍ على الممرِّ، وبعد قليلٍ جلسَت العجوز إلى جواري قائلةً:

- «أحضَرتُ لك قدح شاي، وشطيرة جُبنة وطماطم. أنت جالِسٌ هنا منذ فترةٍ طويلة حتى إني حَسِبتك غَرِقت».

قلتُ لها: «نوعًا»، ثم أضَفتُ: «شكرًا لك».

لقد حَلَّ الغَسَق من دون أن أُلاحِظ وأنا جالِسٌ في مكاني هنا.

أخَذتُ الشَّاي ورشَفتُ منه، وتطلَّعتُ إلى المرأة بإمعانٍ أكثر هذه المرَّة. قارَنتُها بذكرياتي من أربعين عامًا مضَت، وقلتُ:

Twitter: @ketab_n

- «أنتِ لستِ أمَّ لِتي، أنت جَدَّتها، أليس كذلك؟ أنتِ مسز هِمبستوك الكبيرة».

قالت برصانة:

- «هذا صحيح. كُل شطيرتك».

أخَذتُ قضمةً من الشطيرة، وكانت ممتازة، ممتازة فِعلًا. خُبز خرجَ لتوِّه من الفُرن، جُبنة مالِحة لاذِعة، وطماطم لها مذاق حقيقي.

كنتُ غارِقًا في الذِّكريات، وأرَدتُ أن أعرِف ما يعنيه هذا.

قلتُ:

- «أهو حقيقي؟».

وشعرتُ بالحماقة. من بين كلِّ الأسئلة التي كان بإمكاني أن أُلقيها اختَرتُ هذا السؤال.

هَزَّت مسز هِمبستوك الكبيرة كتفيها وقالت:

- «ما تذكَّرته؟ في الغالِب، بشكلٍ أو بآخَر. كلُّ واحدٍ يتذكَّر الأشياء بصورةٍ مُختَلِفة، ولن تُفلِح أبدًا في العثور على اثنين يتَّفِقان على ذاكِرتهما عن شيء، سواء شَهِداه أم لا. ضَع اثنين منكم في صَفٍّ معًا وقد يكونا في الواقِع على بُعد قارَّاتٍ في إدراكهما للأشياء».

كان ثمَّة سؤال آخَر احتَجتُ إجابةً له، فسألته:

- «لماذا أتَيتُ إلى هنا؟».

رمقَتني كأني ألقَيتُ عليها سؤالًا خادِعًا، وأجابَت:

- «من أجل الجنازة. أرَدت أن تَبتَعِد عن الجميع وتَنفَرِد بنفسك،

Twitter: @ketab_n

فاتَّجَهت أولًا إلى المكان الذي عِشْتَ فيه كصبي، وعندما لم يَمنَحك هذا ما كنتَ تَفتَقِده، اتَّجَهتَ إلى نهاية الدَّرب وجِئْتَ إلى هنا كما تفعل دائمًا».

- «كما أفعلُ دائمًا؟».

رشَفتُ المزيد من الشَّاي. كان لا يزال ساخِنًا وقويًّا بما فيه الكفاية، قدحٌ مثاليٌّ من الشَّاي الذي يَشرَبه عُمَّال البناء، يُمكنك أن تُوَقِّف فيه ملعقةً على استقامتها، كما كان أبي يقول عن قدح الشَّاي الذي ينال استحسانه.

كرَّرَت:

- «كما تفعل دائمًا».

قلتُ:

- «لا، أنتِ مُخطِئَة. أعني.. أنا لم آتِ إلى هنا منذ.. منذ سافرَت لِتي إلى أستراليا، في حفل وداعها».

ثم أضَفتُ:

- «الذي لم يَحدُث أصلًا. أنتِ تفهمينني».

قالت:

- «إنك تعود أحيانًا. كنتَ هنا مرَّةً وأنت في الرابعة والعشرين من عُمرك، أذكُرُ هذا. كان معك طِفلان صغيران وكنتَ خائفًا جدًّا. وجِئْتَ إلى هنا قبل أن تُبارِح هذا الجزء من العالم.. كم كان عُمرك وقتها؟ كنتَ في الثلاثينات؟ أطعَمتك وجبةً شهيَّةً في المطبخ، وحكيت لي عن أحلامك والفَن الذي تَصنَعه».

Twitter: @ketab_n

- «لا أذكُرُ هذا».

أزاحَت الشَّعر عن عينيها وقالت:

- «أسهَل هكذا».

احتسَيتُ شايي وأنهَيتُ شطيرتي. كان الكوب الخزفي أبيضَ، وكذلك الطَّبق، وأمسيَّة الصَّيف التي لا تَنتَهي كانت تدنو من نهايتها.

سألتها مرَّةً أخرى:

- «لماذا أتَيتُ إلى هنا؟».

قال صوت:

- «لِتي أرادَتك أن تأتي».

كانت القائلة تدور حول البِركة، امرأة في الثلاثينات من عُمرها تَرتَدي معطفًا بُنِّيًا وحذاءً مطَّاطيًّا طويل العُنُق. رمَقتها في حيرة. كانت تبدو أصغر مني الآن، وكنتُ أذكُرها كامرأةٍ سمينة، لكنها كانت ممتلئة الجِسم فقط، وجذَّابة بتُفَّاحتي وجنتيها هاتين. كانت لا تزال چيني هِمپستوك، أُمَّ لِتي، وكنتُ واثقًا من أنها تبدو الآن كما كانت بالضبط منذ أربعين عامًا ونَيِّف.

جلسَت إلى جواري على الجانِب الآخَر من المقعد، فصِرْتُ محاطًا من الجانِبين بنساء عائلة هِمپستوك، وقالت:

- «أظُنُّ أن لِتي أرادَت أن تعرف إن كان الأمر يَستَحِق».

- «إن كان ماذا يَستَحِق؟».

قالت العجوز بحِدَّة:

Twitter: @ketab_n

- «أنت!».

وقالت چيني:

- «لِتي بذلَت شيئًا كبيرًا جدًّا من أجلك، وأعتَقِدُ أنها تريد في الغالِب أن تَعرِف ماذا حدثَ بعدها، وإن كان يَستَحِق كلَّ ما فعلَته».

- «لقد.. ضَحَّت بنفسها من أجلي».

- «بشكلٍ ما يا عزيزي. لقد اقتلعَت طيور الجوع قلبك من صدرك، وكان صراخك يُمَزِّق نياط القلوب وأنت تموت. لِتي لم تَحتَمِل هذا، وكان يجب أن تفعل شيئًا».

حاوَلتُ أن أتذكَّر هذا، وقلتُ:

- «هذا ليس ما أذكُرُ حدوثه».

وفكَّرتُ في قلبي، وتساءَلتُ إن كانت هناك شظية باردة من الباب لا تزال في داخِله، وإن كان وجودها نِعمةً أم نِقمةً.

تنشَّقَت العجوز وقالت:

- «ألم أقُل لك حالًا إنك لن تَجِدَ اثنين يتَّفِقان على تذكُّر أيِّ شيءٍ أبدًا؟».

- «هل يُمكنني أن أُكَلِّمها؟ لِتي؟».

قالت أُمُّ لِتي:

- «إنها نائمة، جراحها تَندَمِل، وليست تتكلَّم بَعد».

- «ليس قبل أن تَفرُغ من المكان الذي هي فيه»، عَقَّبَت جَدَّة لِتي وهي تُلَوِّح بيدها، لكني لم أدرِ إن كانت تُشير إلى بِركة البَط أم السَّماء.

Twitter: @ketab_n

- «ومتى هذا؟».

- «عندما تكون مُستَعِدَّةً»، قالتها العجوز بينما قالت ابنتها: «قريبًا».

قلتُ:

- «حسنٌ، إذا أرادَتني أن آتي إلى هنا كي تُلقي نظرةً عليَّ، فيُمكنها أن تُلقي نظرةً عليَّ».

وعَلِمتُ وأنا أقول الكلمات أن هذا حدثَ بالفِعل. كم من الوقت مَرَّ وأنا جالِسٌ على هذا المقعد أُحَدِّق في البِركة؟ كانت هي تَمتَحِنني وأنا أتذكَّرها.

- «آه، لقد فعلَت هذا فِعلًا، أليس كذلك؟».

- «بلى يا عزيزي».

- «وهل نجَحتُ؟».

كانت قسمات العجوز إلى يميني غير قابلةٍ للقراءة في الغَسَق المُحتَشِد، وإلى يساري قالت الشَّابَّة:

- «إنك لا تَنجَح أو تَرسُب في كونك إنسانًا يا عزيزي».

وضَعتُ القدح الفارِغ والطَّبق على الأرض، وقالت چيني هِمپستوك:

- «أظنُّك في حالٍ أفضل مما كنتَ عن آخِر مرَّةٍ رأيتك فيها. إن قلبًا جديدًا ينمو لك كبداية».

في ذاكرتي كانت هذه السيِّدة جبلًا، ولقد بكيتُ وارتجَفتُ على

Twitter: @ketab_n

صدرها، والآن كانت أصغر حجمًا مني، ولا أستطيعُ تخيُّلها تَبُثُّ فيَّ الطمأنينة بهذه الطَّريقة.

كان القَمر مُكتَمِلًا في السَّماء فوق البِركة، ولعَمري لا أذكُرُ حقًّا في أيِّ طَوْرٍ كان القَمر آخِر مرَّةٍ لاحَظته، ولا أذكُرُ حتى آخِر مرَّةٍ رفَعتُ فيها عينيَّ لأُبصِر القَمر.

- «ماذا سيَحدُث الآن؟».

قالت العجوز.

- «ما يَحدُث كلَّ مرَّةٍ تأتي فيها إلى هنا، ستعود إلى بيتك».

قلتُ لهما:

- «لم أعُد أدري أين يكون هذا».

قالت چيني:

- «هذا ما تقوله دائمًا».

في عقلي كانت لِتي هِمپستوك لا تزال أطول مني برأسٍ كامل، فهي رغم كلِّ شيء كانت في الحادية عشرة من عُمرها. تساءَلتُ ماذا كنتُ سأرى -من سأرى- لو كانت واقفةً أمامي الآن.

كان القَمر في بِركة البط مُكتَمِلًا كذلك، ومن تلقاء نفسي وجَدتُ نفسي أُفكِّر في الأتقياء البُلهاء في القِصَّة القديمة، الذين ذهبوا ليَصطادوا القَمر من البحيرة مُستَخدِمين الشِّباك، مُقتَنِعين أن الانعكاس الذي في الماء أقرب ومن الأسهل صيده من الكرة المعلَّقة في السَّماء.

وهو كذلك دائمًا طبعًا..

Twitter: @ketab_n

نهَضتُ ومشَيتُ بضع خطواتٍ إلى حافَّة البِركة، وقلتُ بصوتٍ مسموعٍ محاوِلًا تجاهُل المرأتين ورائي:

- «لِتي، شكرًا لأنكِ أنقَذتِ حياتي».

قالت مسز هِمبستوك الكبيرة مُتَنَشِّقَةً:

- «ما كان يَجدُر بها أن تَأخُذك معها إطلاقًا عندما ذهبَت للعثور على بداية كلِّ ما حدثَ. لم يَكُن هناك ما يَمنَعها عن تولِّي الأمر بمُفرَدها. لم تَكُن السخيفة تحتاج لاصطحابك معها. ستتعلَّم درسًا من هذا للمرَّة القادمة».

التفَتُّ ونظرتُ إليها وسألتها:

- «هل تَذكُرين تكوين القَمر حقًّا؟».

قالت:

- «أذكُرُ أشياءَ كثيرة».

سألتُ:

- «هل سأعودُ مرَّةً أخرى؟».

قالت العجوز:

- «ليس لك أن تَعرِف ذلك».

قالت چيني هِمبستوك بدماثة:

- «عليك أن تُغادِر الآن. ثمَّة أناس يتساءَلون أين أنت».

وعندما ذكرَتهم، أدرَكتُ برُعبٍ مُربِكٍ أن أختي وزوجها وأطفالهما وجميع قاصِدي الخير والمُعَزِّين والزَّائرين يتساءَلون في

Twitter: @ketab_n

حيرةٍ عن مكاني، ومع ذلك إن كان هناك يوم يَغفِرون لي فيه أسلوبي الشَّارِد بسهولة، فهو اليوم.

كان يومًا طويلًا وصعبًا، ويُسعِدني أنه انتهى.

قلتُ:

- «أتمنَّى أني لم أُسَبِّب إزعاجًا».

قالت العجوز:

- «لا يا عزيزي، لا إزعاج إطلاقًا».

سمعتُ قِطَّةً تموء، وبَعد لحظةٍ خرجَت ماشيةً الهوينا من قلب الظِّلال وإلى بُقعةٍ من نور القَمر السَّاطِع، واقتربَت مني بخطواتٍ واثقةٍ ودفعَت رأسها في حذائي. انحنَيتُ إلى جوارها وحكَكتُ جبهتها وملَّستُ على ظَهرها. كانت قِطَّةً سوداء جميلة، أو هكذا تصوَّرتُ وقد ابتلعَ نور القَمر ألوان الأشياء، وكانت لديها بُقعة بيضاء فوق إحدى أُذُنيها.

قلتُ:

- «كانت لديَّ قِطَّةٌ كهذه. كان اسمها أوشَن. كانت جميلةً. لا أذكُرُ في الحقيقة ما حدثَ لها».

قالت چيني هِمپستوك:

- «لقد أعدتَها إلينا».

ومَسَّت كتفي بيدها ضاغِطَةً إياها لوهلة، ومَسَّت وجنتي بأطراف أصابعها كأني طِفلٌ صغيرٌ أو حبيب، ثم ابتعدَت لتغوص في قلب الليل.

Twitter: @ketab_n

رفَعتُ الطَّبق والكوب وحملتهما معي ونحن نَقطَع الممرَّ، العجوز وأنا، عودةً إلى المنزل.

قلتُ:

- «القَمر مضيء كنور النهار السَّاطِع، كما تقول الأغنيَّة».

قالت مُوافِقَةً:

- «من الجميل أن يكون القَمر مُكتَمِلًا».

قلتُ:

- «هذا غريب، لكني حَسِبتُ للحظةٍ أن ثمَّة امرأتين هنا. أليس هذا غريبًا؟».

قالت العجوز:

- «لا يوجد إلَّاي. ليس هناك إلَّاي أبدًا».

قلتُ:

- «أعرِفُ.. طبعًا».

كنتُ سآخُذُ الطَّبق والكوب وأضعهما في الحوض في المطبخ، ولكنها أوقفَتني عِند باب بيت المَزرعة وقالت:

- «يجب أن تعود إلى عائلتك الآن. إنهم سيُرسِلون فِرقة بحث».

قلتُ:

- «سيُسامِحونني».

أملتُ أن يُسامِحونني فِعلًا. ستكون أختي قَلِقَةً، وسيكون هناك أناس أعرِفهم بالكاد يَشعُرون بخيبة الأمل لأنهم لم يُخبِرونني كم هُم آسِفون جدًّا جدًّا لخَسارتي.

Twitter: @ketab_n

- «لُطفٌ بالِغٌ منكِ أنكِ تركتيني أجلِس وأُفكِّر هنا عِند البِركة. أنا مُمتَنٌّ جدًّا».

قالت:

- «كلام فارِغ، لا لُطف هنالك على الإطلاق».

قلتُ:

- «أرجو أن تُبلِغي سلامي لِلتي عندما تَكتُب من أستراليا المرَّة القادمة».

- «سأفعلُ. ستُسَرُّ لأنك فكَّرت فيها».

ركَبتُ السيَّارة وشغَّلتُ المُحَرِّك، ووقفَت العجوز في المدخل تُراقِبني بأدبٍ إلى أن دُرْتُ بالسيَّارة وبدأتُ أقطعُ الطَّريق إلى أعلى الدَّرب.

نظَرتُ إلى بيت المَزرعة في مرآة الرؤية الخلفيَّة، وبخدعة ضوءٍ ما بدا كأن هناك قمرين معلَّقين فوقه؛ أحدهما مستديرٌ مُكتَمِلٌ تمامًا، والثاني -توأمه على الجانِب الآخَر من السَّماء- هلال. التفَتُّ في مقعدي بفضولٍ ونظَرتُ ورائي، ورأيتُ هلالًا وحيدًا فوق بيت المَزرعة، هادئًا شاحِبًا مثاليًّا.

تساءَلتُ من أين جاءَ سراب القَمر الثاني، لكن التساؤل لم يَدُم أكثر من لحظة، ثم صرَفتُ الخاطِر من ذِهني. قرَّرتُ أنها كانت صورةً أثيريَّةً ربما، أو طيفًا.. شيئًا تحرَّكَ في عقلي للحظةٍ بقُوَّةٍ شديدةٍ حتى ظننته حقيقيًّا، لكنه تلاشَى الآن وانزَوى في الماضي كذِكرى منسيَّةٍ أو ظِلٍّ في الغَسَق.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

شُكر وتَقدير

هذا الكتاب هو الكتاب الذي قرأتَه الآن، لقد انتهى، والآن نحن في الجزء الخاص بالشُّكر والتَّقدير. هذا ليس جزءًا فِعليًّا من الكتاب، وليس من الضروري أن تقرأه، فما فيه عبارة عن أسماء في الغالِب.

أدينُ بالشُّكر لكثيرين، هؤلاء الذين كانوا موجودين في حياتي عندما احتَجتهم، الذين أحضَروا لي الشَّاي، الذين كتَبوا الكُتُب التي تربَّيتُ عليها. من الحماقة استبعاد أيٍّ منهم، لكني سأُحاوِل ألَّا أفعل.

أرسَلتُ هذا الكتاب لأصدقاءٍ كثيرين عندما انتهَيتُ منه، وقد قرأوه بأعيُنٍ حكيمةٍ وأخبَروني بما راقَ لهم وما كان يحتاج لتعديل. أنا مُمتَنٌّ لهم جميعًا، لكن من الضروري أن أُوَجِّه شُكرًا خاصًّا إلى كلٍّ من ماريا داهڤانا هيدلي، أولجا نونز، ألينا سيمون (ملكة العناوين)، جاري ك. وولف، كات هوارد، كِلي مكولو، إريك سَسمان، هايلي كامبل، ڤاليا دوديتشك لوپسكو، ميلسا مارشال، أنتوني مارتيجنتي، پيتر ستراوب، كات دِننينجز، چين وولف، جوِندا بوند، آن بوبي، لي

Twitter: @ketab_n

«بادچي» بارنِت، موريس شمَّة، فرح مِندلسن، هنري سيليك، كلير كوني، جريس مونك، وكورنيليا فيونكيه.

هذه الرواية بدأَت، على الرغم من أني لم أكُن أعرِفُ أنها ستكون روايةً وقتها، عندما طلبَ مني چوناثان ستارهان أن أكتُب له قِصَّةً قصيرةً، وبدأتُ أحكي قِصَّة مُعَدِّن الأوپال وعائلة هِمپستوك (التي كانت تعيش في المَزرعة في رأسي منذ مُدَّةٍ طويلة)، وكان چوناثان لطيفًا مُتسامِحًا عندما اعترَفتُ لنفسي وله أخيرًا بأن هذه ليست قِصَّةً قصيرةً، وترَكتها تُصبِح روايةً بدلًا من ذلك.

العائلة في هذا الكتاب ليست عائلتي الحقيقيَّة، التي كانت كريمةً بما يكفي لأن تَسمَح لي بسرقة الخلفيَّة الطبيعيَّة لطُفولتي، وشاهدَتني إذ أعَدتُ تشكيل تلك الأماكن في شكل قِصَّة. أنا مُمْتَنٌّ لهم جميعًا، خصوصًا أختي الصغيرة ليزي التي شجَّعَتني وأرسلَت لي صُوَرًا مُنبِّهَةً للذَّاكرة، (وليتني تذكَّرتُ الصوبة الزجاجيَّة القديمة في الوقت المناسب لأضعها في الكتاب).

في ساراسوتا، فلوريدا، ذكَّرَني ستيڤن كينج بحلاوة الكتابة كل يوم. الكلمات تُنقِذ الأرواح أحيانًا.

توري أعطَتني بيتًا آمِنًا أكتُبُ فيه، ولا أستطيع أن أُوَفِّيها حقَّها من الشُّكر.

أعطاني آرت شپيجلمان إذنه الكريم بأن أستَخدِم بالونًا من حواره مع موريس سِنداك في *The New York Times* في افتتاحيَّة الكتاب.

مع دخول هذا الكتاب مسوَّدته الثانية، بينما كنتُ أكتُبُ المسوَّدة الأولى المكتوبة بخَطِّ اليد على الآلة الكاتبة، كنتُ أقرأُ حصيلة اليوم

Twitter: @ketab_n

لزوجتي أماندا في الفِراش ليلًا، وعَرِفتُ أكثر عن الكلمات التي كتَبتها وأنا أقرأها لها بصوتٍ عالٍ أكثر مما عَرِفتُ عن أيِّ شيءٍ آخَر فعَلته. كانت قارئة الكتاب الأولى، وحيرتها وإحباطها وأسئلتها وبهجتها كانوا دليلي خلال المسوَّدات اللَّاحِقة. كتَبتُ هذا الكتاب من أجل أماندا عندما كانت مُسافِرةً بعيدًا وأوحشَتني كثيرًا. من دونها لكانت حياتي أكثر كآبةً وفتورًا.

ابنتاي هولي ومادي، وابني مايكل، كانوا أحكم وألطف نُقَّادي على الإطلاق.

لديَّ مُحَرِّرات رائعات على جانبيّ المُحيط الأطلنطي: چينيفر برِل وچين موربِث وروز ماري بروسنان، اللاتي قرأنَ الكتاب في مسوَّدته الأولى واقترَحنَ أشياءَ مُختَلِفَةً كي أُغَيِّرها وأُعَدِّلها وأُعيد بناءها. چين وچينيفر تعاملَتا جيِّدًا جدًّا مع وصول الكتاب الذي لم يَكُن أحدنا يتوقَّعه، بما في ذلك أنا.

أودُّ جدًّا أن أشكُر لجنة مُحاضَرات زينا ساذَرلاند التي تُعقَد في مكتبة شيكاجو العامَّة. مع استعادَتي لمُحاضَرة زينا ساذَرلاند التي ألقيتها في 2012، أجِدُ أن السواد الأعظم منها كان حوارًا مع نفسي عن الكتاب وأنا أكتُبه، كي أُحاوِل أن أفهم ما كنتُ أكتُبه ولمن أكتُبه.

مريلي هايفتز وكيلتي الأدبيَّة منذ خمسةٍ وعشرين عامًا، ودَعمها في هذا الكتاب -ككلِّ شيءٍ آخَر طوال رُبع القرن الماضي- لا يُقَدَّر بثمن. چون ليڤين، وكيلي للأفلام السينمائيَّة وما شابه، قارئ ممتاز، ويُقَلِّد رينجو ستار بشكلٍ رائع.

Twitter: @ketab_n

أهل Twitter الكرام كانوا مفيدين للغاية عندما احتَجتُ أن أتأكَّد من سِعر عِرق السُّوس وحلوى سَلَطة الفواكه في الستينات، ولعلِّي كنتُ لأَكتُب من دونهم الكتاب بسرعةٍ مُضاعَفة.

وأخيرًا، شُكري لعائلة هِمبستوك التي -بشكلٍ أو بآخَر- كانت موجودةً دائمًا إلى جواري عندما احتَجتها.

نيل جايمان

جزيرة سكاي، سكوتلندا

يوليو 2012

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

تصميم الغلاف نجاح طاهر

نيل جايمان

المُحيطُ في نهايةِ الدَّرْب

- «كانت مُجرَّد بِركة بَط في مؤخِّرة المَزرعة، لكن لِتي هِمپستوك كانت تقول إنها مُحيط، وكنتُ أعرِفُ أن هذا سُخف. قالت إنهم أتوا إلى هنا عَبر المُحيط من الرِّيفِ القديم، وقالت أُمُّها إن لِتي لا تَذكُر بدِقَّة، وقد غَرِقَ الرِّيفُ القديم على كلٍّ حال. وقالت مسز هِمپستوك الكبيرة، جَدَّة لِتي، إن كلتيهما مُخطِئتان، وإن الرِّيفَ القديم هو المكان الذي غَرِقَ وليس الرِّيفَ القديم جدًّا، وقالت إنها تَذكُر الرِّيفَ القديم جدًّا.

قالت إن الرِّيفَ القديم جدًّا قد انفجَر».

«حكاية بالغة الإثارة من روائي محنَّك، يكمن جمالها وقوَّتها في المزج البارع بين العناصر السحريَّة وعالمنا الواقعي».

The Independent –

«نيل جايمان أستاذ في الكتابة عن الخوف الخالص، ويفهم طبيعة الحكايات الخرافيَّة والعلاقة بين الكاتب والقارئ وشخصيَّات قصَّته».

The Guardian –

«من أكثر الأشياء التي تُثري تجربتك وتلفت انتباهك وأنت تقرأ أحد كُتب جايمان، أن عقله نفسه أشبه بمحيطٍ بلا قاع، وفي كلِّ مرَّةٍ تغوص فيه يغيب عنك العالم ويحلُّ محلَّه عالم آخر أروع وأكثر فظاعةً في آنٍ واحد، لكنك تغرق فيه شاعرًا بالسعادة».

The New York Times –

ISBN 978-977-6483-43-9

9 789776 483439

التنوير للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - القاهرة - تونس